

المديرية العامة للتربية والتعليم بمحافظة الإسكندرية

الدكتور
إسماعيل غنيم
جامعة الإسكندرية

١٩٨٣



دار المعارف





الهيئة العامة للغذاء والدواء
الهيئة العامة للغذاء والدواء

• ١٤٥

الامبراطورية البيزنطية

949.502

غنى
٩٠٥

الدكتور الطوري البرزطية وكرت للدلالة

949.502

غنى
P

الدكتور
إسمت غنى
جامعة الإسكندرية



دار المعارف

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

من أهم ما يميز تاريخ العصور الوسطى ، تلك اللقاءات التي تمت بين الدولتين البيزنطية والإسلامية ، وهي لقاءات اتخذت شكل العلاقات المباشرة بين الطرفين ، واستمرت قائمة بينهما على امتداد الشطر الأكبر من العصور الوسطى .

والواقع أن هذه العلاقات البيزنطية الإسلامية على امتداد تاريخها الطويل لم تسير على وتيرة واحدة ، وإنما شابها التغير بين آن وآخر ، فهي تارة تتخذ شكل الصراع العسكري ، ذلك الصراع الذي فرضته طبيعة الحدود المشتركة بينهما واختلاف المصالح ، وتارة أخرى تتمثل في الاتصال الحضاري ، الذي كان في واقع الأمر اتصال قمة بين أرقى حضارتين شهدتهما العصور الوسطى وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية ...

ولكن وسواء كان الاتصال بينهما عسكريا أو حضاريا ، فإنه كان لقاء ندين عرف كل منهما الآخر حق المعرفة وبذل له من التقدير والاحترام ما يستحقه .

ويمثل الموضوع الذي تتم معالجته في هذا البحث حلقة من حلقات المواجهة السياسية بين البيزنطيين والمسلمين في العصور الوسطى ، وهو يشمل فترة زمنية امتدت منذ أواخر العقد الثالث من القرن التاسع الميلادي ، وحتى أوائل الستينات من القرن العاشر . وكان محور هذه العلاقات طوال هذه الحقبة التاريخية ، هي جزيرة كريت التي كانت من ممتلكات الدولة البيزنطية ، ثم فتحها المسلمون في عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت هذه الجزيرة مسرحا للصراع بين المسلمين أصحابها الجدد والبيزنطيين حكامها السابقين .

والحقيقة أن هذا الصراع يعد من أكثر الصفحات تألقا في تاريخ العلاقات الإسلامية البيزنطية ، نظرا للدور البطولي الذي قام به فاتحو كريت المسلمون ضد العدو البيزنطي ، ورغم أهمية الموضوع ، ألا أن المراجع الحديثة ، وعلى الأخص العربية منها ، لم تعطه حقه من العناية والبحث وهذا ما دعانا إلى إختيار هذا الموضوع بالذات لمعالجته في هذا البحث .

ومن الأمور التي حرصت عليها ، أن تتم معالجة هذا الموضوع في ضوء النظرة العريضة الشاملة حتى يمكن الإلمام بصورة واضحة لمسرح الأحداث التاريخية وقتذاك ، خاصة وأن هذا الصراع قد مست جوانبه معظم أنحاء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب على السواء . لذا فمن الضروري أن نشمّل بالدراسة إلى جانب طرفي النزاع المباشرين وهما بيزنطة وكريت ، الخلافات الإسلامية الثلاث التي وجدت في العصور الوسطى ، وهي الخلافة العباسية في المشرق ، والخلافة الأموية في الأندلس ، والخلافة الفاطمية في المغرب والدور الذي لعبه كل منهم في الصراع البيزنطي الإسلامي في كريت ، سواء كان دورا إيجابيا أو دورا سلبيا ، فضلا عن الإحاطة بجميع العوامل السياسية الأخرى التي كان لها تأثيرها المباشر أو غير المباشر على العلاقات بين بيزنطة وكريت في الفترة موضوع البحث .

وقد استلزمت هذه الدراسة أن أخصص الفصل الأول من البحث للفتح الإسلامي لكريت وقد عرضت فيه لجغرافية هذه الجزيرة وأهميتها الاستراتيجية وألمت بنبذة تاريخية عنها قبيل الفتح الإسلامي لها ، ثم تتبعته المحاولات المبكرة للمسلمين لغزو كريت والنتائج التي أسفرت عنها هذه المحاولات . وعرضت لتاريخ الأندلسيين فاتحي كريت منذ خروجهم من موطنهم الأصلي في الأندلس حتى فتحهم للجزيرة ، مع بيان العوامل السياسية الخاصة بالجانب البيزنطي التي مهدت لهذا الفتح وساعدت على نجاحه .

وعرضت في الفصل الثاني للمحاولات المتتالية لبيزنطة في عهد الاسرة العمورية لاسترداد كريت من يد المسلمين ، وعالجت أسباب أخفاق هذه المحاولات ، وتطرقت للظروف السياسية المختلفة التي عرضت لأباطرة هذه الأسرة وكان لها تأثيرها الواضح على سياستهم تجاه هذه الجزيرة .

أما الفصل الثالث ، فقد تناولت فيه التعاون الذي تم بين القوى البحرية الاسلامية المختلفة في حوض البحر المتوسط وبين أسطول كريت في مواجهة البحرية البيزنطية ، وأثر هذا التعاون الاسلامي في الصراع مع بيزنطة خلال المرحلة الزمنية التي امتدت منذ أواخر العقد السابع من القرن التاسع الميلادي وحتى نهاية النصف الأول من القرن العاشر .

وخصصت الفصل الرابع والأخير لعرض تفاصيل أسترجاع بيزنطة لكريت ، والعوامل السياسية الخاصة بالجانبين البيزنطي والاسلامي ، التي أدت لقيام حملة الاسترداد وساعدت على نجاحها . وعالجت موقف القوى الاسلامية المختلفة من الصراع البيزنطي الكريتي في هذه المرحلة ، كما أوضحت الظروف السياسية التي حالت بين المسلمين في المشرق والمغرب على السواء ، وبين محاولة استعادتهم لكريت .

واشتملت الخاتمة على أهم النتائج السياسية التي ترتبت على استرجاع بيزنطة لكريت وتقييم الدور الذي لعبه مسلمو كريت في الصراع البيزنطي الاسلامي في العصور الوسطى .

ولإذ أقدم هذا البحث ، أرجو أن أكون قد وفقت بعرضه في إزاحة الستار عن جهود وجهاد فئة من المسلمين ، كافحت وناضلت العدو ، ونجحت في إحراز العديد من الانتصارات على امبراطورية عتيدة ، بكل ما تهيأ لها من إمكانيات مادية وبشرية ضخمة .

«والله الموفق»

إسمت غنيم

لوران

١٢ أبريل ١٩٨٢

عرض وتحليل لمصادر البحث

فيما يتعلق بالمصادر الخاصة بهذا البحث . تجدر الإشارة إلى أن الاستفادة كانت كبيرة من المصادر البيزنطية وخاصة المعاصرة منها ، التي روت تفاصيل الصراع بين بيزنطة وكريت ، وذلك بخلاف المصادر العربية المعاصرة والمتأخرة على السواء ، التي أغفلت التعرض لتفاصيل هذا الموضوع ، باستثناء قلة منها أوردت بعض المعلومات ورغم أهميتها إلا أنها لا تكفي الباحث لتكوين فكرة واضحة عن حقيقة هذا الصراع البيزنطي الكريتي لذلك فأنا ندين بالفضل للمصادر البيزنطية في إبراز الدور الكبير الذي لعبه مسلمو كريت في النضال ضد العدو البيزنطي ، وإظهار هذه الصفحة المشرقة والمشرقة في تاريخ المسلمين في العصور الوسطى .

والواقع أن الاعتماد أساساً على المصادر البيزنطية في تتبع أخبار هذا الصراع يوضح مدى الجهد الذي استلزمه معالجة هذا الموضوع حيث أن جميع هذه المصادر إما بلغتها الأصلية وهي اللغة اليونانية ، أو مترجمة إلى اللغة اللاتينية كما هو الحال في مجموعة بون البيزنطية المعروفة بأسم Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae (١) وبقدر ما عانيت من صعوبة قراءة وفهم هذه اللغات ومشقة نقلها إلى لغة عربية سليمة مع الحفاظ على المعنى الذي يقصده المؤرخ ، بقدر ما أرجو أن أكون قد وقفت في استخلاص مثل هذه المعلومات التاريخية القيمة من مصادرها الأصلية وعرضها باللغة العربية .

(١) هذه المجموعة تشكون من خمسين مجلداً ، وتشمل كتابات غالبية المؤرخين البيزنطيين المعاصرين منهم والمتأخرين ، وهي تضم الأصول اليونانية وترجمة لاتينية حرفية لهذه الأصول ، وقد تم نشر هذا المجموعة في مدينة بون بألمانيا .

ومن المؤرخين البيزنطيين الذين تعرضوا لتفاصيل الصراع بين بيزنطة وكريت الاسلامية المؤرخين التاليين بحسب ترتيبهم الزمني :

يوحنا كامينيائي :

هو أحد المؤرخين البيزنطيين ، ولد بمدينة سالونيك وعاش بها في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الميلاديين . و كتابه الذي يعرف بأسم «قهر سالونيك» يعتبر من أكثر المصادر أهمية لموضوع البحث ، إذ إنفرد فيه مؤلفه بسرد التفاصيل الدقيقة للغارة التي قام بها الكريتيون وإخوانهم المسلمين من مصر والشام على المدينة البيزنطية الهامة سالونيك في عام ٩٠٤ م . ومما زاد في أهمية هذا المصدر أن كامينيائي كان شاهد عيان لهذه الغارة ، كما أنه وقع أسيرا في قبضة المسلمين ، وانتهى به المطاف إلى مدينة طرسوس على ساحل قيليقية ومنها عاد مرة أخرى إلى سالونيك بعد أن تم إفتدائه وبعد عودته إلى بلده دون جميع ما يتعلق بهذه الغارة منذ ظهر الاسطول الاسلامي أمام سالونيك حتى عودته إلى قواعده في كريت والشام ومصر ، بعد الانتصار التام الذي أحرزه .

وقد تميز أسلوب هذا الكتاب بالطابع الحزين المؤثر ، وذلك يرجع إلى أن مؤلفه عاش المأساة وخاض وقائعها بنفسه . وقد تم الاعتماد على الأصل اليوناني لهذا الكتاب الذي نشر لأول مرة في عام ١٨٣٨ م في مجموعة بون البيزنطية (١) .

قسطنطين بورفيروجينيتوس "Constantin Porphyrogénétus"

هو الامبراطور قسطنطين السابع ، ابن الامبراطور ليو السادس من

(١) انظر كتاب يوحنا كامينيائي «قهر سالونيك» ص ٤٨٧ وما بعدها باليونانية ، وراجع كذلك :

La grand Encyclopedia, Vol VIII, p 1079

زوجته الرابعة زوى كاربونوبسينا Zoé Carbonopsina . ولد في عام ٩٠٥ م ، وتوفي في ٩ نوفمبر ٩٥٩ م .

ورغم أن العرش البيزنطى قد آل إلى قسطنطين السابع بعد وفاة والده ليو السادس في عام ٩١١ م ، إلا أنه لم يتولى مقاليد الأمور بصفة فعلية إلا في عام ٩٤٤ م (١) وبعد أن انفرد بالعرش فإنه عهد إلى زوجته هيلين ليكاينوس ووزرائه بتصريف شئون الحكم . ويرجع السبب في ذلك إلى تفوق النزعة الأدبية عند قسطنطين على النزعة السياسية ، فقد إشتهر بميله إلى العلم والمعرفة والدراسات التاريخية وأسهم بذلك في التقدم الفكرى البيزنطى بما أصدره من مؤلفات عديدة ، وما أقدم عليه من تشجيع الآخرين على التأليف . وقد أنفق أموالا طائلة في سبيل تصنيف كتبها تتضمن نصوصا مختارة من مؤلفات القدماء .

ومن مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع كتاب عن «الثغور» De Thematibus الذى جرى تأليفه في عام ٩٣٤ م . وهذا الكتاب يعتبر سجل للولايات البيزنطية وحدودها وسكانها ، وإستمد معظم مادته من المؤلفات الجغرافية التى ترجع إلى القرنين الخامس والسادس الميلاديين . وقد رجعت إلى هذا الكتاب عند التعرض لدراسة جغرافية بعض الجزر والبلاد البيزنطية التى ورد ذكرها في هذا البحث .

أما كتابه عن «إدارة الامبراطورية» De Administrando Imperio الذى أهداه إلى أبنه وولى عهده رومانوس الثانى ، فيحتمل أنه وضعه في عام ٩٥٣ م ، وقد استهل هذا الكتاب بفصل عن الاقوام التى تجاور الامبراطورية

(١) انظر تفاصيل الظروف السياسية التى حالت دون انفراد الامبراطور قسطنطين السابع بالعرش البيزنطى في الفصل الثالث من هذا البحث .

البيزنطية من جهة الشمال وما قام به هؤلاء الاقوام لاسيما البجناك والروس من دور كبير في الحياة السياسية والاقتصادية في القرن العاشر الميلادي . واشتمل هذا الكتاب على العديد من التوجيهات بشأن السياسة الخارجية لبيزنطة ، وعلاقات الامبراطورية بالأمم المجاورة لها . أما أهمية هذا الكتاب بالنسبة للموضوع الذي نحن بصدد معالجته في هذا البحث فتعتبر محدودة إذ أن الامبراطور قسطنطين تعرض فيه للفتح الاسلامي لكريت بإيجاز ولم يأت بمجديد في هذا الموضوع يخالف فيه المصادر البيزنطية الأخرى التي تعرضت للفتح .

ومن مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع كذلك كتاب «المراسم الامبراطورية» وهو عبارة عن نصوص مختلفة ، يتناول الأباطرة الذين سبقوا قسطنطين ، والذين جاءوا بعده ، لذلك فالمصدر يشتمل على زيادات أضيفت إليه في فترة متأخرة . وقد أستند في تأليفه إلى محفوظات القصر الامبراطوري من سجلات رسمية في العصور المختلفة . وهو يتضمن مادة وافية عن قواعد المعاملة في البلاط البيزنطي وآداب السلوك ، وكل ما يتعلق بالحياة داخل القصر الامبراطوري من حيث الإدارة المالية للقصر ، والتعميد والزواج وتشجيع جنائز الأباطرة وإستقبال السفراء الأجانب وإعداد الحملات الحربية والوظائف والألقاب وأغلب الظن أن تصنيف هذا الكتاب تم في عام ٩٥٣م

(١) بشأن عصر قسطنطين السابع وموافاته أنظر :

Diehl, dans la grande Encyclopedia, tome XXX, pp. 583—584; Barker, Social and Political thought in Byzantium, pp 100—104; Ostrogorsky History of the Byzantine State, pp 150—191

راجع كذلك هارتمان ، الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ترجمة الدكتور جوزيف نسيم ، الاسكندرية ، ١٩٧٠ ، ص ٦-٧ .

وهذا المصدر يعتبر على جانب كبير من الاهمية لموضوع هذا البحث
إذ أورد فيه الامبراطور قسطنطين السابع تفاصيل الاستعدادات العسكرية
للحملتين الكبيرتين اللتين أرسلتهما الامبراطورية البيزنطية ضد كريت، وجرى
ارسال الحملة الأولى في عام ٩١٠ م في عصر والده الامبراطور ليو السادس ،
على حين أرسلت الحملة الثانية في عام ٩٤٩ م في عصر قسطنطين السابع نفسه.
والواقع أننا ندين بالفضل لهذا المؤرخ في امدادنا بالمعلومات القيمة عن هاتين
الحملتين ، إذ لولاه لطمست معالم هذه الحقبة الهامة في تاريخ العلاقات البيزنطية
الكريتيه ، نظرا لأنه لم ترد التفاصيل الخاصة بهما في أى مصدر آخر من المصادر
البيزنطية والعربية على السواء . هذا إلى جانب ما أورده هذا الكتاب من تفاصيل
الاحتفالات التقليدية التي تقام في بيزنطة في حالة احراز النصر على المسلمين
وهو ما افادنا أثناء معالجة الفصل الرابع من هذا البحث ، حين عرضنا
للاحتفالات التي تمت في بيزنطة ابتهاجا باسترجاع كريت من يد المسلمين .
وقد نشرت مؤلفات الامبراطور قسطنطين السابع لأول مرة في مجموعة
بون البيزنطية ورجعت في بحثي إلى الترجمة اللاتينية للكتابين الأول والثاني
وعلى الأصل اليوناني للكتاب الثالث .

مؤلف صلة ثيوفان : "Theophanes Continuatus"

لم يعرف على وجه الدقة مؤلف هذا الكتاب ، وان كان بعض المؤرخين
المحدثين قد رجحوا أن مؤلفه هو الامبراطور قسطنطين السابع نفسه (١) .
والكتاب يبدأ بعرض الاحداث الخاصة بعصر الامبراطور ليو الارمني (٨١٣-
٨٢٠ م) ويسير في تسلسل زمني حتى عصر الامبراطور قسطنطين السابع ،
وهذا المصدر يمجّد الاسرة المقدونية وعلى الأخص مؤسسها باسيل الأول .

(1) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p 187;

رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٩٦ .

وقد عني مؤلف صلة ثيوفان بالاحداث الخاصة بالعلاقات بين بيزنطة وكريت منذ بداية الفتح الاسلامي للجزيرة حتى عصر الامبراطور ليوس السادس (٩١١ م) ، لذلك كان الاعتماد على هذا المصدر أمر ضروري أثناء معالجة العلاقات البيزنطية الكريتية خلال هذه الفترة من الزمن ، وكذلك لمختلف العناصر الجانبية الخاصة بهذا البحث ، مثل تلك التي ساعدت على نجاح الفتح الاسلامي لكريت كثورة توماس الصقلي والتائج التي ترتبت عليها. والأخرى التي أثرت على الصراع بين بيزنطة وكريت مثل فتح صقلية ، والحروب بين العباسيين والبيزنطيين في عصر ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) وعلاقات بيزنطة بجيرانها الروس والبلغار وغيرها من الموضوعات التي تركت بصماتها الواضحة على العلاقات بين الطرفين في الفترة موضوع البحث .

وقد نشر هذا الكتاب للمرة الأولى في عام ١٨٣٨ م في مجموعة بون البيزنطية .

جينزيوس : "Genesisius"

هو المؤرخ البيزنطي جوزيف جينزيوس ، عاش في أواسط القرن العاشر الميلادي وصنف أثناء حياة الامبراطور قسطنطين السابع في الفترة من ٩٥٤ - ٩٥٩ م كتاب أطلق عليه اسم «تاريخ الملوك» "Basileia" ، بدأه بالأحداث التي تمت خلال عهد الامبراطور ليو الارمني وأختمه بوفاة الامبراطور باسيل الأول في ٨٨٦ م .

وهذا المصدر على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لهذه الفترة من التاريخ البيزنطي حيث أن جينزيوس قد أستقى معلوماته التاريخية من شهود العيان من أقربائه الذين كانوا يشغلون مناصب هامة في البلاط الامبراطوري . كما كان هو نفسه مقربا من الامبراطور قسطنطين السابع ومن ثم فقد أتيسح له الاطلاع على الوثائق الهامة المحفوظة بالقصر الامبراطوري .

وقد أهتم جينزيوس ، شأنه في ذلك شأن صاحب صلة ثيوفان ، بأيراد مختلف العناصر الجانبية الخاصة بالعلاقات بين بيزنطة وكريت في الفترة التي

تناولها . وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في عام ١٧٣٣ م في مدينة ليبزج Leipzig في مجموعة فينيس البيزنطية La Byzantine de Venise ثم نشر من جديد في عام ١٨٣٤ م في مجموعة بون البيزنطية (١) .

ثيودوسيوس الشماس :

عاش ثيودوسيوس في أواسط القرن العاشر الميلادي ، وكان يعمل شماسا في كنيسة القسطنطينية ، وقد أثار حماسة الانتصار الكبير الذي أحرزه نقفور فوقاس في كريت أثناء الحملة التي قادها في عام ٩٦٠ م والتي نجحت في استعادتها من أيدي المسلمين ، فألف ملحمة شعرية من خمسة أبواب أسماها «فتح كريت» .

وقد حرص ثيودوسيوس على عدم اظهار هذه الملحمة أثناء حياة الامبراطور رومانوس الثاني خوفا من غيرة هذا الامبراطور من النجاح المطرد للمستق نقفور فوقاس .. على أنه قدمها لنقفور في أبريل عام ٩٦٣ م بعد وفاة الامبراطور رومانوس الثاني (٢) .

ورغم أن هذه الملحمة تعتبر من المصادر الهامة والرئيسية التي يمكن الرجوع اليها عند معالجة حملة نقفور فوقاس على كريت ، إلا أنه يجب على الباحث أن يتقبلها بحذر تام ، إذ أن مؤلفها يظهر تحيزا واضحا للجانب البيزنطي ، ويبالغ في تمجيد جيشه وقائده نقفور فوقاس الذي يطلق عليه ثيودوسيوس اسم «شمس القادة» و «منتقم الرومان» وغيرها من الألقاب البراقة التي تنم عن اعجابه الشديد بهذا القائد وشجاعته وبطولاته النادرة. وهو نفس الاسلوب الذي تتميز به دائما الملاحم الشعرية التي تمجد أعمال القادة العظام وغيرهم من الشخصيات التي يرتبط اسمها بأعمال البطولة .

وقد تم الاعتماد على الاصل اليوناني الذي نشر لأول مرة في مجموعة بون البيزنطية .

(1) La grande Encyclopedia, tome Dix - Huitième, p 732

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantine au Dixieme siècle Nicephore Phocas, p 84

ليون الشماس : "Leon Diaconus"

هو أحد رجال الدين البيزنطيين ، عاش في النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي وفي حوالى ٩٩٢ م تقريبا ، وضع مؤلفا عرف باسم «تاريخ ليون الشماس» Leonis Diaconi Historiae تكون من عشرة فصول تناول فيه الاحداث التاريخية البيزنطية في الفترة من ٩٥٩ – ٩٧٦ م . وعرض للانجازات العسكرية التي قام بها القائد ثم الامبراطور نقفور فوقاس ، والامبراطور يوحنا ترميسكس ضد المسلمين والشعوب الأخرى المجاورة للامبراطورية البيزنطية مثل الروس والبلغار .

وقد خصص ليون الشماس الفصلين الأولين من مؤلفه لعرض الحملة التي قادها نقفور فوقاس ضد كريت في عام ٩٦٠ م . وكل التطورات الخاصة بهذه الحملة حتى تم لها فتح الجزيرة وفرض السيادة البيزنطية عليها من جديد . لذلك فقد كان هذا الكتاب من المصادر الاساسية التي اعتمدت عليها في الفصل الرابع من هذا البحث ، وذلك عند التعرض للاحداث الخاصة باسترجاع بيزنطة لكريت .

والنسخة الخطية لهذا الكتاب موجودة في مدينة باريس ، وقد قامت دار النشر الفرنسية هاس «Hase» بنشرها للمرة الأولى في عام ١٨١٩ مع التعليق عليها الذي له جانب كبير من الاهمية ، ثم أعيد طبع نسخة هاس هذه في مجموعة بون البيزنطية في عام ١٨٢٨ م . (١)

كان ذلك عن المصادر البيزنطية ، أما المصادر العربية فبرغم أنها تأت في المرتبة الثانية بالنسبة للموضوع الاساسي في هذا البحث وهو العلاقات السياسية (المباشرة) بين بيزنطة وكريت الاسلامية ، إلا أن القليل من هذه المصادر قد انفرد بأيراد بعض الاحداث التاريخية الهامة الخاصة بهذه العلاقات ، ولم نعثر

(1) La grande Encyclopedie, inventaire Raisonné des Sciences, des lettres, des arts, tome vingt, p 32.

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, P.187.

على أية إشارة لها في المصادر البيزنطية وبذلك تصبح المصادر العربية مكملية للمصادر البيزنطية في هذا الشأن . فضلا عن الاعتماد على المصادر العربية في كثير من الأحيان عند معالجة بعض العناصر الجانبية المتفرعة عن موضوع البحث والتي أثرت تأثيرا مباشرا أو غير مباشر على العلاقات بين بيزنطة وكريت .

وإلى جانب الاعتماد على المصادر التاريخية ، استعنت أيضا بما كتبه الرحالة والجغرافيون وخاصة المعاصرون منهم ، والواقع أن بعض هذه المصادر الجغرافية أوردت من المعلومات الجغرافية والتاريخية على السواء ، ما أنار لنا السبيل في كثير من الأحيان أثناء معالجة بعض المسائل الجغرافية أو التاريخية الخاصة بالبحث .

وتجدر الإشارة هنا بصفة خاصة إلى بعض المؤرخين المسلمين ، الذين أمدتنا كتبهم بالمعلومات القيمة المفيدة ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر المؤرخ المعاصر الطبري وهو أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن خالد ، ولد في عام ٢٢٤ هـ (٨٣٩ م) بمدينة أمل بالقرب من بحر قزوين في إقليم طبرستان الفارسي ، ولذلك سمي بالطبري ، وتوفي في بغداد في عام ٣١٠ هـ (٩٢٢ - ٩٢٣ م) . (١) .

استفاد الطبري من خيرة الاساتذة في بلده ثم رحل في طلب العلم ، ونزل بایران والعراق والشام ومصر ، وكان واسع المعرفة بالاحاديث الاسلامية والقرآن الكريم والفقه والتاريخ وقد وضع الطبري تفسيرا للقرآن الكريم ، يقال أنه كان في الأصل أكثر اسهابا مما هو عليه الآن ويقول المؤرخ فيليب

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان وانباء أبناء الزمان ، حقه وعلق عليه ووضع فهارسه محمد محي الدين عبد الحميد ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٤٨ ص ٣٣٢ .

Hitti, History of the Arabs, London, 1937, p. 390.

حتى أن هذا التفسير «يعتبر لا أقدم التفاسير فحسب ، بل أعظم مجموعة للروايات التفسيرية . وقد أصبح مقياسا نسج على منواله المفسرون فيما بعد ، واستمدوا منه معلوماتهم » (١) .

أما كتابه التاريخي المعروف باسم «تاريخ الرسل والملوك» أو «تاريخ الأمم والملوك» فهو يبدأ منذ بداية الخليقة ، وينتهي حتى عام ٣٠٢ هـ (٨١٥ م) . وقد رتب الطبري حوادث التاريخ ترتيبا زمنيا ، فجمعها تحت سنوات الهجرة المتعاقبة ، وأتبع في كتابته الطريقة المحببة إليه وهي عرض الأخبار على طريقة الرواية الدينية المعروفة بالاسناد ولم يقتصر الطبري على الاستفادة من المصادر الأدبية والتاريخية التي ترجمت عن الفارسية ، والتي كانت موجودة في عصره بل أضاف حوادث إلى تاريخه من الروايات الشفوية التي جمعها أثناء رحلاته ، ومن المحاضرات التي تلقاها على شيوخه الذين درس على أيديهم في بغداد وغيرها من مراكز الفكر . ويقول ابن خلكان وهو أحد الذين ترجموا لحياة الطبري أن «تاريخه من أصح التواريخ وأثبتها» (٢) . ويقال ان النسخة الأصلية من هذا الكتاب تبلغ عشرة امثال النسخة الموجودة الآن (٣) .

وقد أولى الطبري اهتماما كبيرا للعلاقات السياسية بين البيزنطيين أو (الروم) على حد تعبيره ، والمسلمين في المشرق ، على أنه مما يؤخذ على الطبري عدم اهتمامه بتتبع أخبار المسلمين بكريت ، رغم أنه كان معاصرا لفترة لا يستهان بها (٢٢٤ - ٣١٠ هـ ٨٣٩ - ٩٢٣ م) من الصراع البيزنطي الكریتی . ويبدو أن السبب في اغفال الطبري التعرض لتاريخ كريت الاسلامية ، يرجع إلى عدم معرفته الدقيقة بهذه الجزيرة ، ويتضح ذلك جليا أثناء عرضه الموجز

(1) Hitti, op. cit, p.390

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ، ص ٣٣٣ .

(3) Hitti, op. cit., p. 390.

للفتح الاسلامى لهذه الجزيرة إذ قال أنه بعد مغادرة الاندلسيين للاسكندرية فى ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م «نزلوا جزيرة من جزائر البحر يقال لها اقريطش» (١) .
على أن الاستفادة كانت كبيرة من هذا المصدر فيما يتعلق بالصراع بين العباسيين والبيزنطيين فى عهد الامبراطور ثيوفيل ، هذا الصراع الذى كان له تأثيره على العلاقات بين بيزنطة وكريت . كما كان الطبرى أكثر المؤرخين المسلمين سردا لتفاصيل الغارة التى قام بها البيزنطيون على مدينة دمياط فى عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م ، انتقاما للهزائم التى أنزلها بهم مسلمو كريت ، تلك الغارة التى أغفلتها المصادر البيزنطية تماما ، رغم ما حققه فيها البيزنطيون من نجاح .

النعمان :

هو المؤرخ الشيعى أبو حنيفة بن محمد المغربى ، عاش فى المغرب فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى ، وتوفى فى ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م - ٩٧٤ م .
وكان النعمان عالما فى المسائل القضائية والفقهية ، وكان يشغل منصب (القاضى) فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٢) .

وكتاب النعمان المعروف باسم «المجالس والمسائرات» يعد من أهم المصادر التاريخية المعاصرة للخليفة المعز (٩٥٢ - ٩٧٥ م) وقد تناول فيه النعمان علاقة المعز بالامويين فى الأندلس وشرح أسباب العداء الذى قام بينهم وبين الفاطميين ووازن بين قوة كل منهما . كما عرض كذلك لعلاقة المعز بالدولة البيزنطية .

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، الجزء العاشر ، ٢٧٦ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ . ص ص ٤٧٨ - ٤٧٩ .

وترجع أهمية هذا الكتاب بالنسبة لموضوع البحث إلى أن النعمان قد انفرد دون غيره، من سائر المؤرخين المسلمين والبيزنطيين بأيراد تفاصيل السفارة التي أرسلها مسلمو كريت إلى الخليفة المعز لدين الله وهو في شمال افريقية يستنجدون به ضد الدولة البيزنطية التي أناخت جيوشها وأساطيلها عليهم في عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ وما دار بين المعز وأعضاء السفارة الكريتية من أحاديث متبادلة . كما انفرد دون المؤرخين جميعا بأيراد نص الكتاب الذي بعث به الخليفة المعز إلى الامبراطور البيزنطي رومانوس الثاني بشأن موضوع كريت . وكذلك نص الخطاب الذي أرسله المعز لكافور الاخشيدي بهدف التعاون معا لنجدة أهالي كريت من القوات البيزنطية المحاصرة لهم .

وهذا الكتاب يتكون من مجلدين ، تمت الاستفادة من المجلد الثاني وهو مايزال مخطوطا وهو موجود بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ .

النويسرى :

هو أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن شهاب الدين النويسرى كان عالما جليلا ومؤرخا وفقيها ، ولد بمصر في أواخر القرن السابع الهجرى وتوفى بها في رمضان عام ٧٣٢ هـ / يونية ١٣٣٢ م في سن الخمسين (١) .

وكتابه الكبير «نهاية الأرب في فنون الأدب» يتألف من واحد وثلاثين مجلدا طبع منها حتى الآن ١٨ مجلدا ، نشرته دار الكتب المصرية ، وبقية هذه الموسوعة لايزال مخطوطا .

وهذا الكتاب يشتمل على مواد أدبية ولغوية وجغرافية وإدارية ودينية وتاريخية وقد قسم النويسرى التاريخ الاسلامى إلى دول، فتحدث عن السيرة

(١) فازيليف : العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادى شعيره ، ص ٣٢٨ .

النبوية ، وأخبار الخلفاء الراشدين ، وتعرض لتاريخ الدولة الأموية والدولة العباسية ، والدولة العلوية (الفاطمية) ودول ملوك الاسلام المستقلة بالملك في عصر الدولة العباسية ، وقد تناول النويرى تاريخ هذه الدول دولة دولة ، فلا ينتقل من سرد تاريخ دولة منها إلا إذا انتهى من عرض تاريخ الدولة السابقة (١). وقد عرض للفترة المتأخرة من تاريخ امارة اقريطش (كريت) ضمن عرضه لتاريخ مختلف الدول الاسلامية الأخرى وذلك في المجلد الثانى والعشرين الذى لا يزال مخطوطا .

وقد انفرد النويرى من بين المؤرخين المسلمين ، برواية أخبار استعادة بيزنطة لكريت ، ولكن للأسف ، فإن روايته في هذا الشأن ضعيفة وتخالف الحقائق التاريخية التى وردت في المصادر البيزنطية ، وقد تمت مناقشة ذلك في موضعه في الفصل الرابع من هذا البحث . كما انفرد كذلك دون سائر المؤرخين المسلمين والبيزنطيين على السواء ، بسرد تفاصيل أجبار بيزنطة بعد استعادتها لكريت في عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ أهالى الجزيرة المسلمين على ترك دينهم ، واعتناق المسيحية متبعة في ذلك أعنف الوسائل .

ولإلى جانب المصادر من بيزنطة وعربية ، رجعت كذلك إلى أهم المراجع الحديثة مثل تلك التى أهتمت بمعالجة تاريخ الامبراطورية البيزنطية، والأخرى التى عرضت للعلاقات البيزنطية الاسلامية بصفة عامة . ومن أهم هذه المراجع مؤلفات المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه Schlumberger وعلى الأخص كتاب Un Empereur Byzantin au Dixième Siecle, Nicephore Phocas.

وهو دراسة تاريخية مسهبة عن نقفور فوقاس وحروبه ضد المسلمين سواء وهو قائد أو بعد اعتلائه للعرش الامبراطورى ، وقد نشر هذا الكتاب في

(١) السيد عبد العزيز سالم : التاريخ والمؤرخون العرب ، الاسكندرية ١٩٦٧ من ص ٨٤-٨٥ ، ص ١٩٨ .

باريس فى عام ١٨٩٠ . ومؤلفات المؤرخ الروسى فازيلييف Vasiliev ومنها
«تاريخ الامبراطورية البيزنطية» «Hisitore de l'empire Byzantin»
الذى بلغ من أهميته أنه ترجم من اللغة الروسية إلى لغات عديدة ، ونشرت
احدى هذه الترجمات باللغة الفرنسية فى مدينة باريس فى عام ١٩٣٢ م ، وقد
عالج فازيلييف فى هذا الكتاب تاريخ الامبراطورية البيزنطية منذ القرن الرابع
الميلادى ، حتى سقوطها فى عام ١٤٥٣ م . ولفازيلييف كتاب آخر يتكون
من ثلاث مجلدات عن العلاقات بين المسلمين والدولة البيزنطية وترجمة إلى
اللغة الفرنسية المؤرخان جريجوار و كانار ، ونقل الجزء الأول منه إلى اللغة
العربية الأستاذ الدكتور محمد عبد الهادى شعيره وظهر بعنوان «العرب والروم»
ومن أهم المراجع الأجنبية كذلك كتاب المؤرخ الروسى اوستروجورسكى
Ostrogorsky الذى كتبه باللغة الالمانية ثم ترجمته المؤرخة الانجليزية
Hussey إلى اللغة الانجليزية تحت عنوان History of the Byzantine State
وقد تناول فيه هذا المؤرخ دراسة تاريخ الامبراطورية البيزنطية حتى سقوطها
فى عام ١٤٥٣ م وأولى اهتماما خاصا للناحية السياسية .

أما المراجع العربية فأهمها لموضوع البحث مؤلفات الأستاذ الدكتور عمر
كمال توفيق «الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة» وهو
دراسة لحروب نقفور فوقاس فى المشرق الاسلامى ، منذ اعتلائه للعرش
الامبراطورى فى ٩٦٣ م وحتى وفاته فى ٩٦٩ م ، وما تميزت به هذه الحرب
من الطابع الدينى ، وكتاب «مقدمات العدوان الصليبي» ، وتناول فيه
فتوحات الامبراطور يوحنا تريمسكس فى الشرق الأدنى الاسلامى وأولى اهتماما
خاصا لدراسة أحوال المشرق وبشكل خاص فى المرحلة التى سبقت هجوم
تريمسكس ، كما زود الكتاب بعدة ملاحق على جانب كبير من الأهمية .

والواقع أن هذين الكتابين دراسة تحليلية دقيقة للموضوعات التي عالجها المؤلف ، وقد اعتمد في هذه الدراسة على المصادر من بزنطة وعربية . أما الكتاب الثالث وهو «تاريخ الامبراطورية البيزنطية» . فقد عالج فيه التاريخ البيزنطي بصفة عامة منذ بداية تأسيس القسطنطينية في عهد الامبراطور قسطنطين الأكبر وحتى سقوطها في ١٤٥٣ م .

كان هذا عرض سريع لأهم المصادر البيزنطية والعربية المعاصرة والمتأخرة زمنيا ، التي أنارت لي سبيل البحث والمعرفة في هذا الموضوع .

الفصل الأول

الفتح الاسلامى لجزيرة كريت

٨٢٧م / ٢١٢ هـ

- جغرافية كريت وأهميتها الاستراتيجية .
- أحوال كريت قبيل الفتح الاسلامى .
- محاولات المسلمين المبكرة لغزو الجزيرة ونتائجها .
- مناقشة أصل الأندلسيين فاتحى كريت .
- نزول الأندلسيين بالاسكندرية ومشاركتهم فى أحداثها السياسية ، ثم استقلالهم بها .
- طردهم من الاسكندرية ونزولهم بكريت وفتحهم لها .
- تحليل أسباب عدم وجود مقاومة من جانب السلطات البيزنطية وأهالى كريت ، للفاتحين المسلمين .

كريت ، هى الجزيرة ذات المائة مدينة ، التى لعبت دورا هاما فى تاريخ العلاقات السياسية بين المسلمين والدولة البيزنطية خلال الفترة التى امتدت من أواخر العقد الثالث من القرن التاسع ، حتى أوائل الستينات من القرن العاشر الميلادى ، وقد استحوذت خلال تلك الفترة من الزمن على جانب كبير من اهتمام بيزنطة ، وأصبح القضاء على السيادة الاسلامية على هذه الجزيرة هو الشغل الشاغل لها .

اشتهرت كريت فى العصور القديمة بأسماء متعددة ، فسميت ماكارونيسوس Macaronesos ، وأيضا «يريا» Aeria (١) نظرا للطف هواءها

(١) الأصل اليونانى لهذه الكلمة هو يريوس ومعناها الحرفى «طلق الهواء» .

واعتدال مناخها ، وعرفت كذلك باسم «دوليخه» Doliché بسبب تكوينها المستطيل الشكل ، كما سميت ، تلخينيا Telchinia نسبة إلى الشعب المعروف باسم «تلخينيس» Telchines ، وهو أحد الشعوب التي استوطنت كريت في الأزمنة القديمة ، وأطلق عليها أيضا أسم «ايدايا» Idaea (١) ، والراجح أن هذا الاسم نسبة إلى جبل «أيدا» Ida أضخم جبال كريت .

أما في العصور الوسطى فقد أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون المسلمون اسم اقريطش (٢) أو اقريطية (٣) ، وذكر المؤرخ القلقشندي أنها «تسمى أيضا (اقريطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة (٤)» . وعرفها المؤرخون البيزنطيون باسم كريت (Creta) (٥) .

وقد اختلفت الروايات الخاصة بتحديد أصل اسم «كريت» ، فالبعض يرجح أن هذا الاسم مشتق من «كوريتيس» Curètes وهو اسم أحد الشعوب

(1) Lacroix; M.L., Histoire et Description de tous les peuples, Iles de la Crece, p. 530.

(٢) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج ١ ، ص ٥٧ ، المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ج ٥ ، ص ١٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠٣ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢٣٦ .

(٣) ابن رسته : الاعلام النفسية ، ص ٨٥ .

(٤) القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(٥) انظر كتاب المؤرخ البيزنطي كيدر ينوس ، المسمى ، «موجز التاريخ» وهو مدون باليونانية ، الجزء الثاني ص ٩٢ .

وانظر كذلك :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum , p. 789 ; Constantim Porphyrogenetus, De Administrando. Imperio p. 104; Genesius Basileiai, p. 46, Symeon Magistri, Annales, p. 758.

التي سكنت كريت في الأزمان القديمة ، ولعب دورا هاما في تاريخها وحضارتها (١) . وثمة فريق آخر يعزى هذا الاسم إلى « كريس » Cres وهو اسم أول ملك حكم هذه الجزيرة ، وأطلق عليه القلقشندي اسم قراطى فقال : «سميت بذلك لأن أول من عمرها كان اسمه قراطى» (٢) ، أما الجغرافى تيودور الصقلى فقد ذكر فى هذا الصدد رواية غلب عليها الخيال ، وتتلخص فى أن الاله المصرى آمون ضاق ذرعا بأحدى المجاعات التى حدثت فى مصر ، فهاجر منها إلى جزيرة كريت ، التى كانت تعرف آنذاك باسم «ايدايا» Idaea ، وتزوج من احدى بنات شعب «كوريتيس» وتدعى «كريتا» Creta وبعد أن تم الزواج أصبح الاله آمون ملكا على تلك الجزيرة ، التى أصبحت تعرف منذ ذلك الحين باسم كريت نسبة إلى زوجته (٣) .

وبالبحث فى جغرافية كريت خلال العصور الوسطى يصادف صعوبة كبيرة ، نظرا لضآلة المعلومات الخاصة بهذا الموضوع ، فعلى الرغم من اهتمام المؤرخين البيزنطيين بسرد الصراع السياسى الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية والمسلمين بكريت ، إلا أنهم لم يذكروا شيئا عن جغرافية الجزيرة ، بل أن الامبراطور قسطنطين السابع فى كتابه عن الثيمات الامبراطورية De Thematibus (٤) رغم اهتمامه الواضح بجغرافية الاقاليم التابعة للامبراطورية وكذلك الاقاليم المحيطة بها والتابعة للمسلمين والبلغار والروس ، ومختلف

(1) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٢) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ ، وانظر كذلك ،

Lacroix, op. cit., p. 530.

(3) Lacroix, op. cit., p. 530.

(٤) تم الاطلاع على هذا المصدر فى مجموعة بون البيزنطية ، ولم نعثربه على أية معلومات تتعلق بجغرافية كريت .

الشعوب الأخرى ، إلا أنه لم يذكر شيئا البتة عن جغرافية كريت ، مع أن الصراع السياسى بين فاتحيها المسلمين والدولة البيزنطية ، قد استحوذ على جانب كبير من عصر هذا الامبراطور (١) . فإذا إنتقلنا إلى المصادر العربية ، وجدنا معظم الجغرافيين المسلمين وكتاب المسالك والممالك ، قد أشاروا إلى كريت إشارات سريعة موجزة للغاية ، لا تشفى غلة الباحث فى هذه الناحية ، فعلى سبيل المثال لم يزد المقدسى عند تعرضه لها عن قوله «واقريطش تقابل مصر» (٢) وقد نحا نحوه كل من ابن رسته الذى قال «واقريطية يحيط بها ثلثمائة ميل» (٣) ، وياقوت الذى عرفها بقوله «اقريطش ... اسم جزيرة فى بحر المغرب ، يقابلها من بر افريقية لوبيا ، وهى جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى» (٤) ، وكذلك ابن جبير الذى قال «وبينها (أى اقريطش) وبين جزيرة صقلية ، مسيرة سبعمائة ميل ، وبين هذه الجزيرة المذكورة (اقريطش) وبين الاسكندرية ستمائة ميل أو نحوها» (٥). ولكن رغم قلة المعلومات التى وردت فى هذه المصادر وغيرها ، إلا أنه يمكن الاستعانة بها فى تكوين نبذة سريعة عن جغرافية كريت .

تعتبر هذه الجزيرة احدى أربع جزر كبرى فى البحر الأبيض المتوسط (٦) وهى تتمتع بموقع استراتيجى هام أكسبها مكانة ممتازة بين سائر الجزر اليونانية فان قربها من القارات الثلاث المعروفة فى العصور الوسطى وهى آسيا وافريقية

(١) بشأن هذا الصراع ، انظر الفصل الرابع من هذا البحث .

(٢) المقدسى : احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ص ٤٥ .

(٣) ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .

(٤) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٥) ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .

(٦) الثلاث جزر الاخرى هى : صقلية ، وسردينيا ، وقبرص .

وأوروبا ، جعلها مركز التقاء الحضارات المختلفة لشعوب هذه القارات ، كما جعلها مستودعا تجاريا هاما . كذلك فأن موقعها عند الحد الجنوبي للبحر الابحجي (١) ، الذي ضم القسط الوافر من الجزر والبحار الداخلية ، جعلها تقسم مدخله إلى شطرين ، تتحكم في كل منهما ، وقد هيا لها ذلك فرض السيطرة على عديد من الجزر اليونانية في هذا البحر والشواطئ المطلة عليه (٢)

والجزيرة ذات شكل مستطيل. يقول ابن خلدون «وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء إلى مابين الجنوب والشرق منه (أى من بحر الروم) (٣) وفيما يتعلق بطولها فقد حدده بعض الجغرافيين بثلاثمائة ميل (٤) ، وحدده البعض

(١) يعرف كذلك ببحر الارخبيل ، وهو بحر داخل تكون من مياه الجزء الشرقى من البحر المتوسط ، في المنطقة المحصورة بين آسيا الصغرى وأوروبا ، ويحده من الجنوب جزيرة كريت ، ومن الشرق ساحل آسيا الصغرى حتى مضيق الهللسبونت (الدردنيل) . ومن الغرب سواحل تساليا ، والهيلاس (بلاد اليونان) ، والبلوبونيز (شبه جزيرة المورة) . ويبلغ طوله من الشمال للجنوب ستمائة كيلو متر ، وعرضه في الاجزاء الشمالية يبلغ ٢٥ كم ، وفي الوسط والجنوب يبلغ عرضه ٤٥٠ كم . انظر ،

La grande Encyclopedia, tome Troisième, p. 677.

(2) Semple, The geography of the Mediterranean region, p. 74.

(٣) ابن خلدون : المهبر ، ج ١ ، ص ٥٧ .

(٤) انظر على سبيل المثال ، ابن رسته ، الاعلاق النفسية ، ص ٨٥ .

الادريسي : نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الارب في فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، (طبعة دار الكتب المصرية) ، القلقشدى : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ ، ابن جبير : الرحلة ، ص ٦ .

جزيرة كريت

البحر الأبيض المتوسط



الآخر بثلاثمائة وخمسين ميلا وأما عرضها فيتراوح ما بين مائة إلى مائة وثلاثين ميلا (١).

وسواحل الجزيرة كثيرة التعاريج مما ساعد على وجود مجموعة كبيرة من المرافئ لعل أشهرها خليج سودا Suda على الساحل الشمالى نظرا لعمقه واتساعه لعدد كبير من السفن ، فضلا عما يتمتع به من حماية طبيعية هياتها له شبه جزيرة اكروتيرى Akrotiri القرية منه . أما الساحل الجنوبي فخال تماما من الموانئ ، ولكنه امتاز بوجود سلسلة ضخمة من الجبال أشبه ما تكون بالحائط ، منحته الحماية الطبيعية ضد أى غزو خارجى (٢) . ومثل كل الجزر اليونانية ، فإن جزيرة كريت ذات سطح جبلى وبها مجموعة من الجبال ، أضخمها ثلاث جبال منفصلة عن بعضها تخترق الجزيرة من الشرق إلى الغرب وهى على التوالى جبل ديكته Dicté ، وجبل أيدا Ida ، وجبال بلانك Blanks . على أن أكبر هذه الجبال الثلاث هو جبل ايدا ، الذى يرتفع إلى أكثر من ١٢٠٠ مترا فوق سطح البحر ، ويمتاز بوجود غابات كثيفة من الأشجار على الأجزاء المرتفعة منه ، وبالتالي أصبح مصدرا هاما للأخشاب ،

(١) الادريسي : نفس المصدر ، تحت الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النويرى نهاية الأرب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ . والجدير بالذكر أن المراجع الحديثة قد حددت طول الجزيرة بمائة وستين ميلا ، وذكرت ان عرضها من الشمال للجنوب يتراوح ما بين ٣٥ ميلا إلى ٧,٥ ميل . وأن هذا الاختلاف بينها وبين المصادر الوسيطة فى طول وعرض الجزيرة يرجع لأحد سببين ، اما أن يكون بسبب عدم دقة المصادر الوسيطة فى تحديد الأطوال والمسافات تحديدا دقيقا لعدم وجود أجهزة القياس اللازمة لذلك فى العصور الوسطى ، أو ان تكون الجزيرة قد تعرضت للتآكل من جانب البحار المحيطة بها من كل جانب . وبشأن طول وعرض الجزيرة فى العصر الحديث انظر ،

Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676; Semple, op. cit., p. 74.

(2) Encyclopedia Britannica, vol 6, p. 676.

أما سفحه فإنه مغطى بالبساتين وأشجار الفاكهة من جميع الاتجاهات وهي تمتد من الشرق إلى الغرب مكونة سهلاً خصيباً (١).

وبالجزيرة نهران رئيسيان يتجهان نحو الجنوب ، الأول هو متروبولي بوتاموس Metropoli Potamos ويتفرع منه عدة فروع مثل جاردانوس Jardanus ، ويكنوس Pycnus في إقليم جبال بلانك في الغرب ، وأمفياتروم Amphimatrum وأواكسس Oaxes ، وتثيس Tetthys وتريتون Trion وامنيسوس Amnisos ، كوثراتوس Coeratos في إقليم جبل ايدا في وسط الجزيرة. أما النهر الرئيسي الثاني فيدعى أنابوثيري Anapothiari ، ويتفرع منه فروع تقع كلها في إقليم جبل ايدا وهي ، ماساتيا Massatia ، واليكترا Electra ، وليثاكوس Lithacus ، وبوثيريوس Pothereus ، وكاتاراكتوس . أما إقليم جبل ديكتة في شرق الجزيرة فتوجد به بعض الأنهار الصغيرة القليلة الأهمية هي أشبهما تكون بالغدران. (٢) والغالب أنه بعد الفتح الاسلامي للجزيرة قد تغيرت أسماء هذه الأنهار وأن كانت المصادر لم تشير إلى ذلك .

وقد امتازت جزيرة كريت بمواردها الاقتصادية الهامة ، فأشتهرت بإنتاج العسل والحب ، ويذكر المؤرخ البيزنطي صاحب صلة ثيوفان (٣) «أن

(1) Lacroix, op. cit., p. 531 ; Semple, op. cit., p. 268.

(2) Lacroix, op. cit., p. 532 ; Encyclopedia Britannica, vol 6, pp. 676-677.

(٣) النص اللاتيني لهذه العبارة هو :

«non est haec alia quam terra fluens lacte et melle»

انظر ،

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 74.

هذه الارض لم تكن إلا فيضا من العسل واللبن .» ويذكر كل من جينيزيوس وكيدرينوس نفس هذا المعنى (١) . ومن اشارة أوردها المؤرخ النويرى السكندري يفهم منها أن كريت كانت تصدر العسل والنحل والجن لمصر والشام (٢) . ويبدو أن صناعة الجن قد تركزت في مدينة بالذات كان يطلق عليها وقتذاك اسم «ربض الجن» وكانت من أشهر مدن كريت (٣) . واشتهرت الجزيرة أيضا بكثرة أشجارها وخاصة أشجار الكروم (٤) وامتازت تربة السهل الساحلى بالخصوبة ، وقد دون الجغرافيون المسلمون هذه الحقيقة فقال الادريسي « وجزيرة اقريطش جزيرة عامرة كثيرة الخصب (٥) » . وأوضح كل من الجغرافى ابن حوقل والمؤرخ القلقشندي نفس هذا المعنى (٦) ، ويضيف القلقشندي الى ذلك قوله « واكثر مواشيتها المعز وليس بها ابل ، ولم يكن بها سبع ولا ثعلب ولا غيرهم من الدواب الدابة بالليل ، وكذلك ليس بها حية ، وان دخلت اليها حية ماتت في عامها ، ويقال ان صناعة الموسيقى أول ما ظهرت بها (٧) » . وبالإضافة إلى خصوبة التربة ، فقد

(1) Genesius, Liber 11, p. 47;

كيدرينوس : موجز التاريخ ، ص ٩٢ ، باليونانية .

(٢) النويرى السكندري : الامام بما جرت به الاحكام المقضية في واقعة الاسكندرية ، مخطوط مصور ، لوحة رقم ١٢٣ أ.

(٣) الادريسي : نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان والجزر ، تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع ، النويرى : نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٤) القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(٥) الادريسي : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الاقليم الرابع .

(٦) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ٢٠٣ ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(٧) القلقشندي : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٣٧ .

احتوت كذلك على بعض المعادن النفيسة وأهم ما يذكر منها معدن الذهب (١)

ووجد سكان كريت - قبل الفتح الاسلامى للجزيرة - فى الأخشاب التى أمدتهم بها الجبال مصدرا لبناء أسطول دائم هيا لهم الاشتراك فى عمليات نقل التجارة ، والدفاع عن سواحل جزيرتهم . لذلك اشتهرت كريت منذ أقدم العصور بأنها مصدرا عظيما للجند المرتزقة ، الذين كانوا لا ييخلون بخدماتهم على من يدفع الثمن ، كذلك استخدم فريق من أهالى الجزيرة هذا الأسطول فى القيام بعمليات القرصنة ضد سفن التجارة المارة بالبحار المحيطة بكريت ، وأيضا فى الهجوم على السواحل القرية وجلب الاسرى والسبايا لبيعهم داخل أسواق جزيرتهم ، وعلى هذا فقد اشتهرت كريت آنذاك بأنها وكرا للقرصنة ، كما كانت من أكبر أسواق الرقيق (٢) .

وإلى جانب تمتع كريت بكل هذه الميزات ، فقد كانت كذلك مهد للحضارة الهلينية ، كما أكتسبت مكانة دينية مرموقة بسبب اعتقاد اليونان بأن فة اينكتاس Inktas - إلى الجنوب من مدينة الخندق - هى مقبرة الاله زيوس Zeius كبير آلهة اليونان ، لذلك فقد نظر اليها دائما نظرة تبجيل واحترام وكانت مزارا يحج اليه اليونانيون (٣) .

وخلال عصر الامبراطورية الرومانية القديمة ، ضمت كريت إلى إقليم

(١) الادريسي : نفس المصدر ، الجزء الرابع من الأقليم الرابع ، النعمان : المجالس والمسائرات ، مخطوط مصور ، الجزء الثانى ، اوحة رقم ٤٢١ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ١ ، ص ٢٣٥ ، القلائشندى : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٧١ .

(2) Semple, op. cit., pp. 639-656; Lacroix, op. cit., p. 531.

(3) Encyclopedia Britanica, vol 6, pp. 684, 676, La grande Encyclopedia, tome treizième, p. 339.

سيرن Cyrene (برقة) (١) وكونتا مقاطعة واحدة ، وحكمت حكما ذاتيا عن طريق مجلس شيوخ ، ووجد بها نائبا عن بابا روما ، وموظفا أو اثنين لجمع الخراج (٢) . وفي زمن الامبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧ م) ضمت كريت إلى مقاطعة الليريا Illyria (٣) وحكمت عن طريق قنصل موفد من قبل الامبراطور البيزنطي ، وتحالفت مدنها تحت السيادة البيزنطية (٤) ثم كونت كريت مع غيرها من جزر البحر الايجي تغرا بحريا هاما وبلاضافة إلى الموارد الاقتصادية الهامة ، والموقع الاستراتيجي والجغرافي الذي ميز هذه الجزيرة ، فقد كان لها دورها في البحرية البيزنطية ، حيث امتدت الامبراطورية بأسطول قوى من السفن الحربية والبحارة الأكفاء (٥) . وفي تلك الفترة ساهمت كريت مساهمة فعالة في الأحداث الجارية في بيزنطة ، ومن أمثلة ذلك ما حدث في عام ٦٩٨ م حين استغل بحارة الأسطول الكريتي التطورات السياسية التي حدثت في داخل الامبراطورية ، وقاموا بالثورة ونادوا بأمر أسطولهم ويدعى ابسيمار Apsimar امبراطورا لبيزنطة ، ولقب باسم طيريوس الثالث Tiberius III ، وأبحر الامبراطور الجديد بقواته متجها نحو القسطنطينية فلم يجد مقاومة تذكر ، ودخل إلى المدينة واستمر بحكم الامبراطورية لمدة سبع سنوات (٦٩٨ - ٧٠٥ م) (٦) . وفي زمن الامبراطور

-
- (١) تقع سيرن على الساحل الليبي المطل على البحر المتوسط إلى الغرب من مدينة الاسكندرية .
(2) La grande Encyclopédia, tome treizième, p. 339.
(٣) تقع الليريا على الساحل الجنوبي الشرقي للبحر الادرياتيكي .
(4) Eucyclopedia Britannica, vol 6, p. 684: La grande Encyclopédia, tome 13, p. 339,.
(5) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 140.
(6) Constantin Porphyrogenitus, De Administrando Imperio, ch. 57. p. 215.

البيزنطى ليو الثالث الايسورى (٧١٧ - ٧٤١ م) أصبحت كريت ثغرا قائما بذاته ، واستمرت كذلك حتى سقطت فى أيدي المسلمين (١) .

أوضحنا فى هذه المقدمة بإيجاز أهم المميزات الجغرافية لكريت ، حيث ألمنا بالموقع الاستراتيجى للجزيرة ، وشكل السطح وتكويناته ، ومميزات التربة ، ونشاط السكان ، ثم القينا نظرة عاجلة على وضع كريت بالنسبة للدولة الأم سواء فى العصر الرومانى القديم أو فى العصر البيزنطى .

وإن كانت المصادر المعاصرة لمحاولات المسلمين المبكرة غزو الجزيرة ، لم تذكر شيئا مباشرا عن أسباب هذه المحاولات ، إلا أننا بناء على العرض السابق نستطيع أن نعلل ذلك بما كان لهذه الجزيرة حينذاك من أهمية كبرى من حيث موقعها الجغرافى والاستراتيجى الممتاز ومكانتها الدينية الكبيرة . ومركزها التجارى المرموق الذى يدر أرباحا طائلة على من يتحكم فيها لذا كانت محاولات المسلمين احتلالها من أشد وسائل مضايقة البيزنطيين وقطع مورد مالى هام عنهم ، فضلا عن أن فتحها كان يعتبر بمثابة ضرورة سياسية وحرية لتأمين الدولة الاسلامية الفتية من مضايقات جيرانها ومناوشاتهم . ولعل كل هذه الميزات قد لفتت نظر المسلمين إلى كريت منذ زمن مبكر ، فقاموا بأكثر من محاولة لاحتلال هذه الجزيرة ، وقد وصلتنا أخبار هذه المحاولات من المصادر الاسلامية ، أما المصادر البيزنطية فلم تعرض لها . وقد جرت محاولتان فى عصر الخلافة الأموية ، ويبدو أن اهتمام الامويين بفتح القسطنطينية عاصمة الامبراطورية البيزنطية ، جعلهم يتجهون بأنظارهم نحو فتح كريت حتى يمكنهم اتخاذها قاعدة حربية لعملياتهم العسكرية ضد القسطنطينية وكذلك لاستخدامها فى سد منافذ بحر أيجة فى وجه السفن البيزنطية ومنعها

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 140.

من الوصول إلى بلاد المسلمين . وجرت المحاولة الأولى في عام ٥٤ هـ (٦٧٤م) في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦١ هـ / ٦٦١ - ٦٨١م) وقام بها القائد أجاده بن أبي أمية الأزدي ، لكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، إذ يقال أن بعض سفن الاسطول الاسلامي ، أغرقها البيزنطيون بمن فيها ، واستولوا على بعض السفن الحربية الأخرى ، أما الباقي فقد أسرع بالفرار (١) . أما المحاولة الثانية فلم تحدد المصادر تاريخها وإنما ذكرت أنها حدثت في عصر الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (شوال ٨٦ - جمادى الآخرة ٩٦ / أكتوبر ٧٠٥ - فبراير ٧١٥م) (٢) وقد تمكن المسلمون أثناء هذه المحاولة من فتح بعض أجزاء من كريت ، ثم تروى هذه المصادر أنهم قد انصرفوا عنها بعد ذلك (٣) . ولم تأت بشيء عن تاريخ انصرافهم عنها ، ولا عن الاسباب التي أجبرتهم على ذلك . والباحث المدقق في تاريخ الخلافة الأموية يرجح أن ذلك تم أثناء عهد الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز (صفر ٩٩ - رجب ١٠ هـ / سبتمبر ٧١٧ - فبراير ٧٢٠م) (٤) الذي انتهج سياسة مغايرة لسياسة أسلافه من الخلفاء الأمويين القائمة على أساس التوسع في الفتوحات ، إذ أكتفى هذا الخليفة بما بلغته الدولة الاسلامية من حدود تمتد من تخوم الصين شرقا إلى الأندلس غربا ، ومن بحر آرال شمالا حتى شلالات النيل السفلى جنوبا ، ورأى أن الأمر يتطلب توجيه الجهود إلى تنظيم هذه الامبراطورية الاسلامية

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٤ ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ . انظر ايضا ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ٥٤ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، طبعة بولاق ١٢٨٣ هـ ، ج ٢ ، ص ١١٩ .
(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٤) المسعودي : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ١٣١ .

الترامية الأطراف وتأمين رقعتها قبل الاستمرار في الفتح والتوسع (١) .
ولا يستبعد أن يكون قد أمر بالانسحاب من الأجزاء المفتوحة في كريت
تحقيقا لسياسته هذه وبعد أن تخلى عن الحلم الذي راود الأمويين الأوائل الخاص
بفتح مدينة القسطنطينية (٢) .

وتمت المحاولة الثالثة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد (ربيع الأول
١٧٠ - جمادى الآخرة ١٩٣ هـ / سبتمبر ٧٨٦ - أبريل ٨٠٩ م) الذي أرسل
أسطولا لفتح كريت بقيادة قائد أساطيل الخلافة العباسية في شرقي البحر
الأيض المتوسط حميد بن معيوف الهمداني ، وقد تمكن من فتح أجزاء من
هذه الجزيرة (٣) على أن المصادر الاسلامية تؤكد أن البيزنطيين قد استعادوا
هذه الأماكن من جديد (٤) لكنها لم تذكر تاريخ استعادة البيزنطيين لها ،
وإن كان المرجح أن ذلك لم يتم أثناء حياة الخليفة هارون الرشيد ، الذي بلغت
الدولة الاسلامية في عهده عنفوان شبابها وقوتها وكانت تلزم سياسة الهجوم
دفاعا عن كيائها ونشرا لدعوتها ، وتأمينها لحدودها ، وقد أحرزت الكثير
من الانتصارات على الدولة البيزنطية التي اتخذت جانب الدفاع عن نفسها
بسبب الضعف الذي انتابها (٥) والغالب أن البيزنطيين قد استعادوا هذه
الأجزاء خلال فترة الفتن والاضطرابات السياسية التي اشتعلت في مختلف

(١) العدوى : الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ١٩١ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٩٢ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٤٦ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٤٥ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

(٥) بشأن الظروف السياسية التي عرضت للدولة البيزنطية وأدت إلى اضعافها. انظر نفس هذا

الفصل ص ٧١ وما بعدها.

أرجاء الامبراطورية العباسية أثر وفاة الخليفة الرشيد ، ونتيجة للصراع الحربى العنيف الذى قام بين ولديه وخليفته الأمين والمأمون (١) .

ولكن إذا كانت هذه المحاولات لم يصادفها التوفيق ، فإن المحاولة التالية التى قامت بها فئة من المسلمين ، قد صادفت نجاحا كبيرا ، وأسفرت عن فرض السيادة الاسلامية على جزيرة كريت لفترة امتدت لأكثر من مائة وثلاثين عاما .

وقد اتفقت المصادر العربية والبيزنطية على أن الموطن الأصلي لهؤلاء الفاتحين هو الأندلس ، وروى المؤرخون البيزنطيون أمثال جينيزيوس ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان والماجستر سيمون ، وكيدرينوس أن هؤلاء الفاتحين المسلمين قد هاجروا من وطنهم الأصلي فى شبه جزيرة ايبيريا - فى الجنوب الاسبانى - نتيجة للجذب ، الذى أصاب بلادهم ، ونزلوا بكريت مباشرة ، حيث تم لهم فتحها واستيطانها (٢) .

وهكذا يتضح أن هؤلاء المؤرخين البيزنطيين كانوا يجهلون على ما يبدو الأحداث التاريخية التى عرضت لهؤلاء الفاتحين المسلمين فى الفترة السابقة مباشرة لعملية الفتح ، وكان من حسن الحظ أن أمدتنا المصادر العربية بالتفاصيل الدقيقة لتاريخ هذه الفترة .

(١) فيما يتعلق بالخلاف بين الأمين والمأمون والنتائج التى ترتبت عليه . أنظر نفس هذا الفصل من البحث ص ٥٦ وما بعدها.

(2) Genesius : op. cit., p. 46; Constantin Porphyrogenetes. De Administrando Imperio, ch. 22, p 104; Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 46; Symeon Magistri, p. 758, Zonaras : Epitomae Historiarum, Liber XV, tomus III, pp. 347-348.

وقد اجمع عدد كبير من المؤرخين المسلمين القدامى (١) على أن هؤلاء الفاتحين هم ثوار حى الربض بقرطبة (٢) ، الذين قاموا بثورة عارمة ضد الخليفة الأموى الحكم بن هشام (١٨٠ - ٢٠٦ هـ / ٧٩٦ - ٨٢٢ م) ، الذى ما أن تم له فمع هذه الثورة أمر بطردهم من الأندلس ، فتوجه فريق منهم إلى مدينة الاسكندرية حيث شاركوا فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد المصرية آنذاك ، وعلى الأخص مدينة الاسكندرية ، حتى تم طردهم منها ، فزلوا إلى كريت وافتتحوها . ونظرا لأهمية ثورة حى الربض ، وما ترتب عليها من نتائج خاصة بفتح كريت سنعرض لها عرضا مركزا .

لقد اختلف المؤرخون حول الأسباب التى أدت إلى قيام هذه الثورة ، فهناك فريق منهم لا يرى سببا وجيها يدعو الناس للقيام بها ، مثل المؤرخ المغربى ابن عذارى الذى قال : «أن ذلك الهيج كان أصله الأشر والبطر ، إذ لم يكن ثم ضرورة من اجحاف فى مال ، ولا انتهاك لحرمة ، ولا تعسف فى ملكة ، والحال تدل على صحة ذلك ، فإنه لم يكن على الناس وظائف ، ولا مغارم ، ولا سخر ولا شىء يكون سببا لخروجهم على السلطان ، بل كان ذلك أشرا ، وبطرا ، وملا لا للعافية ، وطبعاً جافيا ، وعقلا غبيا ، وسعيا فى هلاك انفسهم» . (٣)

(١) انظر على سبيل المثال : ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٣ - ٧٤ ، ابن الأبار : الحلة السراء ، ج ١ ، ص ٤٥ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، ص ١٦ ، المقرئ : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٣٥٣ .

(٢) تقع مدينة قرطبة العاصمة فى الجنوب الغربى من الاندلس ، بغيرى نهر أشبيلية ، وهى مدينة حصينة يحوطها سور ضخيم من الحجارة بة سبعة أبواب ، واشتهرت المدينة بكثرة مساجدها التى بلغت ألف وستائة مسجد ، انظر القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٢٦ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص ٧٥ - ٧٦ .

وثمة فريق آخر من المؤرخين ساق أسبابا عدة دعت سكان حي الربض بقرطبة إلى القيام بثورتهم هذه ، ومن هذا الفريق ، ابن القوطية ، والمقرى ، والمراكشى ، وابن الخطيب ، وابن الاثير ، وغيرهم . فقد كان الشعب القرطبي ناقما على الأمير طغيانه وصرامته وكبريائه ، وتشاغله باللهو والصيد والشراب ، وكان من بين أهل قرطبة كثير من المولدين (أى مسلمى الاسبان) الذين يبغضون السلطة الحاكمة ، لشعورهم بنقص فى مركزهم الاجتماعى وفى حقوقهم العامة ، كما كان الفقهاء من جانبهم يعملون على أذكاء سخط العامة على الأمير الحكم وبلاطه ، وكان السبب الحقيقى وراء تحريضهم ما أصاب نفوذهم من انكماش . ذلك أن الأمير هشام والد الحكم كان قد أحاط نفسه بالفقهاء المالكية ، واستسلم لهم ، فعظم شأنهم وتجاوزوا حدودهم . فلما تولى الحكم الامارة بعد أبيه ، حاول أن ينتزع منهم سلطانهم ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه من نفوذ ، وأن يكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته ، فأنقلبوا عليه ، وسخطوا على تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى اثاره الرعية ، الذين زاد من سخطهم ما فرضه الحكم على المواد الغذائية من ضرائب مرهقة (١) .

وهكذا وجدت هوة عميقة من العداء بين أهل قرطبة وفقهائها وبين الحكم وأصبحت بين الفريقين وحشة أخذت تشتد على مر الأيام ، وكان العامة يجاهرون بدمه ، والخوض فى سيرته ويجتمعون فى المساجد ليلا لتجريحه

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٢ ، المقرى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ١٩ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام فى من بويغ قبل الاحتلال من ملوك الاسلام ، ص ١٥ ، ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

والتعريض به ، حتى بلغ بهم الأمر إلى القول «يا أيها المسرف المتهادي فى طغيانه المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه ، أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك (١)» . وما إلى ذلك من ألفاظ القدح التى تدل على سخطهم واستيائهم وسار الغوغاء ينادونه عند انقضاء آذان الفجر «الصلاة يا مخمور الصلاة» (٢) . وكانت النتيجة المتوقعة أن أتفق الفقهاء ووجهاء قرطبة على خلع الحكم ، ووقع اختيارهم على ابن عم له يدعى ابن الشماس لمبايعته بالامارة ، فأظهر الأخير استجابته لهم ، ثم أفشى سرهم ، فأبلغ الأمير الحكم بما اجتمعوا عليه ، وروى تفاصيل المؤامرة وأعطاه بياناً بأسمائهم ، وحين تأكد الأمير من ذلك أمر بالقبض على ستة من أعلام القوم المشاهير المشتركين فى هذه المؤامرة وصلبهم عند مدخل قصره ، فامتلاً جسر قرطبة بمظاهر السخط وبخاصة بعد أن أمر بقتل الثوار (٣) .

وفى هذا الجو المتوتر ، والبركان الذى يوشك أن ينفجر ، وقع حادث بسيط أشعل نيران الفتنة ، فقد قتل أحد ممالك الأمير غلاماً من أفراد الشعب بسبب خلاف شخصى بينهما (٤) . فغلت نفوس الأهالى بالغضب وهرعوا الى السلاح ، وكان أشدهم تحفزا وهياجاً أهل الربض الجنوبى من الضفة الأخرى من النهر ، وهى ضاحية قرطبة الجنوبية المسماة شقنده ، وكان هذا الربض مسكن العمال وأهل الأسواق . وزحفت جموع الثوار إلى القصر من كل ناحية وتأهب الحكم فى حرسه وغلمانة لردّها ، ووقع القتال بين الطائفتين يوم

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

(٣) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ص ٧٢-٧٣ ، النويرى : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج ٢٢ ، لوحة ١٥ (مخطوط مصور) .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

الأربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م (١) فكانت الغلبة لأهل الربض ، وأحاطوا بالقصر ، فأرسل الأمير الحكم ابن عم له يدعى عبيد الله البنسي ، ومعه الحاجب عبد الكريم ، في قوة من الفرسان والمشاه ، وأتوا أهل الربض من وراء ظهورهم ، فأضرموا النيران في الربض ، ونجحت هذه الوسيلة في تفريق شمل الثوار ، إذ ما كادت النار تعلو حتى هرع الكثيرون منهم الى دورهم يحاولون اخمادها وإنقاذ نسائهم وأطفالهم . وعندئذ التف الجند حول الثوار من كل ناحية ، وأعملوا فيهم القتل حتى أفنوا عددا كبيرا منهم ،

(١) هناك اختلاف بين المؤرخين حول تاريخ هذه الثورة ، فبعضهم وبخاصة المشاركة مثل المقرئى وأبي المحاسن وابن الأثير قد ذكروا وقوعها في رمضان عام ١٩٨ هـ / مايو ٨١٤ م ، بينما ذكر المؤرخون المغاربة مثل ابن الأبار وابن عذارى وابن سعيد ، تاريخا محددًا لهذه الثورة هو يوم الأربعاء ١٣ رمضان ٢٠٢ هـ / ٢٥ مارس ٨١٨ م . وتبعًا لذلك اختلف المؤرخون المحدثون ، فبعضهم مثل دوزى أيد تاريخ رمضان ١٩٨ هـ ، على حين أخذ البعض الآخر بتاريخ رمضان ٢٠٢ هـ ، ومن هذا الفريق لى بروفنسال والأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم .

ونحن نميل إلى الأخذ بالرواية الاندلسية التي تؤكد وقوع ثورة الربض في رمضان عام ٢٠٢ هـ / مارس ٨١٨ م وذلك لقدمها واتفاقها وكونها اقرب إلى ميدان الحوادث واقرب إلى التحقيق ، فضلا عن أنها أكثر تمشيا مع التسلسل الزمني لأحداث هذه الفترة من الزمن . انظر عن ذلك المصادر والمراجع التالية :

المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٨ ،

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ج ٥ ، ص ١٧٢
ابن الأبار : الحلة السيرة ، ص ٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٧٥ ،
ابن سعيد : المغرب في حل المغرب ، ج ١ ، ص ٤٢ .

Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne, tome I, p. 296; La Revue de Byzantion, tome 8, pp. 1-20.

سعد زغلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ ،
السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية ص ١٣٢ .

وأسروا خلقا جما (١) ، صلب منهم الحكم تجاه قصره على شاطئ النهر نحو ثلاثمائة «لم ير فيما سلف ممثلون أكثر منهم عددا ، ولا أهول منظرا» وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن الأبار (٢) .

وقد استمر القتل والنهب لمنازلهم ، كما استمرت مطاردتهم ثلاثة أيام ، ثم أمر الأمير الحكم بهدم الربض مصدر الفتنة ، فتم مسحه مسحاً «فلم يعمر ، لا اختطت فيه دار الى آخر دولتهم» (٣) . ثم نودى بالأمان ، وأمر الثوار بالرحيل عن قرطبة وأنه لا أمان لمن تخلف منهم ، ففترقوا في الثغور والكور ، واستقرت جماعة منهم بطليطلة التي كانت تجاهد وقتذاك جهادا حارا من أجل الاستقلال واتجهت جماعة منهم الى فاس ، وأخرى الى الاسكندرية حيث شاركوا في الاحداث التي وقعت بها آنذاك والتي انتهت بخروجهم منها الى جزيرة كريت فتم لهم فتحها واستيطانها (٤) .

كان هذا هو الرأي السائد بين غالبية المؤرخين ، وهو أن فاتحي كريت هم ثوار حي الربض بقرطبة . ولكن الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد أثبت أن الأندلسيين الذين نزلوا بالاسكندرية ، ثم رحلوا منها إلى كريت ، ليسوا هم ثوار حي الربض . فقد وضح أن ثورة الربض وقعت في عام ٢٠٢ هـ

(١) الحميدى : جذوة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس ، ص ١١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٤ .

(٤) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٣ - ٧٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ، ص ٧٦ - ٧٧ ، ابن الأبار ، الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٥ ، المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣١٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ .

(٨١٨ م) بينما نجد أن الأندلسيين فاتحى كريت قد شاركوا فى الأحداث التى وقعت بالاسكندرية فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ - ٨١٥ م) . ويرى الاستاذ الدكتور سعد زغلول أن هؤلاء الأندلسيين من الغزاة البحرين (١) ، وذلك استنادا إلى ما ذكره المؤرخ المصرى الكندى ، الذى قال أنهم كانوا «قد قفلوا من غزوهم ، فنزلوا الاسكندرية ليلبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان (٢)» . ويفهم من ذلك أنهم غزاة بحريون وأن الغزو كان صناعتهم .

والواقع أن هذا الأمر ليس بغريب ، فقد تفوق العرب بالأندلس تفوقا عظيما فى فن البحر ، وذلك بسبب طبيعة بلادهم ، نهى بمثابة جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات ، وكانت الصلة الوحيدة بينها وبين باقى الأقطار الاسلامية تتم عن طريق السفر بالمراكب فى البحر . وقد امتاز سكان موانئ الساحل الشرقى والجنوبى الشرقى من الأندلس مثل مالقة والمريه ومرسيه وبلنسية وبرشلونة ، بالمهارة البحرية ، وأتخذت جماعات كبيرة منهم مراكز ساحلية فى شرق الأندلس تمتد ما بين طرطوشة وبلنسية ، وكانوا يقومون منها بغارات على السواحل المجاورة (٣) . وكان من الطبيعى أن يوسعوا مجال غزواتهم البحرية هذه إلى شرقى البحر المتوسط خاصة وأن سواحلها أصبحت كلها اسلامية يمكنهم الالتجاء إليها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك ، ويفهم من نص أورده المؤرخ المسيحى المعاصر ساويرس ابن المقفع أنهم اتخذوا من الاسكندرية قاعدة لعملياتهم فى شرقى البحر المتوسط ، إذ قال : «دخل

(١) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية منذ الفتح العربى حتى العصر الفاطمى ، ص ٢٦٧ .

(٢) الكندى ، ولاية مصر ، ص ١٨٣ .

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٢٢٩ .

الاسكندرية قوم ومعهم شيء كثير من جزاير الروم يسموا الاندلسيين وأقاموا على هذه القضية بمصر إلى جزاير الروم ، ينهبوا ويحبسوا السبي إلى الاسكندرية ويبيعوهم كالعبيد (١) .

ونحن نأخذ برأى الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، من أن الاندلسيين الذين نزلوا إلى الاسكندرية عام ١٩٩ هـ (٨١٤ - ٨١٥ م) ، وشاركوا في أحداثها ، هم من الغزاة البحرينيين وليسوا من ثوار حى الربض بقرطبة ، ولكننا لا نستطيع فى نفس الوقت أغفال ما رددده المؤرخون المغاربة القدامى أنفسهم الذين حددوا تاريخ ثورة الربض بعام ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) من أن جماعة من الربضيين قد نزلوا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم ، وشاركوا فى الأحداث الجارية بها ثم طردوا منها إلى كريت حيث تم لهم فتحها (٢) . وفى رأينا أن فريقا من هؤلاء الربضيين نزلوا فعلا بالاسكندرية بعد اخماد ثورتهم فى ٢٠٢ هـ (٨١٨ م) وربما كان الدافع لهم على ذلك سقوط تلك المدينة فى أيدي أخوانهم الأندلسيين من الغزاة البحرينيين ، الذين سبقوهم إليها فى عام ١٩٩ هـ (٨١٤ - ٨١٥ م) إذ أن الثابت فى المصادر أن هؤلاء الغزاة البحرينيين قد تمكنوا من السيطرة على الأمور بالاسكندرية والاستقلال بها فى ذى الحجة ٣٠٠ هـ (يوليو ٨١٦ م) ، وحتى ربيع الأول ٢١٢ هـ (يونيو ٨٢٧ م) (٣) . وهكذا أصبح من اليسير على هؤلاء الربضيين أن ينزلوا بالاسكندرية وينضموا إلى اخوانهم ويشاركوا معهم فى الأحداث التى مرت

(١) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ، ص ٢٤٩ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ، ج ١ ، ص ٤٥ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ، ج ١ ص ٤٢ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام ، ص ١٦ .

(٣) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٨ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ص ٢١٥ - ٢٧٦ ، المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

بها المدينة آنذاك . وعلى هذا يمكن القول أن الأندلسيين فاتحى كريت كانوا خليطا من الغزاة البحرين الأندلسيين و ثوار حى الربض بقرطبة . وسنعرض فيما يلى للأحداث التى وقعت بالاسكندرية منذ عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م وكيفية مشاركة الأندلسيين فيها حتى رحيلهم إلى كريت وفتحهم لها ، ضمانا لتسلسل الأحداث وترباطها .

فى شتاء عام ١٩٩ هـ / ٨١٤ م عاد الأندلسيون من إحدى غزواتهم البحرية ورسوا بمراكبهم على شاطئ الاسكندرية (١) إنتظارا لانتهاى موسم الشتاء ثم يعاودون استئناف نشاطهم البحرى من جديد ، ويذكر بعض المؤرخين أن عددهم كان خمسة عشر ألفا (٢) . وذكر البعض الآخر أنهم كانوا حوالى عشرة آلاف (٣) ، أما اليعقوبى فقد حدد عددهم بأربعة آلاف رجل (٤) . ويذكر الكندى أنهم أثوا فى أربعين مركبا (٥) ، ويقول الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد «أنه لو قدرنا أن متوسط شحنة المركب من الرجال بلغت حوالى المائة أو أكثر قليلا لبلغ عددهم حوالى أربعة أو خمسة آلاف رجل» (٦) . ويؤيده فى ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز سالم (٧) . وبذلك يكون ما ذكره اليعقوبى أقرب إلى الصحة والصواب .

(١) ذكر المقرئى أنهم كانوا يرسون بالذات فى منطقة الرمل ، انظر ، المقرئى ، الخطص ج ١ ، ص ٢٧٨ .

(٢) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الاندلس ، ص ٧٣ .

(٣) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ص ٤٤٦ .

(٥) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ .

(٦) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ، ص ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٧) عبد العزيز سالم : تاريخ الاسكندرية وحضارتها ، ص ١٣٤ .

ويروى الكندي أن أمراء مصر كانوا لا يسمحون لهؤلاء الغزاة من
الاندلسيين بدخول المدينة ، وإنما كان الناس يخرجون اليهم للمتاجرة : وكانت
الأمراء لا تمكنهم من دخول الاسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون اليهم
فيبايعونهم» (١) . ولكن حالة الفوضى والاضطراب التي كانت تعاني منها
الاسكندرية في ذلك الوقت ، دفعت الاندلسيين إلى التدخل في شئونها هذه
المرة ، ومحاولة فرض سيطرتهم عليها ، والواقع أن هذه الفوضى التي تعرضت
لها مدينة الاسكندرية كانت صدى وانعكاسا لأحوال مصر كلها ، وكانت
مصر قد عرفت الاضطرابات والثورات المحلية منذ أيام الخلافة الأموية (٤١-
١٣٢ هـ / ٦٦١ - ٧٥٠ م) (٢) وكانت هذه الثورات تأتي من جانب القبط
دافعي الضرائب ، فأنزله عامل خراج مصر في عصر الخليفة الأموي هشام
بن عبد الملك (شوال ١٠٥ - ربيع ثاني ١٢٥ هـ / مارس ٧٢٣ - فبراير ٧٤٣ م)
ويدعى عبيد الله بن الحبحاب ، بيوتا من قيس وقبائل اليمنية في الحوف الشرقي
(مديرية الشرقية حاليا) في عام ١٠٩ هـ (٨٢٧ - ٨٢٨ م) وأمرهم بالاستغال
بالزراعة حتى يحلوا تدريجيا محل قبط الحوف الدائمي الثورات (٣) . ولكن
رغم ذلك فلم يحل الهدوء بهذا الموضع ، وظل مصدرا للاضطرابات ، حتى
جاء الخلاف بين الأمين والمأمون فأضاف أسبابا جديدة لعدم الاستقرار .
وكان هذا الخلاف بسبب نظام ولاية العهد ، إذ كان الخليفة العباسي هارون
الرشيد قد أخذ البيعة من بعده لولديه الأمين والمأمون ، على أن يلي الأمين
العراق والشام إلى آخر المغرب ، ويتقلد المأمون حكم البلاد الواقعة من همدان

(١) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٨٣ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ٤٢ .

(٣) المقرئزي : الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، انظر أيضا ، كاشف : مصر في فجر الاسلام

ص ص ١٣٦ - ١٣٧ .

إلى المشرق ، وألا يكون للأمين سلطان على أخيه (١) . لكن الأمين أظهر منذ توليه الخلافة في ٨٠٩ م (١٩٣ هـ) ميله إلى الاستئثار بملك العباسيين جميعه وعدم رغبته في تنفيذ عهد الرشيد ، فخلع أخيه المأمون من ولاية العهد وبايع لأبنه موسى ، ولهذا قامت الحرب بين الأمين والمأمون (٢) وكانت فترة النزاع بينهما عهد توتر وقلق في جميع أنحاء الدولة العباسية ، وقد عمت الفوضى مصر أيضا ، فتحزب فريق من أهاليها للأمين ، وتحزب فريق آخر للمأمون ، ولم ينته هذا الاضطراب بمقتل الأمين وانفراد المأمون بالخلافة ، بل تطور الأمر في مصر إلى صراع بين بعض القادة للاستئثار بالسلطة فيها والاستقلال بأمورها عن الخلافة العباسية (٣) .

ويرسم المؤرخ المسيحي المعاصر ساويرس بن المقفع صورة مصغرة ولكنها شاملة للاضطراب السائد في مصر آنذاك فيقول (٤) : «واستطال البوار على مصر وجميع أعمالها ، بحكم اضطراب مملكة بغداد ، وخرجوا الخوارج على المملكة بمصر ، وجبوا الخراج لنفوسهم ، وكان من جملتهم رجل يسمى عبد العزيز الجروى ، أخذ من شطنوف إلى الفرما ، وشرقية مصر بلبليس

(١) انظر التفاصيل في المصدرين التاليين :

الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ص ٥٣ ، ٦٩ - ٧٠ ، ٧٣

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ص ٨١ ، ١٠٥ - ١٠٦ ، ١٠٩ - ١١٠

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ١٢٤ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ .

(٣) بشأن تفاصيل الصراع في مصر أثناء النزاع بين الأمين والمأمون انظر ، الطبرى ، نفس المصدر ج ١٠ مواضع متفرقة من الكتاب ، الكندى : ولائ مصر ، ص ص ١٧٢ - ٢٠٥ ، راجع كذلك ، كاشف ، مصر في فجر الاسلام ، ص ص ١٥٩ - ١٦٦ .

(٤) ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ، ص ٢٤٨ .

وأعمالها ورجل اسمه السرى بن الحكم (١) ، أخذ من مصر إلى أسوان ، واستولوا (استولى) على الخراج . وقوم يسموا لحم وجدام ، قبيلتين أخذوا غربى مصر وأعمال الاسكندرية ومريوط وملكوا البحيرة جميعها . وكانت هذه (هاتين) القبيلتين فى أكثر الأوقات متحاربين (متحاربتين) وينهب بعضهم بعضا وكان على البلاد منها بلاء عظيم .

ولما تولى أمور مصر المطلب بن عبد الله الخزاعى (٢) من قبل المأمون فى سنة ١٩٨ هـ (أول سبتمبر ٨١٣ - ٢١ أغسطس ٨١٤ م) ، أراد أن يضبط الاسكندرية عن طريق اسناد ولايتها إلى رجل حازم له من الحسب والنسب ما يجعل المنشقين من أهلها يخضعون لسلطته ، فعهد بأمرها إلى واحد من أسرة معاوية بن حديج (٣) ، وهو حديج بن عبد الواحد ، لكن قبائل بنى مدلج بالاسكندرية ثارت ، ولما سير اليهم الوالى أخاه هارون أنزلوا به الهزيمة (٤) .

(١) هو السرى بن الحكم بن يوسف بن المقوم ، مولى من بنى ضبة ، وأصله من مدينة بلخ . ويذكر المؤرخ ابن تغرى بردى أن السرى من قوم يقال لهم الزط وقيل أنهم جنس من السودان أو الهنود . وقد ولى إمارة مصر بأجاء الجند والأهالى فى مستهل شهر رمضان سنة ٢٠٠ هـ / ابريل ٨١٦ م . انظر عن ذلك : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) هو المطلب بن عبد الله بن مالك بن الهيثم الخزاعى ، وكان بمدينة مكة المكرمة حين عينه المأمون واليا على مصر ، التى قدم إليها فى النصف الثانى من شهر ربيع الاول سنة ١٩٨ هـ / نوفمبر ٨١٣ م . انظر : ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣) يعتبر معاوية بن حديج من الشخصيات الاسلامية البارزة التى ناصرت معاوية بن أبى سفيان ، فى اثناء النضال الذى تلا مقتل الخليفة عثمان بن عفان ، وقد كافأه الخليفة معاوية بن أبى سفيان بأن عهد إليه بفتح شمال افريقية وتولى إمارة مايفتحه من هذه البلاد ، وخرج لتنفيذ عملية الفتح فى عام ٤٥ هـ / ٦٦٥ - ٦٦٦ م ، ونجح فى فتح بعض البلاد هناك ثم عاد إلى مصر فى أوائل عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م . انظر : ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص ١٩٣ (طبعة ليدن ١٩٢٠) ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١١ .

كيدر ينوس : ج ٢ ، ص ١٨٠ . باليونانية .

(٤) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٧٩ .

وحيث ولى المطلب بن عبد الله الخزاعي ولايته الثانية على مصر بأجماع الجند سنة ١٩٩ هـ (٨١٤ م) (١) ، سند الولاية على الاسكندرية إلى شخص يدعى محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج ، الذى استخلف، عليها عمر بن عبد الملك بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج ، ويعرف باسم عمر بن ملال (٢) . فوليتها لمدة ثلاثة أشهر ، تم عزله المطلب وولى عليها أخاه الفصل بن عبد الله بن مالك (٣) . و كان ذلك سببا فى حقد عمر بن ملال على المطلب فعقد الأول تحالفا مع عبد العزيز الجروى (٤) ، الذى حرص عمر على الوثوب على الاسكندرية واخراج الفضل منها ، والدعاء للجروى بها (٥) .

وقد وجد عمر بن ملال أنه لا يستطيع القيام بهذا العمل وحده ، ورأى أن يستعين فى تنفيذه بالاندلسيين الذين كانوا يرسون بمراكبهم فى مياه الاسكندرية انتظارا لانتهاء موسم الشتاء ، فدعاهم لمساعدته ، فلبوا الدعوة ، وعن طريق مساعدتهم نجح فى اخراج الفضل من الاسكندرية ودعا فيها لعبد العزيز الجروى . غير أن أهالى الاسكندرية ساءهم تدخل الاندلسيين فى شئون مدينتهم

(١) كان الخليفة المأمون قد عزله عن ولاية مصر ، ولكن جند الفسطاط أعادوه إلى الولاية. انظر ، الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

(٢) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ .

هذا ويذكره المقرئى باسم عمر بن مالك ، انظر ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٨ . بينما يذكره ساويرس بن المففع باسم عمر بن مالك ، انظر ، سير الأباء البطارقة ص ٢٤٩ .

(٣) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ .

(٤) كان عبد العزيز الجروى وقتذاك متغلبا على ثغر تنيس المتاخم لدمياط ، وكان يطمع فى ولاية الفسطاط والاستقلال بمصر عن الخلافة العباسية ، وقد نجح فى هزيمة جند الولى المطلب بن عبد الله فى معركة نيلية عند شطونوف وأسر قائده السرى بن الحكم وأعتقله . انظر عن ذلك ، الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ . راجع أيضا ، سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ الاسكندرية ص ٢٦٩ .

(٥) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ ، المقرئى : الخطط ، ص ٢٧٨ .

فثاروا واشتبكوا معهم في معركة انتهت بهزيمة الاندلسيين وانسحابهم إلى
مراكبهم بعد أن قتل السكندريين منهم بعض الافراد ، وأعادوا الفضل إلى
منصبه . (١)

لكن المطلب سرعان ما عزل أخاه الفضل ، واستند ولاية الاسكندرية
إلى اسحق بن ابرهه بن الصباح ، فتحركت أطماع ابن ملال من جديد ، وخرج
لمقاتلته في شهر رمضان ١٩٩ هـ / مايو ٨١٥ م ، وتجنباً للقتال . عزل المطلب
اسحق بن ابرهه ، وولى على الاسكندرية ابي بكر بن جنادة بن عيسى المعافري .
والواقع أن هذه الأحوال القلقة ، كانت صدى للأحوال المضطربة
للعاصمة الفسطاط ، وقد تم التحالف بين الجروى المتغلب على تنيس ، والسرى
بن الحكم الذي كان معتقلاً عنده ، ضد والى الفسطاط المطلب بن عبد الله
الخزاعي ، ونجح السرى في اجتذاب الجند إلى صفه ، وانتهى الأمر بخروج
المطلب من مصر إلى الحجاز ، وأصبح السرى والياً للفسطاط بأجتماع الجند ،
وذلك في رمضان ٢٠٠ هـ / أبريل ٨١٦ م ، أما عبد العزيز الجروى فظل
متغلباً على تنيس (٣) . وعندئذ وجد ابن ملال أن الظروف مواتية للتغلب على
الاسكندرية من جديد ، فهاجم واليها ابا بكر بن جنادة المعافري ، وأخرجه
منها ، ودعا للجروى بها ، وبذلك تهيأ للاندلسيين المجال للنزول بأسرض
الاسكندرية ، والاقامة في برها بعد أن تولى مقاليد الأمور فيها حليفهم ابن
ملال (٤) . لكن الاندلسيين بحكم طبيعتهم الجافية كرجال بحر وغزاة احتكوا

(١) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ ، المقرئى : المخطوط ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٢) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٣ ، المقرئى : المخطوط ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٣) الكندى : ولاية مصر ، ص ١٨٦ ، المقرئى : المخطوط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٤) الكندى : ولاية مصر ؛ ص ١٨٦ ، المقرئى : المخطوط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .

بأهل الاسكندرية وأفسدوا فيها ، وكان ابن ملال يسعى إلى التقرب
للسكندريين وارضائهم بغية الابقاء على ولايته عليهم ، فأمر بإخراج الاندلسيين
وردهم إلى مراكزهم ، ولم يتقبل الاندلسيون هذا الاجراء منه ، فأسروها له ،
وتربصوا به انتظارا لفرصة مواتية يتاح لهم فيها الانتقام منه (١) .

وفي ذلك الوقت من عام ٢٠٠ هـ (٨١٦ م) ظهرت بالاسكندرية طائفة
الصوفية (٢) التي يأمر أصحابها «بالمعروف - فيما زعموا - ويعارضون السلطان
في أمره (٣)» . وكان زعيم هذه الطائفة يدعى ابو عبد الرحمن الصوفي ،
وقد حدثت بعض العداوات الشخصية بينه وبين عمر بن ملال وهكذا جمع
الحقد على والي الاسكندرية بين زعيم الصوفية والاندلسيين في آن واحد ،
وصاروا يدا واحدة ، كما نجحوا في ضم قبيلة لحم اليهم «وكانت لحم أعز
من في الاسكندرية» (٤) ، وكان لافرادها اطاعهم فيها ، وقد سبق لهم أن
تغلبوا عليها في عام ١٩٦ هـ (٨١١-٨١٢ م) بقيادة زعيمهم بهلول اللخمي (٥)
وقد بلغت اعداد المتحالفين نحو عشرة آلاف رجل وساروا يريدون ابن
ملال ، وحاصروا قصره في ذي القعدة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م فخشي أن
يقتحموا عليه القصر عنوة ، فتملكته روح الشجاعة والتضحية ، فأغتسل
وتحنط وتكفن وأمر أهله أن يدلوه إلى الثائرين ، وكان من الممكن أن يثير

-
- (١) الكندي : نفس المصدر ، ص ٨٦ هـ المقریزی : نفس المصدر ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٢) يذكر المؤرخ ميزان أول ظهور الطوائف الصوفية كان في مصر مهد الرهبنة المسيحية ،
وقد ظهرت هذه الطوائف لأول مرة في عام ٢٠٠ هـ / ٨١٦ م ، انظر ، متز : الحضارة
الاسلامية ، ج ٢ ، ص ١٤ .
(٣) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٨٦ ، المقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ .
(٤) الكندي ، نفس المصدر ، ص ١٨٧ ، المقریزی : نفس المصدر ، ص ٢٧٩ .
(٥) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٧٩ .

هذا المنظر الشفقة في قلوبهم ، ولكن على العكس من ذلك ، فلم يكذب يقترب من الأرض حتى تلقفته سيوفهم ، ولم يهدأوا ويرفعوا الحصار عن القصر إلا بعد أن فتكوا بأربعة رجال من كبار عائلته (١) .

ولكن الحلف بين الاندلسيين واللخميين لم يدم طويلا ، فسرعان ما نشب الخلاف بينهم وتطور إلى حرب سافرة ، وجرت معركة بينهما انتهت بهزيمة اللخميين وانتصار الاندلسيين ، الذين استولوا على الاسكندرية عنوة في ذي الحجة ٢٠٠ هـ / يوليو ٨١٦ م . وقد أظهروا عدم رغبتهم في حكمها فأوكلوا هذه المهمة إلى زعيم الصوفية أبي عبد الرحمن الصوفي (٢) . الذي لم يكن لديه أي إلمام بأمور الحكم فعم الفساد أرجاء المدينة ، كما تعرض الأهالي بها للنهب والسلب . فعزاه الاندلسيون واسندوا ولايتها إلى زعيمهم أبي حفص عمر بن عيسى (٣) . ولم يرض بنو مداح - المقيمون حول الاسكندرية - بتفرد الاندلسيين بأمور المدينة فأشتبكوا معهم في القتال . ولما رأى أهل الاسكندرية ما حدث بين الفريقين ، ثاروا وقتلوا من الاندلسيين نحو ثمانين

(١) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، المقریزی ، الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع سير الآباء البطارقة ، ص ٢٤٩ .

(٢) الكندي : ولاية مصر ، ص ١٨٨ ، المقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ، ساويرس بن المقفع ، نفس المصدر ، ص ٢٤٩ .

(٣) هو أحد زعماء ثورة الربض ، وقد قاد الربضيين الذين طردهم الأمير الأموي الحكم إلى الاسكندرية ، ثم تآدهم إلى كريت حيث تم لهم فتحها ، وبعدها لقب بالاقريطشي نسبة إلى اقريطش (كريت) . وقد تولى أبو حفص حكم الجزيرة ، فكان بذلك أول حاكم لأماراة كريت الإسلامية . انظر ، البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ ، المقریزی : الخطط ، ج ١ ، ص ١٨٠ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٥٣ ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) راجع كذلك :

The Encyclopedia of Islam, vol I, London 1913, p. 87.

نفسا ، وحين علم الاندلسيون بذلك — بعد انتصارهم على اللخميين — امتلأوا غيظا « كالأسد الضارية لشجاعتهم ، فجردوا سيوفهم ، وخرجوا في المدينة مغضبين وقتلوا من لقيوه من أهل البلد من المسلمين والنصارى واليهود ، وأى موضع وجدوا فيه أحد من أصحابهم المقتولين أحرقوه بالنار (١) » وأصبح الاندلسيون هم سادة الاسكندرية .

و حين علم الجروى بما حدث لحليفه ابن ملال وما فعله الاندلسيون بالاسكندرية خرج لحصارهم بها ، وقد استمر الصراع قائما بين الطرفين حتى وفاة الجروى في صفر ٢٠٥ هـ / يوليو ٨٢٠ م ، وبذلك تخلص الاندلسيون من مضايقاته لهم ، وظلوا متغلبين على الاسكندرية . وفي تلك الاثناء كان الخليفة المأمون قد نجح في اقرار الأمور في المشرق ، ثم وجه جهوده للقضاء على الاضطراب المتفشى في مصر ، فأرسل إليه قائده عبد الله بن طاهر (٢) الذى تمكن من السيطرة عليها في عام ٢١١ هـ (٨٢٦ — ٨٢٧ م) (٣) . وكان من الطبيعى أن يوجه عبد الله بن طاهر جهوده بعد ذلك لتخليص الاسكندرية

(١) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ، ص ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، الكندى : ولاية مصر ص ١٨٨ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ص ٢٧٩ .

(٢) هو عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب ، ولد سنة ١٨٢ هـ / ٧٩٨ م وتأدب في صغره وقرأ العلم والفقه ، وكان بارع الأدب ، حسن الشعر . كان أميراً على خراسان وأعمال المشرق ، ثم ولاه الخليفة المأمون ولاية مصر على الصلاة والخراج معا بعد عزل عبيد الله بن السرى ، ودخل ابن طاهر مصر في شهر ربيع الأول ٢١١ هـ / يونيو ٨٢٦ م ، ثم صرفه المأمون عن ولاية مصر في عام ٢١٣ هـ / ٨٢٨ — ٨٢٩ م وولاه لأخيه المعتصم محمد بن محمد بن هارون الرشيد ، انظر ابن تغرى بردى . النجوم الزاهرة ج ٢ ، ص ص ١٩١ — ١٩٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) الكندى : ولاية مصر ، ص ص ١٨٩ — ١٩٦ ، اليعقوبى : التاريخ ج ٢ ، ٤٦٠ — ٤٦٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ص ١٩١ — ١٩٢ ، المقرئى الخطط ، ج ١ ، ص ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ٢١٠ .

من تغلب الاندلسيين عليها ، فوجه إليها قواته في مستهل شهر صفر ٢١٢هـ / مايو ٨٢٧ م ، ثم لحق بهم في ربيع الأول ٢١٢ هـ / يونيو ٨٢٧ م ، وفرض الحصار عليها لمدة أسبوعين ، فطلب الاندلسيون الصلح ، وأجابهم اليه ، بشروط هي ، أن يخرجوا من الاسكندرية إلى حيث أرادوا على ألا ينزلوا بلدا تابعا للخلافة العباسية ، وألا يصحبوا معهم في مراكزهم أحدا من المصريين ولا عبدا ، ولا أحدا من الأشخاص المطلوبين ، فأن أخلوا بواحد من هذه الشروط حلت له دماؤهم ونكث عهدهم . ورغم اخلاصهم ببعض هذه الشروط إلا أنه عفا عنهم وتركهم يغادرون الاسكندرية ، فرحلوا عنها في النصف الثاني من ربيع الأول ٢١٢ هـ / النصف الثاني من يونيو ٨٢٧ م . (١)

الفتح الاسلامي لكريت :

بعد أن رحل الاندلسيون عن مدينة الاسكندرية ، توجهوا إلى جزيرة كريت — التابعة للدولة البيزنطية — ونزلوا بها . والواقع أن هذا الاختيار لم يكن وليد الصدفة ، إذ كانوا على معرفة سابقة بتلك الجزيرة وغيرها من الجزر اليونانية الأخرى التي طالما تعرضت لغاراتهم ، وكانت آخر غارة قاموا بها على جزيرة كريت في عام ٨٢٦ م / ٢١١ هـ حين أرسل الاندلسيون من الاسكندرية عدة سفن اغارت عليها ، وعادت محملة بكثير من الأسرى والغنائم بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة . (٢)

-
- (١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١ ، ص ٢٧٥ — ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٤٦١ ، ساويرس بن المقفع ، سير الأباء البطارقة ص ٢٦٥ ، المقرئ : نفح الطيب ج ١ ، ص ٣١٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون العبر ، ج ٣ ص ٢٥٣ ، المقرئ : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .
- (٢) ساويرس بن المقفع : سير الأباء البطارقة ، ص ٢٤٩ . انظر كذلك المرجعين التاليين : فازيليف : العرب والروم ، ص ٥٥ ، العدوى : الدولة الاسلامية وامبراطورية الروم ، ص ١٠٧ .

وأول ما يصادف الباحث في هذا الموضوع ، هو مشكلة تحديد تاريخ الفتح الاسلامي لكريت ، فأن غالبية المصادر البيزنطية (١) لم تحدد تاريخا معيناً تم فيه هذا الفتح ، وإنما ذكرت أنه تم أثناء انشغال الامبراطور ميخائيل الثاني بالقضاء على ثورة توماس الصقلي (٢) . والمعروف أن هذه الثورة استغرقت الفترة الواقعة بين عام ٨٢١ م وحتى عام ٨٢٣ م / ٢٠٥ - ٢٠٨ هـ . واستناداً إلى هذه المصادر فأن الفتح الاسلامي لكريت يقع في وقت ما خلال السنوات السالفه الذكر . أما المؤرخ البيزنطي جينيزيوس (٣) فقد ذكر أن هذا الفتح تم في السنة التي انتهى فيها عصيان توماس ، أي في عام ٨٢٣ م / ٢٠٨ هـ . وتبعاً لهذا الاختلاف في المصادر البيزنطية ، اختلف أيضاً المؤرخون المحدثون فأن بعضهم مثل المؤرخ الانجليزي فنلاي Finlay ، والمؤرخ الايطالي اماري Amari ، سلموا بما رواه جينيزيوس ، وبالتالي جعلوا تاريخ الفتح الاسلامي لكريت في عام ٨٢٣ م (٤) . أما المؤرخ الفرنسي شلومبرجيه Schlumberger ، فقد حدد تاريخ الفتح بعام ٨٢٤ م / ٢٠٩ هـ (٥) . على حين

(١) انظر على سبيل المثال المصادر التالية :

Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum, p. 787; Constantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, ch. 22, p. 104; Theophanes Continuatus, Lib. 11, pp. 73-74; Symeon Magistri, Annales, p. 758; Zonaras, Epitome Historiarum, Liber XV, pp. 347-348.

(٢) انظر تفصيل هذه الثورة ونتائجها في نفس هذا الفصل من البحث ص ص ٧٤-٩١ .

(3) Genesius, Basileiai, p. 46.

(4) Finlay, History of Greece, vol 11, p. 135; Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, p. 163.

(5) Schlumberger, Recits de Byzance et des Croisades, p. 13.

ذكر المؤرخان الفرنسيان ديل ومارسيه Deihl et Marcais ، أن
الفتح الاسلامى لكريت تم فى عام ٨٢٥ م / ٢١٠ هـ (١) .

على أننا نميل إلى الأخذ بما جاء فى المصادر العربية التى حددت تاريخ
الفتح الاسلامى لكريت بشهر ربيع الأول عام ٢١٢ هـ / يونيه ٨٢٧ م . (٢)
حيث أن هذه المصادر قد تبعت أخبار الاندلسيين بدقة خلال الفترة الزمنية
التي قضاوها بالاسكندرية حتى خروجهم منها إلى كريت - وهى المعلومات
التي أغفلها المؤرخون البيزنطيون أغفالا تاما ولم يشيروا اليها بكلمة واحدة -
كما أن بعض هؤلاء المؤرخين المسلمين أمثال الطبرى ، كان معاصرا لهذه
الاحداث ، ومن ثمة فأن التاريخ الذى حددده أقرب إلى التحقيق .

وتذكر المصادر البيزنطية أن الاندلسيين قدموا إلى كريت تحت قيادة
زعيمهم الذى أطلقت عليه هذه المصادر اسم ابو خبص (Apochaps) ، وهو
ابو حفص عمر بن عيسى (٣) ، ونزلوا على الشاطئ الشمالى للجزيرة عند
موضع ذكره كيدر ينوس باسم «خرا كس» (٤) ، وتذكر هذه المصادر ، أنه
ما كاد الفاتحون المسلمون يتعدون قليلا عن الشاطئ حتى أمر ابو حفص
باحتراق السفن التى نقلتهم إلى كريت ، وقد غضب الاندلسيون لذلك أشد

(1) Diehl et Marcais, Le monde oriental de 395 à 1081, Paris 1944, p. 310.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢
ص ٤٦١ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ، ص ١٩٢ ، ابن خلدون : العبر
ج ٣ ، ص ٢٥٣ .

(٣) انظر ص ٦٢ من هذا الفصل حاشية رقم (٣) .

(٤) انظر كتاب كيدر ينوس المسمى «موجز التاريخ» وهو باليونانية ، ص ٩٢ .

الغضب ، وتملكهم الخوف على نسائهم وأطفالهم ، فهدأهم ابو حفص وامتدح لهم غنى الجزيرة وجمال الكريتيات وصلا حيتهن للزواج (١) .

ويفهم من هذه الرواية حرص هذا القائد على اجبار أتباعه على الاستقرار في الجزيرة والاستماتة في فتحها والدفاع عنها ، غير أنه من الصعب التسليم بها ، خاصة وأن عددا غير قليل من هؤلاء الفاتحين من الغزاة البحرين ، الذين لا يستطيعون بحال من الأحوال الاستغناء عن مراكبهم ، كما أنه كان أمامهم مهمة عسيرة تتعلق بمواصلة فتح باقى الجزيرة ، وكذلك غزو الجزر المجاورة لضمان أمنهم في مقرهم الجديد . ويبدو أن هذه الرواية قد لعب فيها الخيال دورا كبيرا ، والارجح هو ما ذكره المؤرخ الايطالى أمارى ، من أن ما أمر القائد المسلم باحراقه كان السفن غير الصالحة للاستعمال فقط وليست جميع السفن (٢) ، ومن هنا التبس الأمر على المؤرخين البيزنطيين .

ويفهم من نص أورده المؤرخ البلاذرى أن الاندلسيين افتتحوا حصنا واحدا في بادىء الأمر (٣) ، ويبدو أنهم كانوا ينحشون من قيام أهالى الجزيرة بمحاربتهم في ذلك الحصن ، فأقاموا به تحصينات منيعة ، وحفروا حوله خندقا عظيما ، ومن هنا أتخذ هذا الحصن اسم الخندق (٤) ، ولكن على عكس ما

(١) انظر المصدر السابق الجزء الثانى ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك :

Genesius, op. cit., p. 46—47; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 75—76.

(2) Amari, Storia dei Musulmani di Sicilia, vol I, PP. 163 — 164.

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ .

(٤) ذكره' المؤرخ البيزنطى جنيزيوس باسم خندقس Chandax ، بينما ذكرها صاحب صلة ثيوفان باسم قندقس Candax انظر ،

Genesius, op cit, Liber 11, p 47; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 76.

توقعوا ، فأنهم لم يلقوا مقاومة تذكر ، لا من جانب السلطات البيزنطية بالجزيرة ، ولا من جانب الأهالى . والباحث المدقق يرجح أن ذلك يرجع لعاملين ، الأول هو بغض الأهالى للحكم البيزنطى نتيجة لسوء معاملة السلطات لهم وتدخلها فى شئونهم الدينية . والثانى هو ثورة توماس الصقلبي وما أدت إليه من خراب الولايات التابعة للإمبراطورية ، وتدهور تمام فى البحرية البيزنطية أعجزها عن مواجهة الفتح الإسلامى للجزيرة .

وبخصوص العامل الأول يمكن القول انه سيطرت على الحياة الاجتماعية فى الدولة البيزنطية الروح الدينية المشبعة بالأوهام والخرافات ، فضلا عن الاعتقاد فى المعجزات والتنبؤات وإنتشار الأناشيد الدينية ، ولم يهتم الناس بالقيام شخصيا بأعمال إيجابية لتحسين أحوالهم نظرا لتأثرهم بفلسفة المسيحية التى كانت تدعو إلى التفكير فى العالم الآخر واعتبار الحياة الدنيا فترة زائلة لا قيمة لها ، ومن ثمة كان الفرد يتقبل كل شىء دون فهم أو إدراك أو مناقشة وخضع لآراء الكنيسة خضوعا أعمى . (١) وقد أخذ الناس ينظرون إلى رجال الدين — الأحياء منهم والأموات — نظرة ملؤها الاحترام والتبجيل ، يلتمسون منهم البركات ويحج إلى مشاهدتهم أصحاب الحاجات ، ثم يعودون بأثر من آثارهم أو رسم من رسومهم ليكون الملاك الحارس والأب الروحى لهم ولذويهم وقد تبوأَت صورة السيد المسيح والسيدة العذراء المكانة المرموقة بالقسطنطينية أمامها سجد الناس يستلهمون النصر ودفع المكروه ، ومنهما التمسوا البركة والشفاء وقضاء الحاجات ، كما اعتقدوا أن هذه الصور تحرس المنازل ، وتحمى المتاجر ، ثم ذهبوا إلى أبعد من ذلك ، اذ جرى تفسيرهم للحوادث

(١) انظر المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف نسيم فى ترجمته العربية لكتاب كولتون ، عالم العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، ص ١٧ .

التاريخية على صوء معتقداتهم هذه ، فأعتبروا — مثلا — أن انتصار الامبراطور هرقل على الفرس يرجع أولا وأخيرا إلى أنه كان يحمل صورة العذراء أثناء القتال ، ، ولم يعيروا الاسباب الحقيقية كمهارته وشجاعته وقوة الجيش البيزنطى وقتها ، وغير ذلك من الأسباب أى التفات (١) .

وقد امتلأت الكنائس والاديرة بالصورة المقدسة (الايقونات) كما جرى تعليقها فى المنازل والخوانيت وطرزت على الملابس ، ونقشت على الكتب والأثاث وسائر الأدوات ، كما نحتوا لهذه الصورة تماثيل أقاموها فى الميادين العامة وعلى أسوار القصر الامبراطورى . وقد أخذ الناس يسجدون لها ويضيئون المشاعل والشموع من حولها ، ويزينونها بالأشرطة ، ويحرقون لها البخور ويقبلونها بأخلاص وخشوع (٢) .

حقيقة أن رجال الدين أوضحوا فى بادىء الأمر أن الايقونات ماهى إلا صور للقديسين ، غير أن العامة مالبثوا أن نسوا ذلك وركزوا اهتمامهم المباشر للايقونات ، التى بدت لهم كأشخاص واقعيين بصرف النظر عما كانت ترمز إليه . والتاريخ البيزنطى ملئ بالأساطير الدينية عن الايقونات التى تتكلم وتتحرك . (٣)

وقد لفت هذا التدهور فى العقيدة المسيحية ، انتباه كثير من المسيحيين المؤمنين فأظهروا سخطهم على هذه البدعة منذ وقت مبكر ، وقد أخذت حركة مناهضة عبادة الصور المقدسة تزداد قوة ، حتى بلغت ذروتها فى عصر

(١) طوقان : الحركة اللايقونية ، ص ص ٤-٥ ، العرينى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ١٥٩ - ١٦٠ .

(2) Oman : The Byzantine Empire, p. 191.

(٣) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ص ٨٤ - ٨٥ .

الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧ - ٧٤١ م) وكذلك فى عصر خليفته قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥ م) ، فتعرض عباد الصور المقدسة لمختلف أنواع القسوة والاضطهاد ، وجرى تعذيبهم وكى جباههم وسمل عيونهم ، وتقطيع أوصالهم والتشهير بهم ونفيهم إلى الأماكن النائية وغير ذلك من مظاهر العنف (١) .

وقد تركزت عبادة الايقونات بصفة خاصة فى البلاد والجزر اليونانية ، والاقاليم الاوروبية من الامبراطورية ، وتمسك الاهالى بهذه العبادة ، تمسكاً شديداً ، اما الاقاليم الاسيوية فقد كانت ضد هذه العبادة ، ويرجع ذلك على الأرجح الى تأثر هذه المناطق بالديانات السماوية كاليهودية والاسلام (٢) .

ومن الأمثلة التى يشار اليها للتدليل على تمسك البلاد والجزر اليونانية بتلك العبادة، ما حدث فى عام ٧٢٦ م ، حين أمر الامبراطور ليو الثالث الايسورى - اثناء الحملة العنيفة التى قادها ضد عبادة الصور المقدسة - بتحطيم تمثال السيد المسيح ، الموجود بأعلى أفخم مدخل للقصر الامبراطورى ، وكان هذا التمثال موضع تبجيل واحترام الجماهير ، وقد أدى هذا الاجراء إلى ثورة عنيفة فى القسطنطينية ، ولقى حتفه أثناءها مندوب الامبراطور الذى نفذ هذا الأمر وحطم التمثال . وعندما وصلت هذه الانباء إلى البلاد والجزر اليونانية قام فيها تمرد خطير ترتب عليه أن عساكر ثيم الهيلاس (بلاد اليونان) نصبوا من قبلهم امبراطورا وأرسلوا أسطولا لمهاجمة القسطنطينية (٣) .

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 148.

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine, p. 257; Ostrogorsky, op. cit., p. 143.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 144, Vasiliev, op. cit., p. 258.

حقيقة أنه في الوقت الذي تم فيه الفتح الاسلامي لجزيرة كريت في ٨٢٧م / ٢١٢ هـ كانت الاضطهادات ضد عباد الصور المقدسة قد توقفت ، إلا أن الامبراطور الجالس على العرش آنذاك وهو ميخائيل الثاني العمورى (٨٢٠-٨٢٩ م) لم يعترف بعبادة الصور المقدسة ولم يشجعها ، بل عرف عنه أن عقائده الشخصية لا تتفق معها . فهو ينتمى إلى مدينة عمورية التي كانت فيما مضى معقل اللا ايقونية ، كما جعل تربية أبنه ووريثه في الحكم ثيوفيل Theophelus إلى حنا النحوى المعروف بمناهضته لعبادة الصور ، وعين في كرسى البطريركية البطريرك أنطون المشهور بشدة عدائه للأيقونية ، كما أخذ الامبراطور ميخائيل الثاني يردد في مختلف المناسبات المساوىء التي تنطوى عليها عبادة الصور المقدسة (١) .

وهكذا لم ينسى سكان جزيرة كريت الاضطهادات التي تعرضوا لها مع غيرهم من مؤيدي عبادة الصور المقدسة ، على أيدي السلطات البيزنطية ، خاصة وأن الامبراطور ميخائيل الثاني لم يتخذ أى إجراء من شأنه ارضاء الأيقونيين والعمل على كسب ودهم ومحبتهم ، ومن ثمة فقد نظروا إلى الفتح الاسلامي للجزيرة على أنه السبيل إلى خلاصهم من الحكم البيزنطى الجائر . وبالتالي لم يبدوا مقاومة تذكر للفاتحين المسلمين .

والى جانب هذا الصراع الدينى الذى اشتغل فى داخل الامبراطورية البيزنطية ، وجدت عوامل سياسية ادت الى تدهور الموقف . والواقع ان الاضطراب السياسى بدأ ينتشر داخل الدولة البيزنطية منذ منتصف القرن الثامن الميلادى تقريبا ، وذلك بعد وفاة الامبراطور ليو الثالث الايسورى (٧١٧-٧١٧ -

(1) Bury, The Eastern Roman Empire, pp. 112—114; Ostrogorsky, op. cit., p. 181.

٧٤١ م) . اذ تتابع على الحكم في بيزنطة عدد من الابطرة الضعفاء ، وبلغ هذا الضعف ذروته في عصر الامبراطوره ايرين ، التي تولت مقاليد الامور في بيزنطة كوصية على ابنها الطفل قسطنطين السادس بعد وفاة والده ليو الرابع في ٨ سبتمبر ٧٨٠م ، وكان قسطنطين في العاشرة من عمره آنذاك (١) ثم وقع الصراع بينها وبين ابنها حين بلغ سن الرشد واراد أن يباشر السلطة بنفسه دون قسم له في الحكم . وقد ادى الصراع بينهما الى نشر بذور الفرقة في انحاء الامبراطورية ، وكانت الولايات الغربية بكل جيوشها من مؤيدى ايرين ، نظرا لميلهم الى الايقونية التي تمثلها ، وقد اقسمت لها هذه الجيوش يمين الولاء في عام ٧٩٠ م . على حين ان الولايات الشرقية — وخاصة ثغر الارمنياق — كانوا من مؤيدى قسطنطين ، واخيرا تغلب الحزب المناصر له ونادوا به امبراطوراً وحيداً في اكتوبر ٧٩٠ م (٢) .

على ان ما عرف عن قسطنطين السادس من الضعف والعناد والقسوة ، أدى الى قيام الصراع بينه وبين انصاره السابقين ، وازداد تبعاً لذلك انصار ايرين ، وقد ارغمه هذا على قبولها قسيماله في الحكم في عام ٧٩٢ م . ولكن ذلك لم يكن ليرضى طموح هذه المرأة التي كانت تطمح في الاستئثار بالعرش وسرعان ما دبرت مؤامرة ضد ابنها قسطنطين ، وبناءً على اوامرها تم سمل عينيه وابعاده عن العرش في أغسطس ٧٩٧ م (٣) .

وقد عاد تسلط هذه الامبراطورة على الحكم بأسوأ النتائج — على الامبراطورية البيزنطية في الداخل والخارج على السواء . ففي الداخل عمت الفوضى والاضطراب ، وأدى تنازل الحكومة عن كثير من الضرائب ،

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 157.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 159—160.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 160—161.

استجداء لرضاء الشعب ورجال الدين عن حكمها ، الى اضعاف الموارد المالية للدولة ، كما كثرت المؤامرات والفتن بين رجال حكومتها من اجل الاستئثار بالسلطة والنفوذ (١) . اما في الخارج فقد تدهورت الامور بشكل خطير ، وترتب على الانتصارات التي احرزتها جيوش المسلمين في آسيا الصغرى ، ان تعهدت الامبراطورة بدفع الجزية السنوية التي قدرت بسبعين الف دينار ، الى الخليفة العباسي هارون الرشيد (٢) . كما اضطرت كذلك لدفع الجزية السنوية للبغار على اثر الهزائم العديدة التي منيت بها الجيوش البيزنطية امامهم (٣) . اما في الغرب الاوربي ، فقد وجدت البابوية في الظروف التي مرت بها الامبراطورية البيزنطية خلال حكم ايرين ، الفرصة لقطع الرباط الواهي الذي ربطها بالامبراطورية الشرقية ، وكان ذلك بتتويج البابا ليو الثالث (٧٩٥ - ٨١٦ م) (٤) لشارلمان ملك الفرنجة امبراطوراً في يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م في كنيسة القديس بطرس بروما . وقد كان هذا التتويج بمثابة الصدمة العنيفة بالنسبة للامبراطورية البيزنطية لعدة أسباب ، فمنذ سقوط الامبراطورية الرومانية القديمة في القرن الخامس الميلادي والعالم الروماني لا يعرف الامبراطورا واحدا هو الامبراطور البيزنطي ، الذي تتمتع بسيادة ولو اسمية على الغرب بوصفه وريث الاباطرة الرومان لكن تتويج شارلمان امبراطورا أوجد ، منافسا للامبراطور البيزنطي وحرم الامبراطورية البيزنطية من كل سيطرة تدعيها على البابوية والعالم الغربي

(1) Bury, op. cit., p. 212; Ostrogorsky, op. cit., pp. 161—162.

(٢) الطبري ، تاريخ الامم والملوك ، ج ٦ ، ص ٣٧٩ .

(3) Bury, op. cit .,p. 340.

(٤) ديفز : اوروبا في العصور الوسطى ، ترجمة الاستاذ الدكتور عبد الحميد حمدي محمود ، الاسكندرية ١٩٥٨ ، ص ٢٥٣ .

يضاف الى ذلك ان تنويع شارلمان ، لم يجعل منه (امبراطورا) فحسب بل الامبراطور الاساسى فى الدولة الرومانية ، لأن الامبراطورية من وجهة النظر السياسية فى العصور الوسطى ، لا تحتل رأسين — مثلها مثل البابوية — وفى هذه الحالة يصبح شارلمان صاحب الكفة الراجحة ، لأنه امبراطور الكنيسة الرومانية ، وهى الكنيسة العالمية التى تتخذ روما مركزا لها .

وهكذا تتابعت الكوارث على الامبراطورية البيزنطية من كل جانب ولم تستتب الأمور حتى بعد أن قامت ثورة فى القصر فى ٣١ أكتوبر ٨٠٢ م ، أطاحت بايرين وأبعدتها عن الحكم (٢) ، بل استمرت الامبراطورية تعاني من المشاكل والثورات السياسية حتى جاءت ثورة توماس الصقلي (٨٢١ — ٨٢٣ م) لتضيف عاملا جديدا أدى إلى تعقيد مركز بيزنطة . ونظرا لخطورة هذه الثورة على الامبراطورية البيزنطية وما ترتب عليها من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامى لجزيرة كريت ، فسيتم تناولها بشيء من التفصيل .

تجدر الاشارة إلى أن دراسة هذه الثورة تتسم بالصعوبة ، نظرا للتعقيد الذى شملها ، فقد كانت ذات أبعاد سياسية ودينية واجتماعية ، ولم تكن كباقي الثورات التى عرفت فى التاريخ البيزنطى ، والتى تكون فى الغالب ذات أسباب محددة واضحة . فان المؤرخين البيزنطيين الذين تناولوها بالشرح مثل موناخوس ، والماجستر سيميون وجينيزيوس ، ومؤلف صليبة ثيوفان ، وكيدرینوس ، وزوناراس ، لم يذكروا أسبابا معينة دعت توماس للقيام

(١) سعيد عبد الفتاح ع شور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، التاريخ السياسى ، الطبعة الرابعة ، ص ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(2) Vasiliev : op. cit., p. 268

العربى : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٢٠٥ .

بثورته هذه ، وأن كان يستنتج من دراسة هذه الثورة وتطوراتها ، أن الدافع الرئيسي لتمرّد توماس هو رغبته في الاستحواذ على العرش الامبراطورى . أما ما أعلنه من أنه نصير عبادة الصور المقدسة ، وحامى الفقراء والمدافع عنهم فقد كان فى الواقع مجرد شعارت لكسب المزيد من الأتباع والمؤيدين تحقيقاً لما كان يسعى اليه من الاستئثار بالسلطة والنفوذ .

وأول ما يصادف الباحث فى هذا الموضوع ، ذلك الخلاف بين المؤرخين القدامى حول أصل توماس فقد ذكر صاحب صلة ثيوفان أنه من أصل صقلبي «ويقال أنه خرج من أصل فقير غير معروف ، ويقال مع ذلك أنه من الصقالبة الذين ينزلون فى كثير من الأحيان فى الأناضول» (١) . أما المؤرخ المعاصر موناخوس ، فلم يوضح إلى أى عنصر ينتمى توماس ، بل أكتفى بالقول ، أنه من «أرض الروم» (٢) ، وتبعه فى ذلك المايجستر سيميون الذى ذكر أنه رومى من أصل غير معروف . (٣) ولكن جينيزيوس يكشف الغموض الذى أحاط بأصل توماس ، فقد ذكر أنه من أصل أرمنى كما حدد مكان مولده على ضفاف بحيرة جازوروس . (٤)

كان توماس زميلاً قديماً فى السلاح 'الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى Michael II The Amorion (٨٢٠ — ٨٢٩ م) ومن اشتركوا معه فى

(1) Theophanes Continuatus Liber 11 p. 50.

(2) Monachus, op. cit. p. 784.

(3) Symeon Magistri, op. cit., p. 621.

(4) Genesius, op. cit., Liber 1, p. 8.

هذا وتقع بحيرة جازوروس فى إقليم بنطس فى ثم الأرمنياق ، وقد دعا ذلك بعض المؤرخين المحدثين إلى أن يطلقوا على توماس اسم توماس الجزيرى ، انظر على سبيل المثال ،

Bury History of Eastern Roman Empire p. 84.

ثورة باردانيوس (١) . وحين انتهت هذه الثورة بالانشل ، ظل توماس وفيما لباردانيوس ، وقد استطاع توماس الفرار إلى الشام وظل هناك حتى قام بثورته وتذكر المصادر البيزنطية أنه في الوقت الذي قام فيه توماس بالثورة ، كان مسنا ، كما كان يعاني من العرج ، نظرا لبتة إحدى أرجله ، لكن سنه وتشويهه هذا لم يحد من نشاطه أو يصعفا من شخصيته ، فقد كان دمث الأخلاق ، مهذبا ، لطيف المعشر ، ذا شخصية محبوبة ، وكانت هذه من العوامل التي جذبت إليه الأتباع وجعلت له شعبية كبيرة . (٢)

وقد بدأ توماس عدوانه في أواخر حكم الامبراطور البيزنطي ليو الارمني (٨١٣ - ٨٢٠ م) فأدعى أنه الامبراطور قسطنطين السادس ابن الامبراطورة ايرين . الذي أبعد عن العرش ظلما وبطرين غير شرعي (٣) . وبسهولة نجح

(١) كان باردانيوس نوركوس Bardanius Turcus قائدا للقوات البيزنطية في آسيا الصغرى في أيام الامبراطور نقفور الأول (٨٠٢ - ٨١١ م) وفي عام ٨٠٣ م أمره الامبراطور بالتوجه لقتال المسلمين في خلافة هارون الرشيد ، ولكنه بدلا من تنفيذ أوامر الامبراطور ، ثار وأعلن نفسه امبراطورا ، وكان مؤيدا من جانب زملائه في الجيش وهم توماس الصقلي وليو الارمني ، وميخائيل العموري ، (والأخيران توجا امبراطورين فيما بعد) . وقد انتهت هذه الثورة بالقتل ، واستطاع كل من ليو وميخائيل أن يحصلوا على العفو من الامبراطور نقفور ، وفر توماس إلى الشام حيث عاش بين المسلمين . اما باردانيوس فقد انسحب إلى دير في جزيرة بروقتس Protus ، وتوفي في أوائل حكم ليو الارمني (٨١٣ - ٨٢٠ م) . انظر تفاصيل ثورة باردانيوس في المصادر التالية :

Genesius, op. cit., Liber 1, pp. 6—10 & Liber 11, p. 35; Theophanes Continuatus Liber 11, 52; Zonaras, Epitomae Historiarum, Liber XV, p. 339.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

(٣) عبر صاحب صلة ثيوفان عن هذا بقواه :

«... esse se Constatntinum Irene filium manifestat.»

وترجمتها باللغة العربية هي : «اظهر نفسه كقسطنطين بن ايرين» انظر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 51.

في اقناع سكان آسيا الصغرى بهذا الادعاء كما تبني أحد الرجال و كان قزما قبيح المنظر وأطلق عليه اسم قسطنطين وجعله قائد الجيش واستطاع توماس أن يخضع أرمينية و كلديا البنطسية . (١) وفي عام ٨٢٠ م حدثت مؤامرة أدت إلى مقتل ليو الأرمني ووثوب ميخائيل العموري على العرش البيزنطي ، فاستغل توماس هذه الأحداث ، وأخذ يصب عدوانه في عنف . والواقع أنه وجدت عوامل دينية واجتماعية ساعدت على انتشار الثورة من مكان لآخر ، وفيما يتعلق بالعامل الديني نجد أن حزب عباد الصور المقدسة كان ساخطا على الامبراطور ليو الارمني ثم ميخائيل العموري اللذين لم يكونا من أنصار العبادة وكان أصحاب هذا الحزب على استعداد للثورة والدفاع عن آرائهم ، لذلك فحين أعلن توماس أنه قسطنطين بن ايرين نصيب ه العبادة ، اجتذب أنصارا عديدين وحظى بأيد كبير نتيجة خدعته التي انطلت على أهالي آسيا الصغرى. أما عن العامل الاجتماعي ، فالمعروف أن سكان آسيا الصغرى قد عانوا طويلا من فداحة الضرائب ، كما عانوا من تحكم وجور الحكام والموظفين البيزنطيين الذين إذا قوهم الأمرين وقد رأوا في توماس محررا لهم من هذا النير بعد أن أعلن أنه حامى الفقراء والمدافع عنهم (٢) «ومنذ ذلك الوقت» رفع العبيد على السادة ، والجنود على القادة ، والقادة على أمراء الجيش أيديهم بالسلاح وتهيأوا للثأر من دماءهم» وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان (٣). وهكذا نجح توماس وأبنة قسطنطين خلال فترة وجيزة في اخضاع الجزء

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 51—52.; Genesius, op. cit , Liber, 11, p. 35;

(٢) فازيلييف : العرب والروم ص ٢٩ .

(3) «hinc servi adversus heros, miles stationarius advers us cohortatem, centurio adversus exercitus ducem cruento ferro dextras armaverunt.»

انظر .

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 53.

الأكبر من آسيا الصغرى ، متبعين في ذلك الاقناع واللفظ في بعض الأحيان والتهديد والعنف في أحيان أخرى ، حتى أصبح يدين لها بالتبعية من حدود أرمينية حتى سواحل البحر الايجي . ولم يبق على الولاء للامبراطور ميخائيل سوى ثيم الاوبسيق الذي كان يتولاه القائد كاتاكيلاس — ابن أخت الامبراطور وثيم الارمنياق الذي تولاه الاستراتيجوس أولبيانوس (١) .

وقد أدى إنشغال توماس بأخضاع البلاد لسلطته إلى ترك الحدود البيزنطية مع المسلمين في آسيا الصغرى بدون حراسة ، ونتج عن ذلك قيام المسلمين في عهد الخليفة العباسي المأمون بغارات على البلاد البيزنطية القريبة ، وتنبه لذلك الجند المنخرط في جيش توماس ، وأوضحوا أنه بثورته تلك أنما يفتح آسيا الصغرى على مصراعها للمسلمين (٢) وارضاء لهم قرر توماس القيام بحملة على المسلمين بالشام ، وفي صيف عام ٨٢١ م / ٢٠٥ هـ عبر توماس بجيش كبير جبال طوروس ، وهاجم البلاد الشامية ، وللأسف لم يحدد صاحب صلة ثيوفان وهو مصدرنا الرئيسي في هذا الموضوع أى البلاد الشامية وقع عليها هذا الهجوم الذي كلل بالنصر ، لكن توماس منع أتباعه من أتيان أى عمل من أعمال التخريب أو النهب في البلاد الشامية خوفا من غضب الخليفة المأمون . ويستطرد صاحب صلة ثيوفان قائلا : «أن المأمون أرسل وفدا لمقابلة هذا الثائر وتم أثناء المقابلة عقد تحالف بين الطرفين أعترف فيه المأمون بتوماس امبراطورا للدولة البيزنطية ، كما وعد بتقديم المساعدة العسكرية له ، مقابل أن يصبح توماس بعد وصوله للعرش البيزنطي — تابعا للخليفة العباسي يدفع له الجزية السنوية» (٣) .

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 53—54;

Zonaras, op. cit., Liber XV, p. 341—342.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

(3) Theophanes continuatus, Liber 11, p. 54.

و كيفما كان الأمر فقد تم تتويج نوماس امبراطورا عقب أبرام هذه المعاهدة ، وذلك في مدينة أنطاكية على يد أيوب بطريرك كنيسة (١) . والواقع أن حفلة التتويج هذه كانت لها أهميتها الكبرى ، إذ تعطي سلطة الامبراطور العلمانية طابعا دينيا باعتباره ممثل الله على الارض ، وكانت مراسم التتويج تقام في الكنيسة في العاصمة البيزنطية ويتولاها بطريرك القسطنطينية باعتباره الرجل الثاني في الدولة بعد الامبراطور . ويعلق المؤرخ الانجليزي بيوري على هذا الحدث بقوله أن هذا التتويج على يد بطريرك انطاكية ، قد أضعف مركز توماس أكثر مما أدى إلى تعزيزه ، فالمعروف أنه قدم نفسه إلى أتباعه على أنه قسطنطين ابن ايرين ، ومعنى ذلك أنه امبراطور شرعي ، تم تتويجه على يد بطريرك القسطنطينية ، وهو البطريرك الرئيسي في الامبراطورية فلم يكن هناك داع لإذن لأن يتوج مرة ثانية على يد أسقف أدنى في المرتبة ، ويمكن القول بأنه منذ تلك اللحظة خلع توماس قناعه المزيف كقسطنطين السادس ، وأخذ في الظهور بمظهره الحقيقي كتوماس الجزيري .

ويستطرد بيوري قائلا ، والمرجح أن اقترح التتويج جاء من جانب الخليفة المأمون ، ولم يأت من جانب توماس نفسه ، وكان المأمون يرمى من وراء ذلك إلى هدف سياسي وهو تأكيد تبعية توماس له بعد أن يتسلم شارة السلطة

(١) عرض حينزيوس لهذا الحدث بقوله :

«Itaque foedus pacis init cum Agaienus sciente duce illorum coranatur a patriarcha Antiocha Iobo»

وترجمتها بالعربية «وعقد معاهدة سلام مع المهاجرين (المسلمين) وأعلن نفسه قائدهم وتسلم التاج الملكي من أيوب بطريرك انطاكية» انظر عن ذلك :

Genesius, op. cit., Liber 11, p. 33; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 54.

من يد بطريك انطاكية الذى كان تابعا للخليفة المأمون ، وفى ذلك اعتراف
ضمنى من توماس بالخليفة العباسى كسيد أعلى له (١) .

بعد ذلك خرج توماس إلى آسيا الصغرى مصحوبا بجيش كبير من المسلمين
أمدّه به الخليفة المأمون ، كما ضم العديد من العناصر الأخرى كالأرمن ،
والفرس وغيرهم ، ويقال أن هذا الجيش بلغ نحو ثمانين ألف رجل . (٢)
وأتخذ طريقه إلى القسطنطينية . وحين وصلت الأنباء بذلك إلى العاصمة ، أرسل
الامبراطور ميخائيل الثانى جيشا صغيرا لملاقاة الثائرين ، واشتبك الطرفان فى
معركة لم يذكر صاحب صلة ثيوفان – وهو الوحيد الذى انفرد بذكر أنباء
هذه المعركة – مكانها ولا تاريخها ، وقد انتهت هذه المعركة بهزيمة الجيش
الامبراطورى هزيمة منكرة . (٣) وواصل توماس تقدمه نحو العاصمة ، وقد
أدرك ضرورة محاصرة المدينة برا وبحرا (٤) . ولم يجد صعوبة كبيرة فى الحصول
على الاسطول ، إذ انحاز اليه أسطول كبير هايوت – على الساحل الجنوبي

(1) Bury, History of Eastern Roman Empire, pp. 88—89.

(2) Ibid, p. 89.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 55.

(٤) الواقع أن القسطنطينية كانت تحتل موقعا استراتيجيا ممتازا وهى مثلثة الشكل منها جانبان فى
البحر وجانبان فى البر كانت تحميه الأسوار المنيعة التى أقامها حكامها ، وكان من المعتذر
حصار القسطنطينية حصارا كاملا إذ كان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقا فى البر والبحر معا
وقد وصفها القلقشندي بقوله . . « ولها أسوار من حجارة بينها فضاء ستون ذراعا ، وعرض
السور الداخلى أثناء عشر ذراعا وأرتفاعه أثنان وسبعون ذراعا ، وعرض السور الخارجى
ثمانية أذرع ، وأرتفاعه أثنان وأربعون ذراعا . وفيما بين السورين نهر يسمى (قسطنطينيانوس)
مغطى ببلاط من نحاس يشتمل على اثنين وأربعين ألف بلاطة طول كل بلاطة ستة وأربعون ذراعا
وعمق النهر أثنان وأربعون ذراعا . ولها نحو مائة باب أكبرها باب الذهب وهو باب فى =

لآسيا الصغرى — وكذلك أساطيل ثيم البحر الايجى ، والمعروف أن أهالى هذا
الشم كانوا من أشد مناصرى عبادة الصور المقدسة لذلك فقد رحبوا ببذل
المساعدة لحامى هذه العبادة ونصيرها. ويذكر المؤرخ البيزنطى جنيزيوس ،
أن أساطيل جميع الولايات قد انضمت اليه فيما عدا الاسطول الامبراطورى (١).
الذى كان مركزه الدائم عند القسطنطينية . كما تمكن توماس من بناء سفن
حربية جديدة وسفن للنقل ، ثم أمر بأن تجتمع كل هذه الاساطيل عند جزيرة
لسبوس (٢) . انتظارا لأوامر جديدة (٣) .

شمالها ، طوله أحد وعشرون ذراعا وهو مصعب بالحديد ، وبه أعمدة من ذهب . وبها قصر فى
غاية الكبر والعلو وطريقه الذى يتوصل اليه منه يعرف بالبدندون ، وهو من عجائب الدنيا
يمشى فيه بين سطرين من صور مفرغة من النحاس البديع الصناعة على صور الادميين وأنواع
الخليل والسباع وغير ذلك . وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات وقال فى «تقسيم
البلدان» : وحكى لى بعض من سافر اليها أن داخلها مروج وبساتين ، وبها خراب كثير ،
وأكثر عمارتها فى الجانب الشرقى الشمالى ، وكنيستها مستطيلة ، وإلى جانب الكنيسة عمود
عال دوره أكثر من ثلاثة باعات ، وعلى رأسه فارس وفرس من نحاس ، وفى إحدى يديه
حربة كبيرة ، وقد فتح أصابع يده الأخرى وهو مشير بها : قيل أن ذلك صورة (قسطنطين)
بأنى المدينة . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٧٧ - ٣٧٨ . وانظر ما جاء
فى وصفها فى المصادر التالية ابن حوقل ، صورة الارض ، القسم الأول الطبعة الثانية ،
ليدن ١٩٣٩ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن الوردي ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ،
ص ٨٠ .

(1) Genesius, op. cit., Liber 11, p. 37; Theophanes Continuatus, p. 55.
Mysia

(٢) تقع جزيرة لسبوس فى الطرف الشمالى الشرقى للبحر الايجى فى مواجهة شواطئ ميسيا
فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، وتعتبر لسبوس أكبر جزيرة فى البحر الايجى ، وأهم
محاصيلها العنب الذى يستخدم فى صناعة النبيذ ، وكذلك القمح ، انظر عن ذلك :

La grande Encyclopedia : vol 22, p. 82; Encyclopedia Britannica; vol
13, p. 962

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 55;

كيد رينوس ، نفس المصدر ، الجزء الثانى ، ص ٧٩ . باليونانية .

بعد ذلك تقدم توماس نحو العاصمة ، متناسيا أنه يترك وراءه في آسيا الصغرى أتباعا مخلصين للامبراطور ميخائيل ، وهم كتاكيلاس وأوليبيانوس ونجح توماس في احتلال مضيق الهللسبونت (الدردنيل)، واخضع ابيدوس (١) وعسكر بالقرب منها «بجيش لا حصر لعدده» على حد قول جنيزيوس (٢). وقد أسند توماس مهمة الدفاع عن آسيا الصغرى ومؤخرة جيشه إلى أبنه المتنبى قسطنطين ، الذى لم يقدر المسؤولية الملقاة على عاتقه حق قدرها، فتوهم أنه لن يلتقى أية متاعب ، وترك رجاله في حالة من الفوضى وعدم النظام وكانت هذه هي الفرصة المناسبة لأوليبيانوس الذى أعد كميناً لقسطنطين ورجاله ونجح في اقتناصهم ، وسقط قسطنطين قتيلاً ، وأرسلت رأسه إلى الامبراطور البيزنطى الذى أرسلها بدوره إلى توماس (٣). الذى سرعان ما تبنى ابنا آخرأ كان راهبا سابقا يدعى أنستاسيوس « Anastasius » ، وصفه جنيزيوس بأنه سكير ذو منظر بشع وعقل مختل (٤) ، كما أسند قيادة الجيش إلى أحد

(١) ترجع أهمية أبيدوس إلى موقعها الجغرافى الممتاز على مضيق الهللسبونت ، وترقب على ذلك أن أصبحت ميناء لجمع الرسوم الجمركية على الواردات التى تدخل الاراضى البيزنطية . انظر : رانسيان : الحضرة البيزنطية ، ص ٢٠٣ .

(2) Genesius, op. cit., p. 37.

(٤) Genesius, op. cit., p. 37; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 56.

(4) Gencsius, op. cit., p. 39; Zonaras, op. cit.,

Tomus III, Liber XV, p. 342.

القادة المعادين للامبراطور ميخائيل الثاني ، ويدعى جريجوريوس بروتوس
« Giegorius Pterotus » (١) .

أدرك الامبراطور ميخائيل الثاني أن توماس يستعد لعبور المضائق إلى
تراقيا فوجه نداء إلى سكان تراقيا يطلب اليهم أن يظلوا على ولائهم له ، وأن يحبطوا
مؤامرات هذا الثائر . ولكن عندما وصل اليهم توماس بجيشه سرعان ما
انضموا إليه وخذلوا الامبراطور ، وفي ذلك الوقت أمر توماس أسطول
الرابض أمام جزيرة لسبوس بالانتقال إلى العاصمة محاصرتها ، فنفذ الاسطول
هذا الأمر وذلك في ٦ ديسمبر ٨٢١ م في نفس الوقت الذي أحاط فيه توماس
بجيشه من جميع جهاتها. وهكذا أصبحت القسطنطينية محاصرة برا وبحرا (٢).
وقد ظن أن سكانها سيفزعون حين يرون جيوشه الجرارة تحاصرهم برا ،
وقطع أسطول العديدة تملأ مياه العاصمة ، وأنهم لن يلبثوا أن يستسلموا له .
ولكن حدث عكس ما توقع ، فقد ووجه بمقاومة عنيفة ، إذ أن الامبراطور
ميخائيل كان قد استعد استعدادا كبيرا لملاقاة هذا الثائر ، بأن استقدم من
آسيا الصغرى — بمساعدة كتيلا وأولييانوس — قوات كبيرة على درجة
عالية من الكفاءة ، اضطلعت بعبء الدفاع عن العاصمة ، فأضطر توماس

(١) كان بروتوس ابن أنخت الامبراطور ليو الارمني ، وظل على الوفاء لحاله بعد قيام ميخائيل
العموري بتنفيذ مؤامرة ضده انتهت بقتله ، وقد دعا ذلك الامبراطور ميخائيل لنفى بروتوس
إلى جزيرة سكيرو Skyro إحدى جزر السيكلاديز ، انظر عن ذلك .

Theophanes Continuatus, Liber II, p. 57.

(2) Genesis, op. cit., pp. 38—39.

إلى التراجع بقواته البرية ، أما أسطول له ، فقد تعرض لعاصفة شديدة عرقلت نشاطه وأقصته عن مكانه أمام العاصمة ، وهكذا وجد توماس نفسه مضطرا للتقهقر بجيشه وأسطوله ، وعسكر في تراقيا وتجاه سواحل آسيا الصغرى منتظرا أنتهاء فصل الشتاء (١) .

وفي ربيع عام ٨٢٢ م استؤنفت العمليات الحربية مرة أخرى وأعاد توماس حصار القسطنطينية برا وبحرا ، وكان الامبراطور ميخائيل الثاني قد استغل فرصة رفع الحصار في شتاء ٨٢١ م وزاد في تحصين المدينة ، كما عزز الحاميات المدافعة عنها وبذلك أصبح في حالة تمكنه من الدفاع عن عاصمته بل والقيام بهجوم ضد الأعداء . ورغم ذلك فضل الوصول إلى حل سلمي معهم ، فأعتلى السور بنفسه ووجه نداء اليهم بترك التمرد والعصيان ووعد ببذل الأمان لهم والعفو عنهم (٢) . لكن المتمردين توهّموا أن الامبراطور أقدم على ذلك لخرج مركزه ، وشعوره بالعجز عن ملاقاتهم ، فتقدموا في فوضى واستهتار لمهاجمة الأسوار ، واشدّة دهشتهم فوجئوا بمقاومة عنيفة ، وفتحت كثير من بوابات المدينة واندفع منها الجند الامبراطوري وأعملوا فيهم القتل ، فأنتابهم الفرع وتشتتوا سريعا دون أن يجدوا الوقت الكافي للتصرف . وفي نفس الوقت منى أسطول توماس بهزيمة مروعة إذ ما كاد يلتقي بالأسطول الامبراطوري حتى جنح في فوضى نحو الشاطئ ورفض بحارته بدء القتال دون سبب واضح ، وانضم جزء منهم إلى الأسطول الامبراطوري أما بقية البحارة فقد سارعوا بالانضمام إلى معسكر توماس (٣) .

(1) Genesius. op. cit., pp. 39—40 ; Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 59—60.

(2) Theophanes Continuatus, p. 61.

(3) Genesius, op. cit., p. 40.

وبعد هذه الهزائم التي تتابعت على توماس برا وبحرا ، جمع شتات جيشه واستمر في محاصرة القسطنطينية ، وقد وجد أنه من الأهمية بمكان أن يحصل على أسطول جديد يعوض خسائره البحرية ، فأرسل إلى بلاد اليونان وجزر البحر الايجي برسائل ينبئهم فيها بانتصارات مزعومة ، ثم طلب منهم أن يمدوه بأساطيلهم . فأرسلوا إليه بأسطول ضخم قدره صاحب صلة ثيوفان بثلاثمائة وخمسين قطعة من السفن الحربية وسفن النقل (١) .

وبعد وصول هذا الأسطول قام توماس بهجوم برى وبحرى عنيف على العاصمة ونشبت معركة بحرية بين الأسطول الامبراطورى وأسطول توماس فى خليج بيريدن Byriden عند الشاطئ الشمالى (لبروبونتيز) (٢). بالقرب من تراقيا أحرز فيها الأسطول الامبراطورى النصر ، والتهمت النيران سفنا كثيرة من أسطول توماس ، كما أستولى الاسطول المنتصر على العديد منها ، أما القسم الضئيل الذى تبقى فقد جنح إلى الشاطئ والتحق بحارته بجيش توماس (٣) . والواقع أن هذه المعركة البحرية كانت ضربة مروعة أصيب بها

(1) «Constaba illa cum bello aptis biremikus tum onerarus trecentis quinginta navibus».

وترجمتها بالعربية «اشتمل على ٣٥٠ من كلا من السفن الحربية المجهزة بقاذفات الهمب وسفن النقل» انظر :

Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(٢) يعرف البروبونتيز فى الوقت الحالى باسم بحر مرمرة ، وهو بحر داخل صغير يقع بين قسارقي أوروبا وآسيا ، ويربط البحر الأسود بالبحر المتوسط عن طريق مضيق البسفور والدردين ، انظر :

La grand Encyclopedia : vol 23, p. 205.

(3) Genesius, op. cit., Liber 11. p. 41 ; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

توماس ، وأن كانت في الحقيقة قد أضرت ضررا بالغاً بالقسوة البحرية
للإمبراطورية البيزنطية بصفة عامة ، وبعد هذه الكارثة استمر توماس في
عملياته العسكرية حتى نهاية عام ٨٢٢ م واقتصرت هذه العمليات على المصادمات
السريعة التي حدثت بين الطرفين المتنازعين وتبادل فيها الاثنان النصر والهزيمة
وحرص الإمبراطور ميخائيل الثاني على عدم الدخول في معركة حاسمة لأن
القوة العددية كانت لاتزال في جانب المتمردين (١) .

وفي ذلك الوقت وقع حادث كان له أثر كبير في التعجيل بإنهاء هذه
الحرب الأهلية ، وكان هذا الحادث هو تدخل البلغار في تلك الحرب لصالح
الإمبراطور البيزنطي ، وقد اختلفت المصادر البيزنطية بشأن هذا التدخل
البلغاري ، فقد ذكر المؤرخ المعاصر موناخوس أن الإمبراطور ميخائيل الثاني
هو الذي أتيجه إلى البلغار طالبا مساعدتهم (٢) . بينما ذكر المؤرخون المتأخرون
نسيا كصاحب ثيوفان ، وجينزيوس أن الملك البلغاري الذي يدعى مورتاجون
Mortagon هو الذي عرض المساعدة على الإمبراطور البيزنطي الذي اعتذر
عن قبولها لأنه لا يرغب في أن يراق الدم المسيحي بسيف الوثنيين ، كما
أوضح لمورتاجون أن وجود الجيش البلغاري في تراقيا سيكون انتهاكا لهذنة
الثلاثين عاما (٣) .

(1) Theophanes Continuatus, p. 64.

(2) Monachus, Vitae Recentiorum imperatorum, p. 788.

(3) Theophanes Continuatus; Liber 11, p. 64; Genesius, op. cit., pp. 41-42

وقد أبرمت هذه المعاهدة في عام ٨١٤ م بين الإمبراطور أيو الارمني (٨١٣ - ٨٢٠ م) وبين
ملك البلغار مورتاجون ، وحددت مدة سريانها بثلاثين عاما قابلة للتجديد وبشأن هذه
المعاهدة انظر :

Zonaras : Epitomae Historiarum, tomus III, Liber XV, pp. 344-345.

والأرجح هو ما ذكره موناخوس من أن الامبراطور ميخائيل هو الذى طلب مساعدة البلغار ، وحجتنا فى ذلك أن موناخوس قد عاصر هذه الأحداث بنفسه ، وكان شاهد عيان لها ، والباحث فى التاريخ البيزنطى يجد مواقف مشابهة تعرض لها أباطرة الدولة البيزنطية والتجأوا أثناءها إلى طلب المساعدة الخارجية من حلفائهم الأجانب (١) .

ويرجع المؤرخ الروسى الأصل فازيليف Vasilliev ما رده كل من صاحب صلة ثيوفان وجنيزيوس إلى أنه صدى لتفاخرهما القومى ، إذ كانا يعتقدان أن من العار أن يطلب الامبراطور البيزنطى المعونة من أعجمى ، أو أن يكون تدخله سببا فى نصر حاسم جنته الجيوش البيزنطية (٢) . أما المؤرخ الانجليزى بيورى Bury فقد أكد أن الامبراطور ميخائيل الثانى لم يعقد معاهدة تحالف بينه وبين البلغار ضد توماس ، وأن كان أوضح لمورتاجون أثناء المحادثات السرية التى جرت بينهما ، أن هجومه على توماس وجيشه لن

(١) لعل أقرب مثال لذلك ما حدث أثناء ثورة بارداس سكليروس Bardas Sclerus التى استغرقت الفترة الزمنية الواقعة بين سنوات ٩٧٦ - ٩٨٩ م فى عهد الامبراطور باسيل الثانى المقدونى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) فحين أصبح مركز باسيل الثانى حرجا بعد الانتصارات التى أحرزها سكليروس ، لجأ الامبراطور البيزنطى إلى الروس طالبا مساعدتهم العسكرية ، وبعد أن عقد زواجا سياسيا بين شقيقته الأميرة Anna وأمير كييف المدعو فلاديمير Vladimir أمدته هذا الأمير الروسى بستة آلاف مقاتل من الروس ، استطاع باسيل الثانى بمساعدتهم الانتصار على خصمه والقضاء على هذه الثورة . وبشأن تفاصيل ثورة سكليروس ومساعدة السروس للامبراطور باسيل الثانى أنظر :

Zonaras, Epitome Historiarum, Liber XVIII, pp. 539—557.; Psellos, Chronographia, tome I, pp. 14—20.

راجع كذلك :

Schlumberger : L'epopée Byzantine vol I pp. 338—400; Ostrogorsky : History of Byzantine State p. 269 C.M H vol IV pp. 83—88.

(٢) فازيليف : العرب والروم ، ص ٤٥ حاشية رقم (١).

يعتبر انتهاكا لهدنة الثلاثين عاما (١). وهكذا يمكن القول بأن تدخل البلغار في هذه الحرب الأهلية البيزنطية إنما تم بإيعاز من الامبراطور ميخائيل حتى يتسنى له القضاء على خصمه توماس الذي سبب له متاعب لا حصر لها .

تقدم مورتاجون بجيشه للهجوم على توماس الذي كان يربط بقواته أمام العاصمة وحين علم توماس بأقتراب البلغار . رفع الحصار وتوجه للقائهم ، وعند سهل كيدوكتس — شرقي هرقلية — التقى الطرفان في معركة عنيفة ، أنزل فيها البلغار بتوماس هزيمة ساحقة وقضوا على عدد كبير من جيشه ، كما أصابوا غنائم هائلة ثم انسحبوا قانعين بما حققوه من نصر ، وما استولوا عليه من غنائم (٢) . ورغم سرعة هذه العملية العسكرية التي قام بها البلغار إلا أنها كانت ذات أثر كبير في أرهاق المتسربين والخط من روحهم المعنوية ، وبعد هذه الهزيمة جمع توماس شتات جيشه وعسكر بهم عند سهل ديابازيز على بعد ٢٠ ميلا غرب القسطنطينية — وقد حالفه التوفيق في اختياره لهذا المكان الذي أمتاز بوفرة الأعشاب اللازمة للخيول ، كما مكن توماس من الحصول على المؤن اللازمة للجيش بسهولة من القرى المجاورة (٣) .

وقد رأى الامبراطور ميخائيل ضرورة وضع حد لهذه الحرب الأهلية ، فخرج من العاصمة مصحوبا بقوات كبيرة ، كما صحبه أيضا قائديه كتيلا والبيانوس ، وتوجه الجميع لمهاجمة توماس . وكان هذا التأثير لايزال مفعما بالأمل في النصر ، كما كان مفعما بالثقة في جيشه فوضع خطة للإيقاع بالجيش

(1) Bury : A History of the Eastern Roman Empire pp. 100—101.

(2) Genesius p. 42; Zonaras op. cit. tomus III Liber XV, p. 345.

(3) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 66;

انظر كذت ، كيدر ينوس : ، ص ٨٧ ، باليونانية .

الامبراطورى قامت على أساس تظاهر أتباعه بالهروب حتى يتشتت شمل الجيش الامبراطورى أثناء مطاردتهم وفى تلك الحال يقع فريسة سهلة لقوات توماس (١) لكن هذا التأثير لم يدرك الروح التى تفشت فى جيشه ، فقد ثببت عزائمهم وضعفت روحهم المعنوية نتيجة للهزائم التى لاقوها ، وخاصة أمام البلغار ، كما أخذ يراودهم الحنين لحياة الاستقرار العائلى ، بعد ما قاسوه من متاعب أثناء هذه الحرب ، التى بدت لهم بلا طائل . ويضيف صاحب صلة ثيوفان إلى ذلك قوله أنهم بدأوا يشعرون بالاشمئزاز من اراقة الدم المسيحى دون أن يحرز المسيحيون من وراء ذلك أى كسب (٢) . يضاف لذلك تدمير حزب عبادة الصور المقدسة الذى كون جزءا كبيرا من جيش توماس ، حين رأوا تحالفه مع المسلمين ، ووجود أعداد كبيرة منهم بينهم ، فأخذ يراودهم الشك فيما أدعاه توماس من أنه نصير وحامى هذه العبادة .

وهكذا ، فحين بدأت المعركة (٣) بينهم وبين قوات الامبراطور ، وصدرت اليهم أوامر توماس بالهروب الزائف ، تطور الأمر بأن أصبح هروبهم حقيقيا . ذلك أن تقدير توماس قد خاب ، فلم يتبعثر الجيش الامبراطورى ويطاردهم فى فوضى واضطراب ، وإنما تبعهم فى نظام وحذر ، وعندما رأوا ذلك ، أخذوا يلقون سلاحهم ويفرون ، أو يسلموا أنفسهم للامبراطور (٤) .

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp 66—67.

(2) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 67.

(٣) لم تحدد المصادر تاريخ هذه المعركة ، وأن كان المرجح أنها حدثت خلال النصف الأول من شهر مايو ٨٢٣ م وذلك إستنادا إلى أن توماس بعد هزيمته التجأ إلى مدينة اركاديوبوليس وظل محاصرا بها لمدة خمسة شهور . وتم تسليمه إلى الامبراطور ميخائيل الثانى فى منتصف أكتوبر ٨٢٣ .

(4) Theophanes Continuatus; p. 67; Zonaras, op. cit., pp. 346

وقد كانت معركة ديابازيز هي الحد الفاصل في هذه الحرب الأهلية ، وانسحب توماس على أثرها مصحوبا بقليل من أتباعه ، وآوى إلى مدينة اركاديوبوليس Arcadiopolis في إقليم تراقيا وتحصن بها ، فتبعه الامبراطور وحاصر المدينة لمدة خمسة شهور ، ذاق فيها الأهالي الأمرين من قلة المؤن حتى أكلوا الخيول الميتة وجلود الحيوانات ، وأخيرا قامت فتنة في المدينة وسلم الأهالي توماس إلى الامبراطور حوالى منتصف شهر أكتوبر ٨٢٢م فأمر بتعذيبه ثم قتله (١) .

وهكذا فشلت هذه الثورة ، فلم تحقق لمن انحاز اليها من الناس أغراضهم ولم تتحسن أحوالهم الاقتصادية ، كما أنها لم تحقق مطالب جماعة عبادة الصور المقدسة وقد كان لهذه الحرب الأهلية نتائج أخطر من ذلك ، إذ أدت إلى تخريب معظم أقاليم الامبراطورية البيزنطية ، وعلى الأخص إقليم تراقيا الذى كان مسرحا للمعارك الحربية التى دارت بين الفريقين المتنازعين ، وكذلك آسيا الصغرى ، كما شمل الخراب أيضا بلاد اليونان والجزر اليونانية التى حرمت من حامياتها التى خرجت لمساعدة توماس وسارت معه بحرا إلى القسطنطينية . وذلك على حد تعبير صاحب صلة ثيوفان (٢) .

ومن أخطر نتائج هذه الثورة كذلك ، تلك التى تتعلق بالناحية البحرية ، إذ فقدت الامبراطورية البيزنطية معظم أساطيل الولايات ، عندما انضمت هذه الاساطيل إلى توماس واشتبكت مع الأسطول الامبراطورى أكثر من مرة وانتهى الأمر بتدمير الجانب الأعظم من أسطول توماس الذى هو في واقع الأمر أسطول الولايات البحرية البيزنطية . وقد أحسن المؤرخ أرشيبالد

(1) Monachus : op. cit., p. 788; Genesius, op. cit., pp. 43—45; Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 70;

(2) Theophanes Continuatus : Liber 11, p. 74.

لويس في بيان أثر هذه الثورة على البحرية البيزنطية حين ذكر «ويمكن القول من وجهة النظر البحرية ، أن بيزنطة خرجت عرجاء تماما من هذه المأساة ، فقد تشتت شمل أساطيل الولايات وأتت عليها الحرب الأهلية ، حين اشتدت الحاجة اليها لمؤازرة أسطول القسطنطينية ، في الوقت الذي كانت فيه أساطيل سورية وشمال أفريقية وسائر أساطيل الأعداء الآخرين تجمع قوتها» (١) .

وإن كنا قد تحدثنا عن ثورة توماس في شيء من التفصيل مع بيان النتائج التي ترتبت عليها ، فإن ذلك يرتبط بشكل ولو غير مباشر بموضوع استيلاء المسلمين على الجزيرة الكريتية في ظل هذه الظروف المواتية التي تمت فيها عملية الفتح . فعندما نزل الفاتحون المسلمون بكريت لم تكن امكانيات الجزيرة الحربية تسمح لها بمقاومتهم كما لم تكن بيزنطة نفسها في حالة تسمح لها بالدفاع عن هذه الجزيرة نتيجة للظروف العصيبة التي عانت منها ، ويمكن القول أن الفتح الاسلامي لكريت كان أحد النتائج الخطيرة التي ترتبت على ثورة توماس .

وحين اطمأن المسلمون إلى عدم وجود مقاومة من جانب سكان الجزيرة أخذوا في غزو باقي أجزاءها . ولم يرد في المصادر العربية أو البيزنطية تفاصيل هذا الغزو . وقد ذكر كل من فازيلييف وبيورى أن المسلمين استولوا في وقت قصير على ٢٩ مدينة لم تحفظ أسماءها (٢) وأخذ أبو حفص ومن معه يواصلون تقدمهم وفتوحاتهم في الجزيرة حتى لم يبق فيها من الروم أحد ، وأخرب حصونهم (٣) . والراجح أن المسلمين أتموا فتح الجزيرة كلها في

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ١٦٩ .

(٢) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٥٨ ، راجع كذلك :

Bury, A. History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٤٥ .

عام ٢٣٠ هـ (١) (١٨ سبتمبر ٨٤٤ - ٦ سبتمبر ٨٤٥ م) .

ووجد الفاتحون المسلمون ضرورة التماس الأمان في الانتماء إلى الخلافة العباسية التي كانت تسيطر على الشرق الأدنى كله ، فدانوا لها بالولاء السياسى واعتنقوا المذهب السنى ، على أنهم كانوا يتمتعون باستقلال داخلى ، ولم يكن للخليفة العباسى الحق فى تعيين الولاة على الجزيرة وإنما كان الحكم فيها وراثيا (٢) . وكانت كريت فى التقسيم الإدارى للدولة العباسية تتبع إقليم مصر (٣) .

وبعد الفتح الإسلامى لكريت بدأت هذه الجزيرة تأخذ دورها فى الصراع مع الدولة البيزنطية ، هذا الدور الذى كان فى واقع الأمر مظهرا من مظاهر الكفاح العنيف الذى اشتعل بين المسلمين والبيزنطيين على امتداد الجزء الأكبر من العصور الوسطى . وهكذا لحقت كريت بالركب الإسلامى المجاهد ، وقامت بدورها فى الجهاد ضد العدو البيزنطى وذلك على النحو الذى سنعرضه فى

الفصول التالية

- (١) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٢٧ .
- (2) Genesius, Basileiai, p. 47.
- النعمان : المجالس والمسائرات لوحة ٤١٦ (مخطوط معصور) .
- (٣) النعمان : المجالس والمسائرات ج ٢ ، لوحة ٤١٦ .
- والجدير بالذكر أن الأستاذ الدكتور نبيه عاقل يذكر فى كتابه «الامبراطورية البيزنطية أن كريت بعد الفتح الإسلامى لها أصبحت تدين بالولاء السياسى للدولة الأموية فى الأندلس ، ويقول فى هذا الشأن : «أنه بالرغم من أن الخلافة الإسلامية التى ساعدت توماس فى ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من ج'نبها ضد بيزنطة ، وذلك بسبب مشاكلها الداخلية الدامية فأن حملات عربية جاءت من الأندلس وتمكنت من أن تستخلص كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادة الدولة العربية الأندلسية» لكن الثابت من الأندلسيين فاتحى كريت لم يأتوا من الأندلس إلى كريت مباشرة ، بل أنهم قضوا عدة سنوات بمدينة الاسكندرية بالقطر المصرى مشاركين فى أحداثها السياسية ثم خرجوا منها إلى كريت على النحو الذى تم توضيحه فى هذا الفصل من البحث . والثابت كذلك أنهم كانوا يدينون بسيادة الدولة العباسية وليس للدولة الأموية التى أشدت العداء بينهم وبينها انظر ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦٩ ص ١٩٣ . راجع كذلك الملحق رقم (٢) من هذا البحث .

الفصل الثاني

الاسرة العمورية ومحاولات استعادة كريت

(٨٢٠ - ٨٦٧ م)

— الحملات البيزنطية على كريت في عهد الامبراطور ميخائيل الثاني وأسباب فشلها .

— العوامل التي ادت الى انصراف الامبراطور ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت .

— الصراع بين كريت وبيزنطة في عهد الامبراطور ميخائيل الثالث .

.....

عرضنا في الفصل السابق للفتح الاسلامي لكريت مع الاهتمام بتحليل العوامل السياسية الخاصة بالجانب البيزنطي ، التي مهدت لهذا الفتح وساعدت على نجاحه . وكان من الطبيعي ان يقوم الصراع بين الفاتحين المسلمين والدولة البيزنطية صاحبة السيادة السابقة على هذه الجزيرة . وقد شهد عصر الامبراطور ميخائيل الثاني العموري (٨٢٠ - ٨٢٩ م) بداية هذا الصراع العنيف الذي دام لفترة طويلة من الزمن . فلاشك ان هذا الامبراطور قد ادرك مدى الخطر الذي سيلحق بالممتلكات البيزنطية نتيجة لاستيلاء المسلمين على جزيرة كريت . فان موقعها الاستراتيجي الهام كان مما يتيح لهم التحكم في مداخل البحر الايجي ، كما يهيئ لهم السيطرة على جزر وسواحل هذا البحر وتهديد سواحل آسيا الصغرى وبلاد اليونان هذا الى جانب الخسارة الاقتصادية التي تتعرض لها الدولة البيزنطية بفقدانها مثل هذه الجزيرة الغنية بمواردها الطبيعية ، فضلا عن تهديد المسلمين بكريت

لتجارة بيزنطة مع عالم البحر المتوسط. يضاف لذلك ان كريت كانت فيما مضى من الممتلكات البيزنطية ، ومن ثمة فان تفكير الامبراطور ميخائيل الثاني في استردادها يعتبر امرا طبيعيا ، خاصة وان احوال بيزنطة الداخلية والخارجية آنذاك كانت تسمح بالقيام بمحاولات في هذا المجال . ففي الداخل ثم اخماد الفتن الدينية، وتوقف اضطهاد عباد الصور المقدسة . كذلك نجح ميخائيل الثاني في توطيد سلطته بالقضاء على الاضطرابات الداخلية التي هددت عرشه ، والتي تمثلت في الحركة السياسية الاجتماعية الدينية المعروفة بثورة توماس الصقلي . اما في الخارج فقد كان السلام هو الطابع المميز لعلاقات بيزنطة بجيرانها على الحدود المختلفة، فارتبطت مع مملكة بلغاريا بهدنة الثلاثين عاما ، التي عقدت في عام ٨١٤ م ، والتي كانت لاتزال سارية المفعول حتى ذلك الوقت ، وبناء عليها فقد سادت العلاقات الودية بينهما وبين مورتاجون ملك البلغار ، وكان من مظاهر هذا الود تعاونه مع الامبراطور ميخائيل الثاني ضد الثائر البيزنطي توماس (١) أما الروس في الشمال، فحتى عام ٨٦٠ م لم يسببوا متاعب تذكر للامبراطورية البيزنطية (٢) كما سيطر الهدوء ايضا على الجبهة الشرقية للامبراطورية ، رغم عدم وجود معاهدات سلام بينها وبين العباسيين ، وذلك نظرا لانشغال الخليفة العباسي المأمون بقمع الفتن والثورات التي قامت في دولته ، والتي كان من

(١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ص ٨٦ وما بعدها .

(2) Bury, History of Eastern Roman Empire, p. 419; Ostrogorsky, History of Byzantine State, p. 202.

أبرزها فتنة بابل الحرمي (١) ، في أذربيجان وأرمينية .

وهكذا كانت الظروف مهيأة لميخائيل الثاني للقيام بأكثر من محاولة ، بقصد استرداد كريت من يد فاتحيها المسلمين . وقام هذا الامبراطور بثلاث محاولات تمثلت في ثلاث حملات أرسلها على كريت . وللأسف ، فإن المادة التاريخية التي أوردتها المصادر البيزنطية عن هذه الحملات الثلاث ضئيلة للغاية لاتزيد عن الاشارات السريعة العابرة ، والمرجح ان السبب في ذلك يرجع إلى ان تاريخ الاسرة العمورية قد دونه المؤرخون في عهد الاسرة المقدونية التي قامت على انقاضها وحرصت على طمس معالم هذه الحقبة من التاريخ البيزنطي لأسباب سياسية . وكانت أولى هذه المحاولات ، تلك الحملة البحرية التي اسندت قيادتها إلى القائد البيزنطي فوتيناس Photinas حاكم ثيم الاناضول ، وهو ممن ينتمون إلى اعرق الاسرات البيزنطية، وقد اشار إلى هذه الحملة عدد من المؤرخين البيزنطيين المتأخرين نسبيا ، مثل صاحب صلة ثيوفان ، وكيدرنيوس ، وزوناراس .

(١) بابل الحرمي هو زعيم طائفة الخرمية في أذربيجان ، واسم الخرمية مشتق من كلمة «خرم» ، التي يفسرها ابن خلدون بمعنى «فرح» وهذه الطائفة ذات مبادئ دينية تدعو إلى الاخلاص والتمتع بمسرات الحياة إلى أقصى درجة حتى قيل أنهم لا يعرفون ديناً غير الله . وكانوا يعتقدون في مذاهب المجوس ، وكان لهذه الطائفة أهدافا سياسية معينة ، وكانت بداية فتنة بابل في عام ٢٠١ هـ (٨١٦ - ٨١٧ م) في عهد الخليفة العباسي المأمون ، واستمرت حتى عهد الخليفة المعتصم ، الذي تم له اخادها في عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) على يد قائده القدير الأفشين ، وقبض على بابل وم تشهيره على فيل في مدينة سامراء العاصمة العباسية في ذلك الوقت ، ثم أمر الخليفة المعتصم بقتله وأرسلت رأسه إلى أذربيجان ، أما جسده فقد صلب في سامراء .
انظر : تفاصيل هذه الفتنة في المصدرين التاليين ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣١٧ - ٣٣٢ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٥٤ ، ٢٥٦ .

ولم يحدد هؤلاء المؤرخون تاريخ وصول هذه الحملة الى كريت ، وتبعاً لذلك فقد اختلف المؤرخون المحدثون حول هذا الامر ، فذكر المؤرخ الروسى الاصل فازيلييف ان تاريخها لايجاوز كثيراً عام ٨٢٨ م / ٢١٢ - ٢١٣ هـ (١) على حين رجح المؤرخ الانجليزى بيورى أنها حدثت فى عام ٨٢٥ م / ٢١٠ هـ ، او عام ٨٢٦ م / ٢١٠ - ٢١١ هـ (٢) . وطبيعى ان ترجيح بيورى لا يصح الاخذ به ، بعدما اصبح من المسلم به ان الفتح الاسلامى لكريت تم فى يونيه عام ٨٢٧ م / ربيع الاول ٢١٢ هـ (٣) .

والواقع ان المؤرخين البيزنطيين لم يغفلوا تحديد تاريخ هذه الحملة فقط ، بل اغفلوا كذلك كل مايتعلق باستعداداتها ، سواء عدد سفنها او نوع هذه السفن او عدد البحارة والجنود المشتركين فيها ، وغير هذا وذاك من التفاصيل الخاصة بها . ولكن يبدو انها كانت حملة صغيرة ذات استعدادات محدودة ، والدليل على ذلك انه بعد وصول فوتيناس باسطوله بالقرب من كريت ، ادرك ان مالىديه من قوات لن يتيح له سهولة غزوها ، نظراً لما تتمتع به من حماية طبيعية ، وما اضافها لها المسلمون من تحصينات منيعة . وقد اوضح ذلك كله فى تقرير رفعه الى الامبراطور ميخائيل الثانى ، ولم توضح المصادر تفاصيل هذا التقرير ، او تاريخ ارساله الى الامبراطور ، وانما اکتفت بالاشارة الى انه تضمن طلب فوتيناس امداده بقوات اضافية جديدة . وقد سارع الامبراطور بارسال تعزيزات اليه ، وكانت هذه التعزيزات بقيادة البروسباطير داميان ، المشرف على الاصطبلات الامبراطورية Damianum Suiequibis Conitenac وبعد وصول هذه الامدادات

(١) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

(2) Bury : History of the Eastern Roman Empire, p. 289.

(٣) انظر الفصل الاول من هذا البحث ، ص ٦٦ .

تقابل الطرفان البيزنطى والكريتى فى معركة لم تمدنا المصادر بتفاصيلها ،
انتهت بانتصار الفاتحين المسلمين انتصار حاسما ، وقتل داميان ، اما فوتيناس
فقد استطاع بمشقة ، الفرار الى جزيرة ديا Dia — الى الشمال
من مدينة الخندق — ومن هناك عاد الى القسطنطينية حاملا نبأ اول هزيمة
اوقعها مسلمو كريت بالقوات البيزنطية ، فى اول محاولة لاسترداد كريت
بعد فتح المسلمين لها بوقت قصير (١) .

على ان الامبراطورية البيزنطية لم تلبث ان تلقت هزيمة جديدة اشد واعنف
من سابقتها ، وذلك حين ارسل الامبراطور ميخائيل حملته الثانية على كريت
وكانت هذه المرة بقيادة القائد كراتيروس Duce Cratero Cibyraeotaru
praelecto حاكم ثيم كبير هايوت على الساحل الجنوبى لاسيا
الصغرى — الذى يعد من اكبر الثيمات البحرية البيزنطية ، ولم ترد فى
المصادر البيزنطية اية اشارة لتحديد تاريخ هذه الحملة كذلك (٢) ، وقد
دفع ذلك بعض المؤرخين المحدثين الى اغفال ذكر تاريخها رغم تعرضهم لها
واذكر منهم على سبيل المثال المؤرخ فنلاى Finlay (٣) ، اما
فازيلييف (٤) فقد اوضح ان هذه الحملة حدثت بعد الحملة الاولى بقليل اى
خلال عام ٨٢٨ م . وكانت تتألف من سبعين سفينة حربية جمعت من
موانى آسيا الصغرى التى اشتهرت بشجاعة بحارتها وجودة تدريباتهم . وانطلق

(1) Theophanes Continuatus, Liber 11, pp. 67—77; Zonaras, Liber XV, p. 399.

كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، ص ٩٣ — ٩٤ ، باليونانية .

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80; Zonaras, p. 350.

(3) Finally, History of Greece, vol 11, pp. 136—137.

(٤) فازيلييف : العرب والروم ، ص ٦٠ .

كراتيروس بهذا الاسطول في اتجاه كريت وتمكن من النزول على ارض الجزيرة ، ولم تحدد المصادر مكان نزول الحملة تحديدا دقيقا ، وقد اشتبك الطرفان المتصارعان في معركة استمرت من شروق الشمس حتى غروبها . وتجمع المصادر البيزنطية على ان النصر فيها كان حليف البيزنطيين الذين استولوا على كثير من الاسلحة ، ووقع كثير من المسلمين اسرى في قبضتهم . وعندما هبط الظلام انسحب المسلمون الى داخل الجزيرة ، ولم يتعقبهم البيزنطيون ظنا منهم انهم انزلوا بهم هزيمة منكرة لن يقووا بعدها على منازلتهم . ويلقى المؤرخ البيزنطي جينيزيوس مسئولية هذا التصرف على عاتق كراتيروس ، ويصفه بالجبن والتكاسل ، ويوضح انه امر رجاله بعدم مطاردة المسلمين وتأجيل ذلك حتى صباح اليوم التالي (١) . وقضى البيزنطيون ليلتهم في الاحتفال بهذا الانتصار ، ولم يعبأوا بتحسين معسكرهم ، بل تبعثروا وتباعدوا ، واسرفوا في تناول الخمر ، ثم راحوا في نوم عميق بفعل الشراب والاجهاد الذي لقيوه طوال اليوم . وعند منتصف الليل تقريبا عاد المسلمون بعد ان لموا شملهم ونظموا صفوفهم الى المعسكر البيزنطي ووقع كل من فيه فريسة سهلة لسيوفهم ، ويقال انهم ابادوا رجال الحملة عن اخرهم . اما القائد كراتيروس فقد تمكن من الفرار على ظهر سفينة تجارية الى جزيرة كوس (٢) Cos ، وحين تنبه المسلمون لذلك سارعوا باللاحاق به وادركوا هسناك واعادوه الى كريت حيث تم اعدامه شنقا (٣) .

(1) Genesius, p. 49.

(٢) هي احدى جزر البحر الايجي ، وتقع بالقرب من الساحل الجنوبي الغربي لآسيا الصغرى ، انظر عن ذلك

Encyclopdia Britannica; vol 6, p. 482.

(2) Symeon Magistri, pp. 621—623; Genesius, pp. 48—49; Theophanes Continuatus, pp. 79—80, Zonaras, p. 350.

كيدرسيوس ، موجز التاريخ ، ص ص ٩٥ - ٩٦ . باليونانية .

ورغم هذه الهزائم الشديدة المتلاحقة التي منيت بها القوات البيزنطية ،
 الا ان ذلك لم يثن من عزم الامبراطور ميخائيل الثاني عن استرداد كريت ،
 فندم حملة ثالثة ، عهد بقيادتها الى قائد يدعى اوريفاس Oryphas
 والمعلومات التاريخية التي وصلتنا عن هذه الحملة وقائدها ، اقل مما امدتنا
 به المصادر البيزنطية عن الحملتين السابقتين . ولما كان المؤرخون البيزنطيون
 لم يحددوا تاريخها ، فقد افترض فازيلييف (١) وقوعها في فترة ما خلال
 عامي ٨٢٨ ، ٨٢٩ م (٢١٣ - ٢١٤ هـ) ، بينما افترض بيوري (٢) انها
 حدثت في وقت ما خلال اعوام ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ م . (٢١٢ - ٢١٤ هـ)
 ولا نستطيع ان نجزم برأي قاطع بشأن تاريخ هذه الحملة ، اذ ليس هناك
 ادنى دليل نستند اليه في ذلك ، وان كنا نميل الى الاخذ بافتراض فازيلييف لانه
 اقرب الى تسلسل الاحداث التاريخية . وقد اجزل الامبراطور ميخائيل
 العطاء للمشاركين في الحملة كوسيلة لرفع معنوياتهم التي لا بد وان تكون
 قد تأثرت نتيجة لما اصاب الحملتين السابقتين من فشل ذريع ، فتذكر
 المصادر البيزنطية انه امر بصرف اربعين قطعة ذهبية لكل فرد اشترك في
 هذه الحملة (٣) . وبعد وصول هذه القوات امام كريت ، وقع جزء من
 الاسطول في كمين اعداه المسلمون اما الجزء الباقي فقد اشترك معهم في معركة
 بحرية دمر خلالها (٤) .

(١) فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٦١ .

(2) Bury, op. cit., p. 290.

(٣) ونص العبارة باللغة اللاتينية هو :

«in Singulos quadraginta aureos distribuit»

وقرjemتها بالعربية «وزع أربعون قطعة ذهبية على الفرد الواحد» انظر عن ذلك :

Symeon Magistri, p. 624

وقد أشار الى ذلك أيضا كيدر ينوس في كتابه موجز التاريخ ، ص ٩٧ ، باليونانية .

(4) Symeon Magistri, pp. 623—624 Genesius, p. 50; Theophanes Continuatus, p. 81,

كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، ص ٩٧ . باليونانية .

وهكذا فشلت محاولات الامبراطور ميخائيل الثانى العمورى لاسترداد كريت ، ومن اهم النتائج التى ترتبت على فشل هذه الحملات الثلاث ، تأكيد سيطرة المسلمين على كريت ، ومواصلة فتوحاتهم بها ، ثم غزوهم للسواحل والجزر البيزنطية المجاورة . ولاشك ان الهزائم المتتالية التى لقيتها القوات البيزنطية على يد الفاتحين المسلمين تدعو للتساؤل عن العوامل والاسباب الحقيقية التى ادت الى اخفاق هذه الحملات ، رغم ان الفتح الاسلامى للجزيرة كان لايزال فى مرحلته المبكرة ، ولم يكن المسلمون قد ثبتوا اقدامهم بعد فى هذه الجزيرة ، فكيف استطاعوا ان يحرزوا مثل هذه الانتصارات على البيزنطيين وان يلحقوا بحملاتهم الهزيمة تلو الاخرى ؟

ان الباحث المدقق لا يخفى عليه ان من اهم العوامل التى ساعدت على احراز فاتحي كريت المسلمين هذه الانتصارات على الدولة البيزنطية ، هى الروح الحماسية للجهاد (١) فى سبيل الله ، ذلك ان الدين الاسلامى قد فرض الجهاد على المسلمين فقال الله تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى ان تكرهوا شيئا وهو خير لكم ، وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم ، والله يعلم وانتم لا تعلمون » (٢) وقد ثبتت فرضية الجهاد بالسنة عن ابي هريره رضى الله عنه قال : « سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول والذي نفسى بيده ، لولا ان رجالا من المؤمنين لا تطيب انفسهم ان يتخلفوا عني ، ولا اجد ما احملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغدوا فى سبيل الله ، والذي نفسى بيده لو ددت ان اقتل فى سبيل الله ، ثم احيا ، ثم اقتل ، ثم

(١) الجهاد كما فسرهُ أئمة الدين الاسلامى ، أصله لغة المشقة ، يقال جهدت جهادا ، أى بلغت المشقة ، وشرعا بذل الجهد فى قتال الكفار ، ومجاهدة الكفار تقع باليد والمال واللسان والقلب . انظر ، الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ج ٦ ، ص ٢ .

(٢) سورة البقرة ، الآية ٢١٦ .

احيا ، ثم اقتل ، ثم احيا ثم اقتل «(١) ويزخر القرآن الكريم بالآيات التي تحث المسلمين على الجهاد ، وعلى سبيل المثال قوله تعالى : «انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا باموالكم وانفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون» (٢) وهناك آيات عديدة تبين للمجاهدين ما اعده الله لهم من الثواب في الآخرة . مثل قوله تعالى : «يا أيها الذين آمنوا هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله باموالكم وانفسكم ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم» (٣)

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «ان في الجنة مائة درجة اعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ، ما بين الدرجتين ، كما بين السماء والارض ، فاذا سألت الله فاسألوا الفردوس ، فانه اوسط الجنة ، واعلى الجنة اراه وفوقه عرش الرحمن ، ومنه تفجر انهار الجنة .»(٤)

هذا ، وقد بين القرآن الكريم ان من يقتل اثناء جهاده في سبيل الله يعتبر شهيدا ، يغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ويدخله الجنة خالدا فيها في نعيم مقيم ، قال تعالى «ولاتحسبن الذين قتلوا في سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله ، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ، ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (٥) .

(١) الشافعي : فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج ١ ، ص ١٢ - ١٣ .

(٢) سورة التوبة ، آية ٤١ .

(٣) سورة الصف ، الآيات ١٠ - ١٢ .

(٤) عن أبي هريرة ، أنظر ، الشافعي ، فتح الباري ، ج ٦ ص ٩ - ١٠ .

(٥) سورة آل عمران ، الآيات ١٦٩ - ١٧٠ .

ومن الاحاديث النبوية الشريفة في هذا الصدد ، قوله صلى الله عليه وسلم :
«الشهداء على بارق : نهر بباب الجنة ، في قبة خضراء ، يخرج عليهم رزقهم
من الجنة بكرة وعشيا» . (١) وقال ايضا «ما احد يدخل الجنة يحب ان يرجع
الى الدنيا وله ما على الارض من شئ ، الا الشهيد ، يتمنى ان يرجع الى الدنيا
فيقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة» (٢) .

لهذا كله ، فقد اصبح الجهاد في سبيل الله ، عقيدة لها اثرها الفعال في
نفوس المسلمين ، دفعتهم الى قتال اعدائهم من الكفار لاعلاء كلمة الله ،
ومن الوثائق التاريخية الهامة التي توضح مدى تمكن روح الجهاد من نفوس
المسلمين ، تلك الفقرة التي وردت في كتاب حاكم بيزنطى في القرن السابع
الميلادى ، ارسل اليه الامبراطور هرقل يوبخه لعجزه عن صد المسلمين ،
فرد عليه الحاكم المسيحي قائلا : «انهم اقل منا عددا ، ولكن عربيا
واحدا يعادل مائة من رجالنا ، ذلك انهم لا يطمعون في شئ من لذات الدنيا
ويكتفون بالكساء البسيط والغذاء البسيط ، هذا في الوقت الذي يرغبون في
الاستشهاد لانه افضل طريق يوصلهم الى الجنة ، في حين نتعلق نحن بأهداب
الحياه ، ونخشى الموت ، ياسيدى الامبراطور » (٣) لذلك فان بعض
المؤرخين يؤكدون ان الحماسة الدينية وحدها هي التي أدت الى نجاح
المسلمين في حركتهم التوسعية (٤) .

وهكذا يصبح من الممكن القول ان الجهاد في سبيل الله هو احد العوامل
الرئيسية التي ادت الى الانتصارات التي احرزها مسلمو كريت على الدولة

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، القسم الثانى الطبعة الثانية ،
ج ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) عن أنس بن مالك ، أنظر السيرة النبوية ، ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ١٥ ، الطبعة الرابعة ، ١٩٦٦ ، ص ٩*١٤٦ .

(4) Pirenne, A History of Europe, p. 47.

البيزنطية خلال هذه المرحلة المبكرة من فتحهم للجزيرة ، خاصة اذا علمنا ان روح الجهاد قد تمكنت من نفوسهم الى درجة كبيرة . مما دفع الرحالة المعاصر ابن حوقل الى القول أنهم في غاية الجهاد (١) .

وهناك ايضا الرغبة الاكيدة لهؤلاء الفاتحين في المحافظة على هذا الكسب الحديدي والاستماته في الدفاع عنه . هذا الى جانب عوامل اخرى ، منها ان الفتح الاسلامي لكريت تم في الوقت الذي خرجت فيه الامبراطورية البيزنطية من حرب اهلية انهكتها وعادت عليها بأسوأ النتائج سواء من الناحية العسكرية او من الناحية الاقتصادية (٢) ، وكانت لاتزال تخطوا الخطوات الاولى في سبيل اعادة بناء قوتها البحرية ولم تكن قطعت شوطا كبيرا في هذا المضمار ، حين تعرضت كريت للفتح الاسلامي ، ورغم ذلك فقد اضطر الامبراطور ميخائيل الثاني للقيام بمحاولات هذه حرصا على استرداد كريت قبل ان يوطد المسلمون نفوذهم بها . يضاف لذلك كله أنه ، في الوقت الذي تم فيه الفتح لاسلامى لكريت في يونيه ٨٢٧م / ربيع الاول ٢١٢ هـ ، تعرضت جزيرة صقلية للغزو من جانب مسلمي شمال افريقية ، وبذلك فتحت جبهة ثانية للقتال امام الامبراطور ميخائيل الثاني تحتم عليه مواجهتها وكان لها اثرها الواضح في تشتيت جهوده العسكرية وعدم تركيزها على كريت وحدها . ولذلك يجدر بنا الاشارة السريعة الى الفتح الاسلامي لصقلية ، مع بيان خطورته على الامبراطورية البيزنطية ، وماترتب عليه من نتائج ساعدت على نجاح الفتح الاسلامي لكريت ، واخفاق المحاولات التي قام بها البيزنطيون في سبيل استردادها .

(١) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الثاني ، ص ٢٠٤ .

(٢) انظر الفصل الأول من البحث ص ٧٤-٩١ .

في يونيه عام ٨٢٧ م (ربيع الاول ٢١٢هـ) ارسل امير شمال افريقيه
 زيادة الله ابن الاغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ / ٨١٧ - ٨٣٨ هـ) حملة بقيادة
 اسد بن الفرات (١) لغزو صقلية . وقد نزلت الحملة بمدينة مازر - الى
 الجنوب على الساحل الغربى لجزيرة صقلية - فاستولى المسلمون عليها (٢) .
 ثم اتخذ الجيش الاسلامى طريقته الى مدينة سرقوسة - على الساحل الشرقى
 لجزيرة صقلية - وافتتح المسلمون حولها مواقع عديدة، ثم حاصروها برا
 وبحرا . وفى تلك الاثناء وصلت للمسلمين الامدادات العسكرية من افريقيه
 والاندلس وكريت ، فى الوقت الذى ارسل فيه الامبراطور ميخائيل الثانى
 اسطولا كبيرا الى صقلية ، كما اقنع دوق البندقية المستقل جستنيانوس
 Justinianus ان يرسل الى صقلية اسطولا للتعاون مع القوات
 البيزنطية فى انقاذ سرقوسة . وبعد ان اجتمع الاسطول البيزنطى بأسطول
 البندقية ، نشبت المعركة بين الاسطولين المتحالفين والقوات الاسلامية تحت
 اسوار سرقوسة ، حقق فيها المسلمون انتصارا كبيرا وواصلوا حصارهم
 للمدينة (٣) . ولكن المعسكر الاسلامى المربط امام سرقوسة تعرض لوباء

(١) هو ابو عبد الله أسد بن الفرات بن سنان ، أصله من نيسابور بخراسان ، وولد بمدينة حران سنة ١٤٢ هـ (بدأت فى ٤ مايو ٧٥٩ م) ويستطرد المؤرخ المالكى فى ترجمته لحياة أسد بن الفرات قائلا : «ثم ولاء زيادة الله ابن ابراهيم ابن الأغلب قضاء افريقية سنة ثلاث ومائتين (٨١٨ - ٨١٩ م) فأقام قاضيا عليها يقضى بين أهلها بالكتاب والسنة حتى خرج لغزو صقلية فجاهد بها الروم وقتلهم قتالا عظيما ، وكانت له آثار مشهورة ومقامات مذكورة وافتتح منها مواضع كثيرة ، ثم توفى رحمه الله تعالى من جراحات اصابته وهو محاصر لموضع» . انظر المالكى : رياض النفوس ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) المالكى : رياض النفوس ، ص ١٨٨ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٧ ، راجع كذلك فازيلييف : العرب والروم ، ص ٧٨ .

الطاعون الذي تفشى بين الجنود بشكل خطير ، وادى الى وفاة اعداد كبيرة منهم ، كان من بينهم اسد بن الفرات نفسه وذلك فى ١٣ رجب ٢١٣ هـ / أكتوبر ٨٢٨ م . فاختر الجنود خليفة له محمد بن ابى الجوارى ، وفى ذلك الوقت جاءت امدادات جديدة من القسطنطينية والبندقية لانقاذ سرقوسه ، فخرج موقف المسلمين وارادوا رفع الحصار ، فأصلحوا سفنهم وتجهأوا للخروج ، ولكنهم ادركوا استحالة ذلك لوجود اسطول البيزنطيين والبنادقة امام مخرج ميناء سرقوسه ، فاشعل المسلمون النيران فى سفنهم حتى لا تقع فى ايدى الاعداء ، وتوغلوا فى داخل البلاد ، واتجهوا نحو الشمال الغربى لصقلية ، وحاصروا ميناو ، وبعد ثلاثة ايام استسلمت لهم ، ثم ملكوا مدينة جرجنت (كير كنت) (١) .

وقد رفعت هذه الانتصارات من معنويات المسلمين ، وخفت حدة الوباء ، ثم ساروا الى مدينة قصر يانه (٢) .

(١) تعتبر مدينة جرجنت من المدن العريقة بصقلية ، وامتازت بحسن التنسيق وإزدهارها الحركة التجارية بها ، وما جاء فى وصف الادريسي لها قوله : « وجرجنت مدينة متحضرة من أشرف الحواضر ، عامرة بالوارد والصادر ، وقلعتها حصينة سامية وبيدتها زاهية قديمة العمران ، مشهورة فى جميع البلدان ، بل هى من أعظم الحصون منعة ، وأجل البلاد رقعة ، يسعى اليها من سائر الآفاق ، وتجتمع بها السفن والرفاق ، ديارها سامية فى الدبار ، ومخلاتها تفسن الأنظار ، وبها أسواق جامعة لأصناف الصنائع ، وضروب المتاجر والمبايع ، وبها حدائق وجنات رايقة ، وأصناف كثيرة من الثمرات أزلية أدلية ، تدل آثارها على سلطنة عليّة ، ويحمل على كل ما وصل اليها من عظام السفن وما يتجاوز أوساقها فى الأيام القلائل ... وبها جنات وفلات مشهورات ، وهى على ثلاث أميال من البحر . » انظر : الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٢١ - ٣٢ .

(٢) ذكرها الادريسي بأسم قصر يانى ، ووصفها بقوله : « هى مدينة جلييلة فى أعلى جبل ذات حصن حصين ومقل متين ، قطرها واسع وفناؤها شاسع ، ولها أسواق حميلة الترتيب ، وديار متقنة التركيب ، وصنائع وبضائع ، وصناع ومتاجر وأمتاع . ولها عمل واسع المجال وأقاليم واسعة الحال ، مزارعها زعيرة ، وغلاتها مرضية ، وهواها بارد ، ومرافقها تشقى الصادر والوارد ، وبالجملة أنها أمتع بلاد الله مكانا ، وأوثقها بئيانا ، ولها مع حصانتها فى جبلها مزارع ومياه جارية . » انظر : الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ٤٢ - ٤٣ .

وإثناء حصار المسلمين لقصريانه ، ارسل الامبراطور ميخائيل الثاني حملة كبيرة على صقلية ، لوقف الزحف الاسلامي بها ، والعمل على اجلاء المسلمين عما افتتحوه من بلاد . وكانت هذه الحملة بقيادة احد القادة الممتازين في الامبراطورية البيزنطية ويدعى تيودوت Theodotus ، وقد نازل هذا القائد المسلمين تحت اسوار قصريناه ولكنه هزم ، وقتل المسلمون اعدادا كبيرة من جيشه ، كما اسروا اعدادا اخرى ، كان من بينهم تسعون بطريقا اما تيودوت فقد لحا بمن تبقى معه الى داخل قصريناه . واستمر المسلمون محاصرين للمدينة ووقع بينهم وبين البيزنطيين عدة اشتباكات تبادل فيها الطرفان النصر والهزيمة . وعلى اثر احدى الهزائم التي الحقها تيودوت بالمسلمين ، انسحبوا الى ميناو ، فتبعهم اليها وحاصروهم بها . وحين علمت الحامية الموجودة بمدينة جرجنت بما حدث لآخوانهم المحاصرين بميناو ، قامت بتخريب جرجنت وسارعت بالخروج منها لاغايتهم ، ولما ادركت استحالة ذلك ، انسحبت الى مدينة مازر . وفي عام ٢١٤ هـ وصلت الى المسلمين بصقلية امدادات كثيرة من افريقية والاندلس ، بلغت ثلاثمائة سفينة محملة بالرجال ، فتقووا بها واضطر تيودوت الى الانسحاب من امام ميناو (١) . وفي ذلك الوقت من خريف عام ٨٢٩ م ، توفي الامبراطور ميخائيل الثاني (اكتوبر ٨٢٩ / شعبان ٢١٤ هـ) (٣) ، وبوفاته وضعت

-
- (١) ابن خلدون : أخبار دولة بني الاغلب ، ص ٤٣ - ٤٤ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٥ ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ، راجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٨٣ - ٨٤ .
- (٢) والجدير بالذكر أن الصراع استمر قائما أمدا طويلا ، بين خلفاء هذا الامبراطور والمسلمين في صقلية ، وقد أخذ المسلمون يواصلون فتوحاتهم بها حتى أجلوا البيزنطيين عنها . انظر : ابن خلدون : أخبار دولة بني الاغلب ، ص ٤٥ وما بعدها ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ، ص ١٨٨ وما بعدها . راجع أيضا ، بيورى : تاريخ الامبراطورية الرومانية الشرقية ، ص ٣٠٤ وما بعدها ، فنلاي : تاريخ اليونان ، ج ٢ ، ص ١٣٨ وما بعدها .

الحاتمة لحياة هذا الامبراطور الذى شاهد عصره انهيار سيطرة بيزنطة فى البحر المتوسط ، والبحر الادريانى نتيجة للغزو الاسلامى لجزيرتى كريت وصقلية ، وان كان هو لم يدخر جهدا فى سبيل استخلاصهما من قبضة المسلمين .

على ان السياسة النشطة التى انتهجها ميخائيل الثانى والخاصة بمحاولاته المستمرة لاسترداد كريت ، لم تلبث ان اصبحت بنكسة فى عصر خليفته ثيوفيل (١) (٨٢٩ - ٨٤٢) ، اذا لم يرد فى المصادر المعاصرة او المتأخرة أية اشارة لأية حملة ارسلها ضد كريت ، هذا رغم الغارات العنيفة التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية ، وبخاصة فى الايام الاولى من عصر هذا الامبراطور . فبمجرد ان تولى ثيوفيل العرش فى اكتوبر ٨٢٩ م (شعبان ٢١٤ هـ) خرجت من كريت حملة بحرية قدر المؤرخ البيزنطى موناخوس عدد سفنها بخمسين سفينة حربية ، حيث هاجمت شواطئ أيونيا Ionia ، وكاريا Caira - على الساحل الجنوبي الغربى لاسيا الصغرى كما هاجمت اديرة الرهبان فى جبل اتوس

(١) امتاز الامبراطور ثيوفيل بسعة الأفق وشدة اهتمامه بالعلوم والفنون البيزنطية والاسلامية على السواء ، كما كان من أهد المناهضين لعبادة الصور المقدسة ، وقد شهد عصره الموجه الأخيرة للحركة اللايقونية . ومن الأمور المشهورة عن هذا الامبراطور حرصه على نشر العدل فى أرجاء الامبراطورية ، فأخذ فى تقليد الخليفة العباسى هارون الرشيد فيما اشتهر به من العدالة ، فيقال انه كان يطوف بأنحاء عاصمته القسطنطينية ليلا ، ويتحدث إلى الفقراء والمساكين ويستمع إلى شكواهم ، وينزل أشد العقاب بمن أوقع بهم الظلم من الموظفين مهما ارتقت مكانتهم ومن الخصائص المميزة لعصره ، حروبه مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية البيزنطية انظر عن ذلك :

Bury, op. cit., pp. 121—122; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, pp. 183—184.

راجع كذلك ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ .

Atus (١) ، وقد ترتب على هذه الهجمات ان هجر الرهبان صوامعهم وفروا طالبين السلامة لأنفسهم (٢) . وفي نفس عام ٨٢٩ م / ٢١٤ هـ ، ابحر اسطول من كريت ، وهاجم سواحل تراقيا ، واستولى المسلمون منها على غنائم وفيرة ، وعلى العديد من الاسرى . وفي طريق عودتهم فاجأهم حاكم ولاية تراقيا ويدعى قسطنطين كونتوميتس Constantinus Contomytes ، واشتبك معهم في معركة بحرية ، لم تحدد المصادر مكانها على وجه الدقة ، وكما يذكر صاحب صلة ثيوفان ، فان الاسطول الكريتي دمر تماما وايبس من فيه من المسلمين (٣) . ولكن البيزنطيين لم يهنأوا بهذا الانتصار طويلا ، اذ بعد وقت قصير من المعركة ، واثناء احدى غارات الكريتيين على جزر السيكلاديز (٤) ، تقابل الاسطول الكريتي في طريق العودة ، مع اسطول بيزنطي عند جزيرة تاسوس Thasos — احدى

(١) يقع جبل آتوس في شبه جزيرة خلقيديه ، ويبلغ ارتفاعه نحو ستة آلاف وثلاثمائة قدم . وكان المسيحيون يعتبرونه أثرا دهنيا وبنوافيه الكثير من الكنائس والأديرة ، ومن أشهرها دير لور Laure ، الذي أسسه القديس اثناسيوس في الترن العاشر الميلادي . انظر : الخانجي : منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان ، ج ٩ ، ص ١٨ راجع أيضا : Ostrogorsky, op. cit., p. 253.

(2) Monachus, op. cit., pp. 791—792; Theophanes Continuatus, p. 137.

(3) Theophanes Continuatus, P 137.

(٤) تقع جزر السيكلاديز في الطرف الجنوبي الغربي للبحر الايجي ، وهي تشمل الجزر التالية : لنوس Lemous ، سكيروس Scyrus ، ميلوس Melus ، امولجوس Amolgus ، ثيرا Thera . ثيراسيا Therasia ، رينيا Rhenea ، ديلوس Delus ، ناكوس Naxos . انظر .

Constantin Porphyrogenetus, De Thematibus, Liber 1, p. 43.

جزر البحر الايجى - وواقع المسلمون بالاسطول البيزنطى هزيمة مروعة وانزلوا به التدمير (١).

ورغم هذه الغارات التى قام بها مسلمو كريت على الممتلكات البيزنطية الا ان الامبراطور ثيوفيل لم يبذل أية محاولة عسكرية بقصد استرداد كريت وامتدادا لسياسة والده ميخائيل الثانى فى هذا الشأن والباحث فى هذا الموضوع يدرك ان السبب فى ذلك يرجع الى انشغاله بالحروب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للامبراطورية ، تلك الحروب التى استحوذت على جانب كبير من اهتمامه ونشاطه العسكرى طوال عهده . لذلك فمن الضرورى الاشارة الى هذه الحروب لبيان الاسباب التى أدت الى انصراف ثيوفيل عن محاولة استرداد كريت ، واستكمالا للنظرة الموضوعية الشاملة لمسرح الاحداث وقتذاك .

لقد استغل الامبراطور ثيوفيل الظروف العصيبة التى كانت تمر بها الدولة العباسية وقتذاك والخاصة بفتنة بابك ، ومحاولات الاستقلال من جانب ولاية مصر ، واشعل الحرب معها محاولا كسب فتوحات بيزنطية فى المشرق الاسلامى . لكن هذه الحروب تطورت بشكل ادى الى تفوق العباسيين واحرازهم العديد من الانتصارات التى كللت بفتح مدينة عمورية . وقد بدأ الامبراطور ثيوفيل حربه مع العباسيين فى ربيع عام ٨٣٠ م / ٢١٥ هـ ، فتمزق على مدينة زبطرة (٢) ، واستولى عليها ، وانزل بها الخراب والدمار ، وقتل اعدادا كبيرة من سكانها . وما كاد الخليفة المأمون

(1) Theophanes Continuatus, p. 137.

(٢) تقع مدينة زبطرة فى إقليم أعالي الجزيرة ، بين مدينتى ملطية وسميساط ، أنظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٧ ، ص ٣٧٤ .

يعلم نبأ هذه الغارة حتى صمم على الثأر ، فخرج من بغداد يوم السبت ٢٧ المحرم ٢١٥ هـ (٢٦ مارس ٨٣٠ م) ، ووصل الى مدينة الموصل - في اعلى الجزيرة - ثم نزل الى شمال الشام ومر بمدن منبج ودابق وانطاكية ، التي رحل منها الى المصيصة ثم الى طرسوس ، وخرج منها في ١٥ جمادى اولى ٢١٥ هـ (يوليه ٨٣٠ م) غازيا في الممتلكات البيزنطية في قبادوقيا ، ففتح حصون بها مثل حصنى ماجده وقرة ، ونجح بعض قادته في فتح حصنى سندس وسنان ، ثم عاد الخليفة الى بلاده بعد ان انتقم لما انزله الامبراطور ثيوفيل من تخريب بمدينة زبطره (١) .

وفي العام التالى (٢١٦ هـ / ٨٣١ م) قام الامبراطور ثيوفيل بغارة على مدينتى المصيصة وطرسوس ، وقتل من اهليهما الفا وستمائة نفس ، فخرج المأمون في ١٩ جمادى الاول ٢١٦ هـ (٢ يوليه ٨٣١ م) للرد على هذا الهجوم وحين وصل الى مدينة أدنه - في اقليم قيليقية - جاءته رسل ثيوفيل تعرض عليه ان تعقد بينهما الهدنة لمدة خمس سنوات مقابل ان يدفع له الامبراطور مائة الف دينار (٢) ، وان يطلق سراح الاسرى المسلمين الموجودون بالبلاد البيزنطية على ان يرد اليه الخليفة المأمون ما أفتتحه من المدن والحصون البيزنطية (٣) .

-
- (١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٠ .
(٢) الدينار عملة ذهبية استخدمها المسلمون ، وهو يساوى عشرون قيراطا من الذهب . وكان ببغداد نوعين من الدنانير ، أحدهما يسمى «العوال» ويساوى اثنا عشر درهما ، والآخر يدعى «المرسل» ، ويساوى عشرة دراهم ، وكان الأخير أكثر شيوعا واستخداما في بغداد ، واستعمله الأهالى في أغلب مبيعاتهم ومعاملات تجارهم . انظر ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٤ ، ص ٤٢٢ .
(٣) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

لكن الخليفة المأمون رفض قبول هذا العرض ، وتقدم الى مدينة هرقله (١) ،
التي استسلمت له دون قتال ، ووجه اخاه ابا اسحاق (٢) ، فافتتح ثلاثين
حصنا بيزنطيا لم تذكر المصادر اسماءها ، كما استطاع احد قادته ويدعى
يحيى بن اكثم ان يغير على مواقع عديدة للبيزنطيين «فأغار وقتل وحرق
واصاب سبيا ورجع الى العسكر» (٣) . وبعد ذلك رحل الخليفة المأمون
بجيشه الى دمشق ، ومنها الى مصر ليقضى على فتنة نشبت بها ، وظل
بمصر من فبراير الى ابريل ٨٣٢ م ، ثم عاد لاستئناف القتال مع البيزنطيين
وكان هدفه هذه المرة قلعة لؤلؤه التي تشرف على درب قيليقية وتتحكم
فيه ، ونزل عليها محاصرا ، واستمر محاصرها لمدة مائة يوم دون جدوى .
فرحل عنها وترك امامها قائده عجيف وامره بالاستمرار فى الحصار حتى
تسقط المدينة ، ولكن الاهالى احتالوا على هذا القائد حتى اسروه ، فى الوقت
الذى خرج فيه الامبراطور ثيوفيل فاحدق بالجيش الاسلامى المرابط امام
القلعة ، ولما علم الخليفة بذلك ارسل قواته لمنازلة الامبراطور ، الذى فضل
ان يرحل قبل وصول هذه القوات ، وحين علم اهالى لؤلؤه برحيل
الامبراطور اطلقوا سرا ح عجييفا وسلموا له القلعة (٤) .

عزم الخليفة المأمون على فتح مدينة عمورية ، والمعروف ان هذه المدينة
تقع فى وسط آسيا الصغرى ، وكان الاستيلاء عليها يعتبر خطوة فى سبيل

(١) تقع مدينة هرقله فى إقليم قيليقية ، ووصفها القلقشندي بقوله : «وهى فى شرق نهر ينزل من
جبل العلایا إلى نحو سنوب ، وهرقله عليه فى غرب البحر ، وفى شرقها جبل الكهف» انظر
القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٠ .

(٢) هو الذى تولى الخلافة بعد المأمون وعرف بأسم المعتصم بالله ابو اسحق محمد بن الرشيد ، انظر
السيوطي : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

الوصول الى القسطنطينية ذاتها (١) . كما انها تعتبر من امنع وأحصن البلاد البيزنطية ، ويذكر المؤرخ الطبرى ان عمورية «هى عين النصرانية وهى اشرف عندهم من القسطنطينية» (٢) يضاف لذلك ان هذه المدينة هى مسقط رأس الاسرة العمورية الحاكمة التى ينتمى اليها الامبراطور ثيوفيل ، وكان استيلاء المسلمين عليها يعد ضربة قاصمة تذل الامبراطور وتقضى على هيئته وقد اخذ المأمون فى الاستعداد لحملة على عمورية ، وحين علم ثيوفيل بذلك بعث اليه برسالة عاود فيها طلب الهدنة الذى سبق ان تقدم بها فى عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م) (٣) . لكن رد الخليفة المأمون (٤) عليه كان مليئا بالوعيد والتهديد واشترط لقبول الهدنة ، اعتناق الامبراطور وشعبه للدين الاسلامى الحنيف او دفع الجزية السنوية للخليفة العباسى ، شأنه فى ذلك شأن اهل الذمة من المسيحيين واليهود الموجودين بالبلاد الخاضعة لسلطة الخليفة المسلم . وفى حالة قبول الامبراطور لهذا الشرط يكون ذلك بطبيعة الحال اعتراف ضمى منه بالمأمون كسيد اعلى له .

ويبدو ان الامبراطور ثيوفيل رفض شروط الخليفة المأمون ، الذى واصل استعداداته العسكرية الخاصة بحملته على عمورية ، وخرج على رأس جيوشه فى عام ٢١٨ هـ (٨٣٣ م) متخذاً طريقه فى آسيا الصغرى ، وحين وصل الى موضع يسمى البدندون بين لؤلؤه وطرسوس ، حلت به حمى

(١) Bury, op. cit., p. 262.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ .

(٣) انظر نص خطاب الامبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون فى المصدر التالى .

الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ .

(٤) انظر نص رسالة الامبراطور ثيوفيل إلى الخليفة المأمون ، ورد المأمون عليها فى الملحق رقم ١

شديدة أدت الى وفاته في ١٣ رجب ٢١٨ هـ (٧ اغسطس ٨٣٣ م) (١) .
وهكذا لم يمتد الاجل بالخليفة المأمون ليتم هذا المشروع الذي بدأه ، فتوفي
تاركا لخليفته المعتصم (رجب ٢١٨ هـ - ربيع الاول ٢٢٧ هـ / اغسطس
٨٣٣-يناير ٨٤٢ م) (٢) مهمة تحقيق هذا النصر الخاص بفتح مدينة عمورية.

وترجع اسباب هذا الفتح الى ان بابك الحرى حين شعر بالتضييق عليه من
جانب الافشين قائد الخليفة المعتصم ، ووجد انه اضعف من ان يقف في
وجهه « كتب الى ملك الروم ثيوفيل بن ميخائيل بن جورجس يعلمه ان ملك
العرب قد وجه عساكره ومقاتليه اليه ، حتى وجه خياطه يعى جعفر بن دينار
وطباخه يعنى ايتاخ ، ولم يبق احد على بابه ، فان اردت الخروج اليه ، فاعلم
انه ليس في وجهك احد يمنعك» (٣) وكن بابك يرمى من وراء ذلك بطبيعة
الحال ، ان يفتح الامبراطور ثيوفيل جبهة قتال ثانية امام العباسيين ، يكون لها
اثرها في تشتيت جهودهم العسكرية ، وبالتالي تخف وطأة قتالهم له . وقد
استجاب له الامبراطور ، وقام في عام ٢٢٣ هـ (ديسمبر ٨٣٧ - نوفمبر
٨٣٨ م) بهجوم كبير على مدينة زبطره فخر بها وأسر كثيرا من اهلها ، ثم
نزل على ملطية ، فأغار عليها وعلى بعض الحصون الاسلامية المجاورة لها ،
وقد مثل الامبراطور بمن وقع في يده من الاسرى ، فأمر بسمل عيونهم وقطع
أذانهم وانوفهم (٤)

(١) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٦ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٩٣ .

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ، ص ١٣٣ .

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ .

(٤) تقع مدينة ملطية في إقليم الجزيرة إلى الشمال من مدينة حلب في شمال الشام ، وهي تمتاز بموقعها
الاستراتيجى الهام عند أحد الممرات المؤدية من أراضي الدولة البيزنطية إلى إقليم الجزيرة ، =

وحين وصلت أنباء هذه الغارة الى الخليفة المعتصم ، وان امرأة هاشمية صاحت وهي في ايدي البيزنطيين «وامعتصماه» ، استعظم ذلك وصمم على الثأر ، وبعد أن انتهى من القضاء على بابك الخرمي في عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨ م) اخذ يستعد لتنفيذ مشروع الخليفة المأمون ، الخاص بفتح مدينة عمورية . وفي يوم الخميس ٦ جمادى الاول ٢٢٣ هـ (اول ابريل ٨٣٨ م) ، غادر المعتصم عاصمته سامراء على رأس جيش كبير ، قدره المؤرخ المسعودي مابين المائتي والخمسمائة الف (١) ، وتشير المصادر البيزنطية التي عرضت لهذه الحملة (٢) الى ان المعتصم امر ان يكتب على الالوية والتروس اسم عمورية التي اتخذ الجيش طريقه اليها ، وتوقف هذا الجيش على نهر اللامس (٣) وقرر المعتصم ان يغزو البلاد البيزنطية من عدة جهات ، فأرسل جزءا من الجيش على رأسه القائد الافشين نحو مدينة سروج ، وامره ان يدخل من ناحيتها الى الاراضي البيزنطية عن طريق درب الحدث . كما ارسل جزءاً آخر من الجيش بقيادة القائد اشناس وكان عليه ان يدخل الى مدينة الصفصاف عن طريق درب طرسوس وحدد الخليفة للقائدين يوما معيناً يجمعان فيه مع

= وجاء في وصفها أنها «بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار وهي مسورة ، ولها قني تدخلها وتجري في دورها ، إلا أنها شديدة البرد» . انظر ، ابن حوقل ، صورة الأرض ، ج ١ ، ص ٢٠٨ ، القلقشندي صبيح الأعشى ، ج ٤ ، ص ١٣١ .

(١) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٤ ، المسعودي ، التنبيه والاشراف ، ص ١٦٩ ، ابو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج ٢ ، ص ٢٧٦ .

(٣) يقع نهر اللامس في سلوقيه وبينه وبين طرسوس مسيرة يوم واحد ، انظر ، الطبري : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ .

بأقى الجيش امام مدينة انقره (١) ، التى سار اليها الخليفة مع باقى قواته (٢) ولما وصلت انباء هذه الحملة الى الامبراطور ثيوفيل ، خرج من القسطنطينية على رأس جيشه لمنازلة المسلمين . وتوقف عند دور يليوم Dorylaion (٣) وهناك وصلته الانباء عن ضخامة الجيش الاسلاني وعظم استعداداته ، وقد دفع ذلك فريقا من القادة البيزنطيين الى نصحه باخلاء عمورية من سكانها صونا للدم المسيحى ، ولكن الامبراطور رفض الاستماع لهذه النصيحة ، وفضل ان يزيد من تحصينات عمورية ، وان يعهد بالدفاع عنها الى قائد قدير يدعى ايتيوس Aetius وهو المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم ياطس (٤) وكان يشغل وقتذاك منصب حاكم ثم الاناضول . كما ارسل الامبراطور الى عموريه تعزيزات ضخمة بقيادة تيودور كراتيروس Theodore Krateros ، وقسطنطين بايوتريكوس Constant'in Baiotrikos (٥) اما الامبراطور ثيوفيل فقد عسكر وراء نهر الهليس منتظرا مرور الخليفه المعتصم بجيشه لينقض عليهم ، وظل معسكرا فى هذا الموضع ما يقرب من الشهر ، وحين بلغه ان جيش الافشين دخل الى الاراضى البيزنطية من

(١) تقع مدينة انقره فى وسط آسيا الصغرى ، ويذكر القلقشندي أنها «بلدة لها قلعة على تل عال وهى بين الجبال ، وليس بها بساتين ولا ماء ، يشرب أهلها من الآبار» . انظر ، القلقشندي صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٣٥٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٥ ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٦ .

(٣) دوريليوم هى احدى المدن بأسيا الصغرى ، وتقع الى الغرب من مدينة عمورية وبينهما مسيرة ثلاثة أيام ، انظر ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٣٢ .

(٤) اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٢ ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٩ .

(5) Monachus, p. 805; Theophanes Continuatus, p. 26; Symeon Magistri, pp. 638—639; Zonaras, p. 416.

ناحية ثم الارمنياق ، ذهب على رأس قواته لمنازلته ، والتقى الطرفان في معركة صباح يوم الخميس ٢٥ شعبان ٢٢٣ هـ (٢٢ يوليه ٨٣٨ م) عند مدينة دازيمون Damo . (١) ، واحرز البيزنطيون الانتصار في بادئ الامر ، ولكن الموقف تغير عند الظهر حين وصل الفرسان المسلمون فانقضوا بشدة على قوات الامبراطور وشتتوها فلاذ معظمها بالفرار . وتتفق المصادر العربية (٢) والبيزنطية على ان الامبراطور نفسه لم ينج الا بصعوبة ، ونذكر على سبيل المثال قول المايجستر سيميون : «وانشب الامبراطور القتال ، فانهزم وهرب وعاد بالخزي ولم ينج الا بصعوبة» (٣) .

وبعد هذه الهزيمة عاد الامبراطور الى معسكره السابق عند نهر الهليس حيث اجتمع بفلول جيشه ، وارسل الى المدن والحصون يأمر من بها بالقبض على الجنود الهاربين وجلدهم وارسالهم لحرب المسلمين ، اما هو فاتخذ طريقه الى مدينة نيقية ومنها الى دوريليوم ، وأقام هناك في انتظار ما سوف يحل بعمورية على يد الخليفة المعتصم (٤) . اما الافشين فبعد انتصاره على الامبراطور ، واصل طريقه الى انقره ، وامامها اجتمع بجيش الخليفة المعتصم وجيش اشناس ودخل الجميع الى مدينة انقره ، التي هجرها اهلها ، فاستولى

(١) تعرف حاليا بأسم توكتات ، انظر فازيلييف ، العرب والروم ، ص ٢٠٣ .
(٢) انظر على سبيل المثال الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ ، ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ، ص ١٩٧ - ١٩٨ ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ٢٧٦
(3) Symeon Magistri, p. 638.

انظر كذلك :

Monachus, p. 803; Genesis, p. 68; Theophanes Continuatus, p. 127.
(4) Genesis, pp. 68—69; Theophanes Continuatus, pp. 128—129; Zonaras, pp. 416—417.

انظر كذلك ، الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٣٧ - ٣٣٨ .

عليها المسلمون وخربوها (١) . وقد كان لتخريب هذه المدينة وللهديمه التي لقيتها القوات البيزنطية على يد اشناس ، اسوأ الاثر في نفس الامبراطور ثيوفيل ، فقام بآخر محاولة لانقاذ مدينة عمورية من مصيرها المحتوم ، وتذكرا المصادر العربية والبيزنطية على السواء ، ان الامبراطور ثيوفيل ارسل الى الخليفة المعتصم سفاره اوضحت له ان قادة الجيش البيزنطي قد تجاوزوا اوامره اثناء حملته على زبطرة عام ٨٣٧ م (٢٢٣ هـ) ، وان الامبراطور يعد بتسليم كل من قام بعمل تخريبي ضد هذه المدينة ، كما اوضحت هذه السفارة استعداد الامبراطور لاعادة بناء زبطره على نفقة الخاصة وأن يعيد اليه جميع من اسرهم منها مضافا اليهم جميع الاسرى المسلمين الموجودين بالبلاد البيزنطية (٢) . لكن الخليفة المعتصم لم يستمع الى هذه الوعود المذله وسخر من رسل الامبراطور واتهم البيزنطيين بالجن واحتجز الرسل (٣)

اتخذ الجيش الاسلامي بعد ذلك طريقه الى عمورية ، ووصل امامها يوم الجمعة ٦ رمضان ٥٢٣ هـ (اول اغسطس ٨٣٩ م) (٤) ، وعلى الفور بدأ المسلمون الحصار ، وقد هاجموا السور — الذي كان على جانب كبير من الحصانه وكان يشتمل على ٤٤ برجاً — هجمات متتالية بشجاعة ومثابرة ، غير ان هجومهم لم يكلل بالنجاح نظرا لاستماتة اهل عمورية في الدفاع عنها

(١) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١٠ ، ص ٣٣٨ .

(٢) قال المؤرخ اليعقوبى عند تعرضه لهذه السفارة : « فأوفد طاغية الروم من قبله وقد إلى المعتصم يقول أن الذين فعلوا بزبطرة ما فعلوا تعدوا أمرى وأنا ابنيها بمالى ورجالى وأرد من أخذ من أهلها واخلى جملة من فى بلد الروم من الاسارى وأبعث اليك بالقوم الذين فعلوا بزبطرة على رقاب البطارية » . انظر اليعقوبى : التاريخ ، ج ٢ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٣) وقد سيرهم الخليفة إلى بلدهم بعد فتحه مدينة عمورية ، أنظر عن ذلك المصادر التالية :-
Genesis, op. cit., pp. 64—65; Theophanes Continuatus, pp. 129—130

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٤٣ .

ويذكر الماجستير سيميون في هذا العدد «وصل أمير المؤمنين بقوة كبيرة ، وحاصر عمورية وشن عليها هجمات كثيرة ، فلم يقو على تخريبها ، لان اهلها حاربوا في كرامة وثبات».(١) اما كيدرينوس فيقول «وهاجم السراقنه(٢) المدافعين عن اسوار المدينة ، ولكن الروم الذين كانوا فيها كانوا معزين بقوتهم يحاربون بشجاعة ويردون عن مدينتهم آلات الحصار»(٣). ونستكمل الوصف من صاحب صلة ثيوفان الذي يقول : «ومات من الطرفين رجال كثيرون من المحصورين والمحاصرين ، ولم ينل المسلمون شيئاً زماً طويلاً ، واحسوا بفداحة الخطر لقتل الكثيرين منهم . ويستطرد قائلاً ان عدد القتلى من الجانبين بلغ سبعين الفا»(٤) وهذا الرقم وان كان مبالغاً فيه الا انه يدل على مدى الخسارة في الارواح التي لحقت بالطرفين .

وقد انتهى حصار المسلمين لعمورية باستسلام المدينة في اغسطس ٨٣٩م (١٨ رمضان ٢٢٣ هـ) ، فاستباحها المسلمون ووقعت بين ايديهم اعداد كبيرة من السبايا والاسرى ، كان من بينهم عدد كبير من البطارقة واهل الشرف ، وامر الخليفة المعتصم بهدم اسوار عمورية وابوابها ، ثم انصرف عائدا الى بلاده(٥) .

(١) Symeon Magistri, op. cit., p. 638.

ويذكر المؤرخ موناخوس نفس المعنى ، أنظر :

Monachus, op. cit., p. 806.

(٢) الأصل اليوناني للكلمة كما ذكرها كيدرينوس هي (ساراقينوس) ومعناها بالعربية «عبيد سارة» . وهي احدى التسميات التي أطلقها البيزنطيون على المسلمين ، ويفسر المؤرخ المسعودي أصل هذه التسمية بأنها طعنا من الروم على السيدة هاجر وأبناها اسماعيل ، حيث أنها كانت أمة للسيدة سارة انظر المسعودي : التنبيه والاشراف ، ص ١٦٨ .

(٣) كيدرينوس ، ص ١٣٥ باليونانية .

(4) Theophanes Continuatus, p. 130.

(٥) الطبري : تاريخ الانبياء والملوك ، ج ١٠ ، ص ٣٤٢ . انظر كذلك المصادر البيزنطية التالية : =

وتشير المصادر البيزنطية الى سفارة ارسلها الامبراطور ثيوفيل الى الخليفة المعتصم بعد فتح عمورية ، عرض فيها ان يدفع للخليفة مائتي قنطار ذهباً فداء لاسرى عمورية ، وعلى الاخص بعض اتباعه المقربين ، لكن الخليفة رفض هذا العرض موضحاً ان نفقات الجيش فقط في حملته على عمورية بلغت الف قنطار من الذهب (١) .

كان ذلك هو الصراع الذى اشتعل بين العباسيين والدولة البيزنطية في عهد ثيوفيل ، والذي يتصل اتصالاً وثيقاً بالصراع الكريتي البيزنطى ، اذ ان هذه الحروب المتواصلة مع العباسيين لم تمكن الامبراطور ثيوفيل من معالجة مشاكله مع جزيرة كريت ، والعمل على اخراجها من ايدى فاتحيها المسلمين ، ويلاحظ ان المصادر لم تمدنا بشئ عن طبيعة العلاقات بين جزيرة كريت والدولة البيزنطية خلال فترة الصراع البيزنطى العباسى ، ومن الجائز ان يكون مسلمو كريت قد واصلوا غاراتهم على الاراضى البيزنطية خلال هذه المرحلة ، ولكن لم تصلنا اخبار هذه الغارات . او لعلمهم نعموا بفترة من الهدوء والاستقرار اثناء انشغال البيزنطيين عنهم . وان كان المرجح ان يكونوا قد استغلوا الظروف التى مرت بها الدولة البيزنطية وقتذاك ، وعملوا على مواصلة فتوحاتهم فى الجزيرة محاولين استخلاصها لانفسهم والقضاء على النفوذ البيزنطى فيها ، فثمة اشارة اوردها المؤرخ ابن تغرى بردى (٢) يفهم منها ان المسلمين قد اتموا فتح جزيرة كريت فى ٢٣٠ هـ ١٨٠ سبتمبر ٨٤٤ - ٦ سبتمبر ٨٤٥ م) ، والجزء الاخير من مرحلة الفتح هذه يغطى كل عصر

Monachus, p. 805; Genesius, p. 65; Symeon Magistri, p. 639; Zonaras, = p. 417.

(١) Genesius, p. 66; Theophanes Continuatus, p. 131.

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣٢٧ .

الامبراطور ثيوفيل (٨٢٩ - ٨٤٢ م) ، وهذا يدعوا للتساؤل عما اذا كان هناك اتفاق مثلاً ، تم بين اماره كريت والخلافة العباسية ببغداد ، بقصد ان تفتح هذه جبهة ثانية للقتال مع الدولة البيزنطية في المشرق ، حتى يتفرغ الفاتحون المسلمون لمواصلة فتوحاتهم في ارجاء الجزيرة الكريتية وطرده النفوذ البيزنطى منها . والواقع اننا لانستطيع ان نؤكد عقد مثل هذا الاتفاق بينهما اذ لاتشير المصادر من عربية وبيزنطية الى اى اتفاق من هذا النوع فضلاً عن ان الجانب البيزنطى هو الذى بدأ هذه الحروب مستغلاً الظروف السياسية الحرجة التى تعرضت لها الدولة العباسية آنذاك ، لذلك فان الامر على ما يبدو لا يعدو أن يكون مجرد ظروف سياسية طارئة ظهرت على مسرح الحوادث فى هذه الفترة من الزمن ، وهياتها احداث معينة خاصة بالدولتين العباسية والبيزنطية واستغلها مسلمو كريت لصالحهم .

وقد كان للهزائم التى انزلها مسلمو كريت بالدولة البيزنطية منذ بداية فتحهم للجزيرة وحتى ذلك الوقت ، اسوأ الاثر فى نفس الامبراطور ثيوفيل ، وزاد من شعوره بالمرارة الضربات العنيفة التى انزلها به العباسيون فى آسيا الصغرى ، وادرك هذا الامبراطور حينئذ انه لا قبل له بمواجهة المسلمين ، فأخذ فى طلب المساعدة العسكرية من الخارج . وقد اشار المؤرخ المغربى المقرئ الى سفارة ارسلها الامبراطور ثيوفيل الى الخليفة الاموى عبد الرحمن الثانى (٨٢٢ - ٨٥٢ م / ٢٠٧ - ٢٨٣ هـ) وذلك فى عام ٢٢٥ هـ (٨٣٩ - ٨٤٠ م) . ولم يعرض المقرئ لتفاصيل هذه السفاره ، وانما اشار اليها فى عبارات سريعة مقتضبة ، فقال ان الامبراطور ثيوفيل - الذى ذكره باسم توفلس - ارسل للامير عبد الرحمن «يطلب مواصلته ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق» . (١) ولم تمدنا المصادر الاخرى بأية تفاصيل عن

(١) المقرئى : نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

هذه السفارة ، او مضمون رسالة الامبراطور الى الامير الاموى . ولكن ،
لحسن الحظ ، وصلنا رد الامير عبد الرحمن على رسالة ثيوفيل . فقد عثر
المؤرخ الفرنسى ليفى بروفنسال Levi Provencal فى مكتبه
جامع القرويين بمدينة فاس ، على مخطوط يدعى «المقتبس» للمؤرخ الاندلسى
ابى مروان ابن حيان ، الذى عاش فى القرن التاسع الميلادى . وقد اورد
ابن حيان فى مخطوطه نص الرسالة التى رد بها الامير عبد الرحمن على خطاب
الامبراطور البيزنطى ثيوفيل ، وقام بروفنسال بنشرها (١) . ومنها يتضح
ان الامير عبد الرحمن تناول الاجابة فقره فقره على رسالة ثيوفيل . ويفهم
من هذا الرد ان الامبراطور البيزنطى ارسل اليه يطلب منه التعاون معا فى عمل
عسكرى مشترك ضد العباسيين فى المشرق ، وضد جزيرة كريت ايضا ،
بحيث يؤول ملك العباسيين الى الامير الاموى ، اما كريت فلم يوضح ماذا
سيتم بشأنها ، ومن المرجح انه طلب ان تعود الى الدولة البيزنطية ، او على
الاقل يمنع المسلمون بها من الاغارة على الممتلكات البيزنطية ، ويبدو ان
الامبراطور ثيوفيل اوضح للامير الاموى عجزه عن الوقوف وحده فى وجه
مسلمى كريت ، وطلب منه التدخل لوضع حد لغاراتهم على الاراض
البيزنطية . فقد اخذ الامير الاموى - فى لهجة لاتخلو من التهكم يبدى تعجبه
من عجز الامبراطور البيزنطى من حفظ ممتلكاته والضرب على ايدى هذه
الفئه القليلة ، فقال موجهها كلامه الى ثيوفيل : واماما ذكرت من امر ابى
حفص الاندلسى (٢) ومن صار معه من أهل بلدنا فى خضوعهم لابن ماردة ، (٣)

(١) نشرها بروفنسال فى المجلد الثانى عشر من المجلة البيزنطية ، أنظر

Byzantion, vol. 12, Paris, 1937, pp. 17—20.

انظر نص الرسالة مع التعليق عليها فى الملحق رقم ٢ .

(٢) هو حاكم امارة كريت آنذاك .

(٣) يقصد الأمير عبد الرحمن الأموى بأبن الخليفة ماردة العباسى المعتصم بالله ، لأن أمه كانت =

فأنه لم يترع اليه منهم الاسفلتهم وسوادهم ، وفسقتهم وأباقيهم ، وليسوا في بلدنا ولا بر تبتنا فتغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا الى الدخول في طاعة ابن مارده للأمنهم من بلادهم ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ولا تصعب عن نكايتهم ، ولا تتوقف عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك . »

وهكذا لم يشأ الأمير الاموي ان يعد الامبراطور بالتدخل السريع والعمل الحازم ضد كريت الاسلامية ، غير انه وعده بالتدخل الفعلي في حالة نجاح حلفهم المقبل ، واستعادة الأمير الاموي للملك اسلافه في المشرق فقال : وان الله بحوله وقوته ، وفضله وممته ، رد الينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت ايدي آبائنا منه ، نظرنا في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامة لطاعتنا وطاعتك وعرفنا الذي يكون من محونتك على ماعدوت اليه ، وحضضت عليه ، بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته والواقع ان الأمير عبد الرحمن لم يكن باستطاعته ان يعجل بارسال مساعدة للامبراطور البيزنطي نظرا للظروف التي صادفته وقتذاك . فقد كان اهل البلاد الاصلين دائمي الثورة والتمرد ، وكان العداء بينهم وبين المسلمين مما يقلق بال الأمير الاندلسي ، فغالبا ما قامت بينهما المعارك لاتفه الاسباب (١) ، كما أن حكام بلاد جليقية (٢) كانوا يجاهدون جهادا حارا من اجل الاستقلال ، وكان

= تدعى ماردة ، وهي جارية أم ولد للخليفة هارون الرشيد وقد ذكر الأمير عبد الرحمن ذلك على سبيل التحقير للخليفة المعتصم . انظر اليعقوبي ، التاريخ ، ج ٢ ، ص ١٩٧ .

(1) Dozy, History of Musulman of Espain, vol 11, pp. 96—101.

(٢) تقع بلاد جليقية في شمال الأندلس وهي تضم مدينتي طليطلة وبرشلونة والجهات المجاورة ، ويسمى سكانها بالجلالقة ، ويصفهم ابن الوردي بقوله : «والغالب على أهلها الجهل والحمق ومن زبهم أنهم لا يغسلون ثيابهم أبدا ، بل يلبسونها وسخة إلى أن تبلى ، ويدخل أحدهم بيت الآخر بغير أذنه ، وهم مهملون في أديانهم كالبهائم بل أضل» . أما القلقشندي فيذكر أنه يطلق على ملوك هذه البلاد اسم — «أدفونش» ويسميه العامة «الفنش» . انظر عن ذلك ابن الوردي : خريدة المعجائب وفريدة الغرائب ، ص ٧٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٨٤ .

ذلك يستلزم جهودا عسكرية من جانب الامير عبد الرحمن لقمع حركات التمرد التي قام بها هؤلاء الحكام . ويشير ابن الاثير الى قيام الامير عبد الرحمن بغزو هذه البلاد في نفس تلك السنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) فيقول : «سار عبد الرحمن صاحب الاندلس في جيش كبير الى بلاد المشركين في شعبان (١) فدخل بلاد جليقية فافتتح منها عدة حصون ، وجال في ارضهم يخرب ويغنم ويقتل ويسبي ، واطال المقام في هذه الغزاه ثم عاد الى قرطبة» . (٢) لذلك فقد فضل الامير الاموي ان يترك باب المفاوضات مفتوحا على امل ان تتحسن ظروفه في المستقبل بشكل يمكنه من التعاون مع الامبراطور البيزنطي في عمل عسكري مشترك كما دعاه ثيوفيل الى ذلك .

وقد اختتم الامير عبد الرحمن رسالته الى الامبراطور ثيوفيل مؤكدا له استعداداه لعقد مثل هذا التحالف معه ، ولتأكيد ذلك ارسل اليه سفارة على رأسها رسولين من خاصته ، احدهما هو الشاعر يحيى الغزال وهو من الشخصيات البارزة في الاندلس ، والثاني يدعى يحيى بن حبيب ويعرف بصاحب المنيقلة (٣) وجاء في هذه الفقرة الاخيرة من رسالة الامير عبد الرحمن الى الامبراطور ثيوفيل مايلي : «وقد ادخلنا رسولك قرطوس علينا وكشفناه على الذي أوصيت به الينا ، وعن كل مايجب لصديق ان يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا اليك بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ،

(١) شعبان من عام ٢٢٥ هـ يقابل يونيه من عام ٨٤٠ م .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ٢١٢ . وانظر كذلك ، النويرى : نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، لوحة ٢٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ١٢٨ (بيروت) .

(٣) المقرئ : نفح الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

ويرجع بروفنسال أصل هذه التسمية إلى ابتكار هذا الشخص لنوع من الساعات أنظر ، بروفنسال الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١٠٠ ، راجع أيضا ، عنان : دولة الاسلام في الأندلس ، ص ٢٦٥

فاكتب الينا معهما بالذى أنت عليه من الامر الذى كتبت به الينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ، ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به على حسب ما يأتينا به من عندك ان شاء الله .»

وقد غادرت سفارة الامير عبد الرحمن الاندلسى مصحوبة بالرسول البيزنطى قرطىوس. ، ووصلت الى القسطنطينية بعد رحلة بحرية شاقة ، وهناك قوبلت السفارة بترحيب بالغ ، وأدى يحيى الغزال سفارته خير أداء وعمل على توثيق الصلة والمودة بين الطرفين ، أو كما قال المقرئ «فاحكم بينهما الوصله» (١)

والواقع ان مشروع هذا التحالف لابد وان يثير بعض التساؤلات عن الدوافع التى حدثت بالامبراطور ثيوفيل الى التقدم به الى الامير الاموى عبد الرحمن دون غيره من الحكام المعاصرين . والباحث فى هذا الموضوع لابد وان يدرك ان هناك عدة عوامل كانت وراء اختيار الامبراطور ثيوفيل للامير عبد الرحمن بالذات ، ومن اهم هذه العوامل ، ان تباعد الحدود بين الخلافة الاموية فى الاندلس ، والدولة البيزنطية ، وبالتالي عدم وجود مشاكل سياسية بين الطرفين ، ادى لارتباطهما بعلاقات تقليدية قائمة على اساس الود والصداقة المتبادلتين . وان تاريخ العلاقات بين الدولتين يؤكد هذه الحقيقة . يضاف الى ذلك ادراك الامبراطور البيزنطى ثيوفيل لطبيعة العداء المستحكم بين الأمويين فى الاندلس والعباسيين فى المشرق ، الذين اسقطوا الخلافة الاموية هناك فى عام ١٣٢ هـ (٧٤٨ - ٧٤٩ م) (٢) واسسوا خلافتهم على

(١) المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٢٤ .

(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ١٥٥ - ١٥٦ .

انقاضها . لذلك فقد نظر اليهم الامويون بالاندلس دائماً على انهم مغتصبون لحقهم الشرعى فى امتلاك المشرق الاسلامى . كذلك تفهم الامبراطور ثيوفيل للحزازات الموجودة بين اموى الاندلس ومسلمى كريت ، حيث ان هؤلاء الاخرين كانوا فيما مضى من رعايا الامويين ، ثم شقوا عصا الطاعة عليهم وخرجوا مطرودين من موطنهم الاصلى فى الاندلس . اذن فهم من وجهة النظر الاموية ، رعايا متمردين وثوار خونة ، يحق لهم عقابهم والنيل منهم اذ واتتهم الفرصة لذلك .

واخيراً فلعل النهضة التى بلغتها دولة الاندلس فى شتى المجالات ، فى عهد الامير عبد الرحمن الثانى (١) ، قد شجعت الامبراطور ثيوفيل على التوجه اليه طالبا قيام مثل هذا التحالف بينهما .

وعلى ايه حال فان مشروع هذا التحالف لم يخرج الى حيز التنفيذ ، اذ تطورت الاحداث فى الاندلس بشكل ادى الى انصراف الامير عبد الرحمن عن هذا المشروع . فقد تعرضت البلاد لغارة كبيرة من جانب المغامرين

(١) انظر عن ذلك ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، صص ١٣٥ - ١٣٦ .
وما ذكره هذا المؤرخ عن الامير عبد الرحمن الثانى فى عصره . قوله : «.... وكان شاعرا اديبا ذا همة عالية ، وكانت له غزوات كثيرة وفتوحات فى دار العدو شهيرة ، يخرج اليها فى العدد الجم ، والعسكر الضخم . يخرب ديارهم ويعق آثارهم ، ويقفل ظافر الاعتلاء ، قاهر الأعداء . لم يلق المسلمون معه يقسا ، ولم يروا فى مدته يوما عبوسا . وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة ابهة الجلالة ، فشيّد القصور وجلب اليها المياه ، وبني الرصيف ، وعمل عليه السقائف ، وبني المساجد الجوامع بالاندلس وعمل السقاية على الرصيف . أحدث الطرز واستبطن عملها وأخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه وفى أيامه دخل الاندلس نفيس الوطا وغرائب الأشياء وسبق ذلك إليه من بغداد وغيرها» .

الفكنج Vikings (١) ، الذين اطلق عليهم المؤرخون المسلمون اسم المجوس (٢) ، او الاردمانيين (٣) . وقد جاؤا في نحو ثمانين سفينة ، ونزلوا على الساحل الغربى لبلاد الاندلس ، وكان اول

(١) الفيكنج هم العناصر الشمالية (سويديون ونرويجيون ودانيون «سكان الدانمرك») التى سكنت شبه جزيرة سكندناو وشبه جزيرة الدانمرك . وهم ينتمون من الناحية العنصرية إلى الأصل التيتونى أو الجرمانى . واسم الفيكنج بمعنى سكان الفيوردات أو الخلجان ، وهى الظاهرة الطبيعية التى تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا ونظرا لطبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم يكن أمامهم مجالا للعيش سوى السهول الساحلية ، وهى لاتعدو في معظم الأحيان أشرطة ضيقة من الأرض ، وهكذا دفعت الطبيعة الفيكنج نحو البحر ، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التى أتصفت بطولها وقلة عرضها ، وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوروبا من البحر البلى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا برحلات بعيدة في المحيط الاطلنطى حتى أصبحوا من أعظم الشعوب البحرية التى عرفتها أوروبا العصور الوسطى .

وقد عرف عن الفيكنج مهارتهم في القتال وقوة تسليحهم ، فكان كل محارب منهم مزودا ببلطة وحربه طويلة ، ودرع واق ، وخوذة من الحديد . وقد لعبوا دورا كبيرا في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى لما قاموا به من حركة توسعية هائلة أغاروا خلالها على عديد من البلاد الأوروبية ، مثل ممتلكات الإمبراطورية الكارولنجية ، وانجلترا ، وايرلندا ، والجزر الشمالية (ايسلاند وجرينلاند) ، وبعض بلاد حوض البحر المتوسط .

وبشأن كل مايتعلق بالفيكنج وتاريخهم وحضارتهم ونشاطهم الحربى في العصور الوسطى أنظر سعيد عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسى) الطبعة الرابعة ١٩٦٦ ، الباب العاشر ، صص ٢١٨ - ٢٤٧ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، صص ٨٧ - ٨٨ ، القرطبى : تاريخ افتتاح الاندلس صص ٨٤ - ٨٦ ، ابو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج٢ ، ص ٣٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ٦ ، النويرى : نهاية الارب في فنون الأدب ، ج٢٢ ، لوحة ٢٣ ، ولوحة ٢٤ .

ويرجع الاستاذ الدكتور سعيد عاشور أن المسلمين أطلقوا اسم «المجوس» على الفيكنج نتيجة للحرائق التى كانوا يشعلونها في البلاد التى يستولون عليها ، أو لما اعتاده الفيكنج من أعمال النار ليلا للاستئناس والتدفئة ، الامر الذى جعل المسلمين يعتقدون أن هؤلاء القوم من عبدة النار أى «المجوس» . أنظر : سعيد عاشور : نفس المرجع ، ص ٢٤٤ ، حاشية رقم (٤) .

(٣) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ٤٩ .

نزولهم بمدينة لشبونة (١) ، في ذى الحجة ٢٢٩ هـ ، (اغسطس - سبتمبر ٨٤٤ م) وظلوا في اشتباكات مستمرة مع سكانها ، ثم تركوها الى قادس (٢) فشذونه (٣) ، ثم ساروا يريدون اشبيلية (٤) ، ونزلوا بموضع يعرف باسم

(١) وردت هذه المدينة في المصادر العربية باسم «اشبونة» ، وتقع إلى الشمال الغربي من مدينة اشبيلية ، واشتهرت لشبونة بكثرة بساطينها وثمارها ، وقال الجغرافي الحميري في وصفها : «وهي مدينة قديمة على سيف البحر ، تنكسر أمواجه على سورها ، وسورها رائق البنيان ، بديع الشأن ، وبابها الغربي قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وهو أكبر أبوابها ، ولها باب غربي أيضا يعرف بباب الخوخة مشرف على سرح فسيح يشقه جدول ماء يصبان في البحر ، ولها باب قبلي يسمى باب البحر تدخل أمواج البحر فيه عند مده ، وترتفع في سوره ثلاث قيم ، وباب شرق يعرف بباب الحمة ، والحمة على مقربه منه ومن البحر ديماس ماء حار وماء بارد ، فإذا مد البحر واراها ، وباب شرق أيضا يعرف بباب المقبرة . والمدينة في ذاتها حسنة ممتدة مع النهر لها سور وقصبة ، منيعة » أنظر الحميري : صفة جزيرة الاندلس ، منتخبة من كتاب الروض المطار في خبر الاقطار ، نشرها وصححها وعلق حواشيها ليبي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧ ، ص ١٦ . أنظر كذلك ، القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢١٩ ، ص ٢٢٢ .

(٢) قادس جزيرة صغيرة على الساحل الغربي للاندلس «وطول جزيرة قادس من القبلة إلى الجوف اثنا عشر ميلا وعرضها في أوسع المواضع ميل ، ولها مزارع كثيرة الريع وأكثر مواشيتها المعز ، وبها آثار للأول كثيرة » أنظر الحميري : نفس المصدر ، ص ١٤٥ .

(٣) تعتبر شذونه من المدن الصغيرة بالاندلس ، واشتهرت بوفرة مياهها وكثرة خيراتها البرية والبحرية على السواء ، وأمتازت تربتها بالجودة وبانتاج أجود أنواع العنبر ، أنظر الحميري نفس المصدر ، ص ١٠٠ .

(٤) يقال أن أصل اسمها هو «اشبالي» بمعنى «المدينة المنبسطة» وهي تقع إلى الجنوب على الساحل الغربي للاندلس ، وبينها وبين مدينة قرطبة ثمانون ميلا . واشبيلية من المدن القديمة الأثرية في الاندلس ، وقال ابن حوقل أنها اشتهرت بكثرة الفواكه والكروم والتين بصفة خاصة ، أما الحميري فوصفها بقوله : «وهي كبيرة عامرة ، لها أسوار حصينة وأسواقها عامرة ، وخلقها كثير وأهلها مياسير ، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به منها إلى المشرق والمغرب برا وبحرا ، فيجتمع هذا الزيت من الشرف (جبل يقع غرب اشبيلية) وهو مسافة أربعين ميلا كلها في ظل شجر الزيتون والتين ، أوله مدينة اشبيلية وآخره مدينة لبله ، وسعته اثنا عشر ميلا ، وفيه ثمانية آلاف قرية عامرة بالحمامات والمديار الحسنة وكان سور =

قودره - على بعد اثني عشر ميلا من اشبيلية - فخرج اليهم كثير من المسلمين والتقوا بهم في ١٢ المحرم ٢٣٠ هـ (٣٠ سبتمبر ٨٤٤ م) ، فانهمزم المسلمون ، وواصل الفيكنج تقدمهم حتى وصلوا الى طليطلة - على بعد ميلين من اشبيلية - وقاتلوا اهلها في ١٤ المحرم ٢٣٠ هـ (اكتوبر ٨٤٤ م) وحلت بالمسلمين الهزيمة ، وكثر القتل والاسر بينهم ، ولم يرفع هؤلاء المغامرون السيف عن أحد ولا عن دابة (١) . واخيرا وصلوا الى اشبيلية «فاحتلوا بها احتلالا ، ونازلوها نزالا ، الى ان دخلوها قسرا ، واستأصلوا اهلها قتلا واسرا . وبقوا بها سبعة ايام ، يسقون أهلها كأس الحمام» ، وذلك على حد تعبير المؤرخ ابن عذارى (٢) .

وقد ارسل اليهم الامير عبد الرحمن جيشا فقاتلهم والحق بهم الهزيمة ، ثم ارسل اليهم جيشا اخر اوقع بهم ، واخذ في مطاردتهم ، وجاءت الامدادات من كل مكان بالاندلس لمحاربة هؤلاء المغامرين ، واخذوا يلحقون بهم الهزيمة تلو الاخرى ، فانسحب الفيكنج عائدين الى لشبونه ، وفي طريقهم

= اشبيلية من بناء عبد الرحمن بن الحكم ، بناء بعد غلبة المجوس عليها بالحجر وأحكم بناءها وكذلك جامعها من بنائه وهو عجيب البناء وجليله وصومعته بديعة الصناعة ، غريبة العمل أركانها الاربعة عمود فوق عمود إلى أعلاها ، في كل ركن ثلاثة أعمدة . وباشبيلية آثار للاول كثيرة وبها أساطين عظام تدل على هياكل كانت بها وكل ما أستودع أرض اشبيلية نمت وزكى وجل ، والقطن يجود بأرضها فيعم بلاد الاندلس ويتجهز به التجار إلى أفريقية وسجلماسة وماوالاها أنظر الحميري : نفس المصدر ، ص ١٨ - ٢١ ، أنظر أيضا ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول ، الطبعة الثانية ، ص ١١٥ القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٥ ، ص ٢٢٥ .

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٨٧ ، أنظر كذلك ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٦ .

اليها التقوا مع جيوش المسلمين في معركة عند طلياطة في يوم الثلاثاء ٢٥ صفر ٢٣٠ هـ (أول أكتوبر ٨٤٤ م) فهزمهم المسلمون وقتلوا منهم اعدادا كبيرة كما احرقوا لهم ثلاثين مركبا (١) . فأكمل الفيكنج انسحابهم حتى وصلوا الى مدينة لبله (٢) واصابوا منها سبيا ، ثم رحلوا الى شدونه فغنموا وسبوا منها ومن غيرها من المدن المجاورة مثل باكشونيه وباجه ، حتى وصلوا الى مدينة لشبونة فرحلوا منها الى بلادهم (٣) .

وقد تسبب هذا الهجوم في انزال خسائر مادية وبشرية كبيرة بالبلاد الواقعة غربى الاندلس ، وبعد رحيل هؤلاء الغزاة ، قام الامير عبد الرحمن بأصلاح ما خربوه من البلاد وزاد في عدد الحاميات الموجودة بها (٤) . وتذكر المصادر ان مفاوضات قد جرت بين الامير عبد الرحمن وزعيم الفيكنج ، وان الامير الاموي ارسل اليه سفارة على رأسها يحيى الغزال ، بعد

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ٦ .
(٢) تقع لبله في غرب الاندلس وبينها وبين البحر ستة أميال وهي مدينة قديمة بها ثلاث عيون احداها عين تسهشر وهي اغزرها ، والثانية عين تنبعث بالشب ، والثالثة عين تنبعث بالزجاج وتعرف لبله بالخمراء ، وفيها آثار للاول كثيرة ، وسور لبله قد عقد على اربعة تماثيل ، ويخيل إلى الناظر أن ذلك البنيان موضوع على اعناقهم ، وانفردت بهذه البنية من بين سائر المدن . ولبله مدينة حسنة ازلية ، متوسطة القدر ، لها سور منيع ، ونهر هاياتها من ناحية الجبل ، ويجاز عليه في قنطرة إلى لبله ، وبها اسواق وتجارات وكور لبله كثيرة الزيتون ، والشجر ، وضروب النمار ، يكون فيها القرنفل الفاضل ، وهي سهلية جبلية » انظر الحميري : صفة جزيرة الاندلس ، صص ١٦٨ - ١٦٩ .
(٣) انظر اخبار هذه الغارة بالتفصيل في المصادر التالية ابن عذارى : البيان المغرب ج٢ ، ص ٨٧ - ٨٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ٦ ، القرطبي : تاريخ افتتاح الاندلس ، صص ٨٤ - ٨٦ . وهناك مصادر اخرى تعرضت لها باختصار شديد ، انظر على سبيل المثال المقرئ : نفخ الطيب ، ج١ ، صص ٣٢٣ - ٣٢٤ ، ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، ص ٤٩ ، ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر ، ج٢ ، ص ٣٨ .
(٤) المقرئ : نفخ الطيب ، ج٢ ، ص ٣٢٤ .

عودته من بيزنطة ، فذهب الى شمال اوروبا بعد رحلة بحرية عبر فيها المحيط الاطلنطي ، وادى هذه السفارة ثم عاد الى بلاده بعد عشرين شهر (١) .

وهكذا شغل الامير عبد الرحمن بهذه الظروف الجديدة عن مشروع التحالف المقترح من جانب الامبراطور البيزنطي ثيوفيل ، بتأليف جبهة قوية واسعة ضد العدو المشترك لكليهما .

وفي نفس الوقت كانت الظروف قد تغيرت في الدولة البيزنطية ، فقد توفي الامبراطور ثيوفيل في ٢٠ يناير ٨٤٢ م (٢٩ ربيع الاول ٢٢٧ هـ) بعد ان اشتد به المرض ، اثر الهزائم التي انزلها به المسلمون ، اذ اصابته حمى شديدة حتى كان يحسب الثلج دافئا على حد تعبير المؤرخ البيزنطي جينيزيوس ، ولما اسرف في تناول الماء المثلج اصابه مرض الدوسنتاريا الذي قضى عليه (٢) و بعد وفاته قضى على هذا المشروع بصفة نهائية .

توفي الامبراطور ثيوفيل وترك ستة ابناء ، خمس بنات وولد واحد ، وقد انتقل العرش الى ابنه ميخائيل Michael الذي عرف في التاريخ باسم ميخائيل الثالث . ولما كان هذا الامبراطور الجديد لم يتجاوز السادسة من عمره وقتذاك ، فقد تولت الوصاية عليه والدته الامبراطورة ثيودورا Theodora وتألف مجلس لمساعدتها في تصريف شئون الامبراطورية ، تكون من شقيقها برداس Bardas ، وبترonas Petronas ، وخالها سرجيوس نكتياتيس Sergius Nicetates وصديقها

(١) ابن سعيد : المغرب في حلل المغرب ، ص ٤٩ ، راجع ايضا : بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ١١٢ .

(2) Genesius, op. cit., p. 70; Theophanes Continuatus, p. 131;

كيدر يوس : نفس المصدر ، ص ١٣٧ ، باليونانية

الذى استغل مكانته عند ثيودورا واستحوذ على السلطة ، واصبح هو المتصرف الوحيد فى شئون الحكم طوال فترة وصايتها التى استمرت ١٤ عاما (٨٤٢ - ٨٥٦ ٢٢٧ - ٢٤١ هـ) . وقد اشتهر تيوكتيستوس باهتمامه الكبير بنشر الثقافة والتعليم فى الامبراطورية ، كما عرف بنشاطه الجهم فى النواحي المالية ، وترتب على ذلك وجود فائض كبير من الذهب فى الخزينة الامبراطورية . ولعل اهم الاحداث التى وقعت اثناء فترة وصاية ثيودورا ، هى العودة الى الارثوذكسية الصحيحة اذا تم عزل بطريرك القسطنطينية حنا النحوى المعروف بعدائه للايقونية ، وحل محله بطريرك ارثوذكسيا يدعى ميثوديوس Methodius . وقد تلا ذلك عقد مجمع دينى فى القسطنطينية تقر فيه اعادة عبادة الصور المقدسة ، وتم الاحتفال بذلك ، فأقيم قداس بكنيسة سانت صوفيا . St. Sophia فى اول احد من الصيام الكبير (١١ مارس ٨٤٣هـ) وحضرت الامبراطورة الى الكنيسة ، يصحبها الامبراطور الطفل ميخائيل الثالث والبطريرك ، ورجال الدين ، والوزراء وأعضاء السناو ، وكانوا يحملون فى أيديهم الصلبان والايقونات والشموع . ومنذ ذلك الحين والكنيسة

(١) اللغيثيت هو الوزير الذى له اوثق الصلات بالامبراطور ، فكان يقابله كل يوم تقريبا ، ومن واجبات اللغيثيت تقديم الوزراء والضباط للامبراطور لكى يقلدهم اوظائفهم وكذلك عمل الترتيبات اللازمة لاستقبال السفراء الاجانب ، وتجهيز البعثات السياسية الامبراطورية الى البلاد الاجنبية واختيار افراد هذه البعثات ، ومن واجباته ايضا الاشراف على الاحتفالات الرسمية التى يظهر فيها الامبراطور للشعب .
انظر

Bury, The Imperial System, p. 92.

راجع كذلك ، رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٤ .

الارثوذكسية تحتفل في نفس الموعد بهذه الذكرى التي تعتبر عيد الارثوذكسية
اليونانية (١) .

نخلص مما سبق ان هذه المشاغل الداخلية التي حلت بالدولة البيزنطية ،
قد صرفتها عن التفكير الجدى في القيام بحملة جديدة ضد كريت . ولكن بعد
أن استتبّت الامور واستقرت الاحوال بعودة بيزنطة الى الخط القويم
للارثوذكسية ، قرر المسؤولون بها القيام بحملة على كريت بقصد استردادها من
قبضة المسلمين . ويرجع الفضل في امدادنا بالمعلومات التاريخية المتعلقة بهذه
الحملة ، الى المؤرخ البيزنطى المعاصر موناخوس ، الذى ذكرها بشئ من
التفصيل وان لم يكن سرده لها بصورة كافية تسمح بالاحاطة بكافة الدقائق
والتفاصيل التي تتعلق بها (٢) . وقد تحرى موناخوس الدقة في تحديد تاريخ
هذه الحملة ، فذكر انها ابجرت الى كريت في اول احد بعد عودة
الارثوذكسية الصحيحة ، وتبعاً لذلك يكون تاريخ ابحارها هو يوم الاحد

(1) Monachus, op. cit., p. 810.

انظر كذلك المراجع التالية :

Brehier, Vie et Mort de Byzance, pp. 114—115; Ostrogorsky, op. cit.,
pp. 186, p. 195; Bury, op. cit., pp. 148—150; Vasiliev, op. cit., p. 359.

(2) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

وقد اشار إلى هذه الحملة ايضا كل من الماجستر سيميون وصاحب صلة ثيوفان ولكن في
عبارات سريعة موجزة للغاية ، انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654; Theophanes Continuatus, Liber IV,
p. 203.

١٨ مارس ٨٤٣ م (١) (جمادى الثاني ٢٢٨ هـ). ولم يذكر موناخوس عدد السفن المشتركة فيها او نوعها او اى شئ عن استعداداتها ، وانما اكتفى بقوله انها اشتملت على قوات كثيره وسفن عديدة (٢) وقد تولى اللغثيت ثيوكتيستوس قيادة هذه الحملة البحرية . ويرجع احد المؤرخين الغربيين الحديثين وهو ارشيبالد لويس ان هذه الحملة لم تصل الى كريت ويقول فى هذا الشأن « ويبدو ان مؤامرات اهل كريت كانت ناجحة لدرجة انها عاقت هذا الاسطول حتى عن الابحار من موانيه (٣) . على ان الثابت ان ثيوكتيستوس قد تقدم بسفنه وقواته الى كريت ، ونزل على ارض الجزيرة بالفعل (٤) ، حيث قاتل بشجاعة ، واحرز الانتصار على المسلمين الذين لم يكونوا على علم سابق بهذه الحملة ، كما كان اسطولهم غائبا يقوم بالاغارة على جزر البحر الايجى . وحين رأى المسلمون بكرت ضعف امكانياتهم العسكرية عن صمد هذا الهجوم البيزنطى ، لجأوا الى الاساليب التى هى اشبه ما تكون بالحرب النفسية المعروفة فى العصر الحديث واثبتوا بذلك تفوقا فكريا عظيما ، كما اثبتوا درايتهم التامة بالاحوال الداخلية فى الدولة البيزنطية

(1) Monachus, op, cit., p. 814.

وقد ذكر الماجستر سيميون انها حدثت فى السنة الثانية من وصاية ثيودورا أى خلال عام ٨٤٣ م ، (٢٢٨ هـ) وعلى ذلك فهو يتفق مع موناخوس فى تحديد السنة التى قامت فيها الحملة . انظر :

Symeon Magistri, op. cit., p. 654.

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٢٢٣ .

(4) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

هذا ولم يحدد موناخوس مكان نزول هذه الحملة على كريت تحديدا دقيقا ولم نجد فى المصادر الاخرى والمراجع الحديثة مايفيد فى هذا الشأن .

ذلك أنهم رشوا احد الضباط في الجيش البيزنطى واوعزوا اليه بأن يشيع في معسكره ان الامبراطورة ثيودورا عزلت تيوكتيستوس عن مجلس الوصاية ، وانها اختارت احد منافسيه ليحل محله (١) . وسرعان ما انتشرت هذه الاشاعة في المعسكر البيزنطى حتى وصلت الى تيوكتيستوس نفسه ، الذى خشى على منصبه فترك جيشه واسطوله بكريت ، وسارع بالعودة الى القسطنطينية ليستطلع حقيقة الامر . وهكذا شاعت الفوضى والاضطراب بين الجيش البيزنطى الذى اصبح بدون قائد ، فتشتت وتبعثرت قواه ، وعندئذ اوسعه المسلمون تفتيلا واسرا ، كما دمروا الاسطول البيزنطى تدميرا تاما (٢) .

والواقع ان مسئولية فشل هذه الحملة تقع بكاملها على تيوكتيستوس ، فهو كقائد للحملة كان عليه أن يقوم بالواجب الذى كلف به في كريت اولا خاصة وان الموقف كان فى صالح البيزنطيين وكان من المحتمل ان تحقق الحملة هدفها ، غير ان عدم تقدير تيوكتيستوس للمسئولية الكبيرة الملقاة على عاتقه وتفضيله لمصالحه الشخصية ، اضاع على بيزنطة هذه الفرصة ، وكان سببا فى اخفاق هذه الحملة وتكبيد الدولة خسائر مادية وبشرية كبيرة . ولكن رغم ذلك كله فان تيوكتيستوس لم يفقد حظوته لدى الامبراطورة ثيودورا ، واستمر فى منصبه يباشر سلطاته فى الحكم (٣) .

(1) Monachus, op. cit., pp. 814—815.

(2) Ibid, p. 815.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 196

راجع ايضا فازيلييف : العرب والروم ، ص ص ١٧٢ - ١٧٤ .

وبعد هذه الحملة الفاشلة ، قرر تيوتوستوس وثيرودورا الانتقام لما
انزله المسلمون بها من هزيمة ، ولكن انتقامهم لم يكن موجهاً هذه المرة الى
كريت وانما الى دلتا وادى النيل ، نظر للرابطة التي كانت موجودة بين اهالى
كريت المسلمين وحكام مصر . فقد سبقت الاشارة (١) الى ان كريت كانت
من الناحية الادارية تتبع اقليم مصر ، وقد ارتبط مسلمو كريت مع اهالى مصر
وولاتها بروابط الود والصداقة ، فكانوا يرسلون بخيرات كريت ومنتجاتها
الى مصر ، وقال المؤرخ النعمان فى ذلك «ومراكبهم (٢) بخيرات بلدهم
واطعمتهم تمير اهل مصر ، وهداياهم تصل الى عمالها (٣) اما النويرى
السكندرى فقال انه كان يحمل من كريت العسل والنحل والجن الكثير لمصر
اما مصر فكانت تمد كريت بكل ماتحتاجه من اسلحة (٥) ، حتى غدت دار
الصناعة لقراصنة كريت على حد تعبير المؤرخ فازيلييف (٦) .

وفى ذلك الوقت من عام ٨٥٣م (٥٢٣٨هـ) ، نما الى علم المسئولين فى
بيزنطة ان هناك شحنة من الاسلحة موجودة بمدينة دمياط (٧) فى طريقها

-
- (١) انظر الفصل الأول من هذا البحث ، ص ٩٢ .
 - (٢) المقصود مراكب مسلمى كريت .
 - (٣) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ورقة ٤١٦ (مخطوط) .
 - (٤) النويرى السكندرى : الالمام بما جرت به الاحكام ، ورقة ١٢٣ أ (مخطوط) .
 - (٥) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ .
 - (٦) فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٧ .
 - (٧) تقع دمياط على الجانب الايمن للفرع الشرقى للنيل عند اتصاله بالبحر المتوسط ، وكانت
المدينة فى القرن التاسع اقرب الى هذا البحر مما هى عليه الآن ، وهى احدى المدن المصرية
العريقة فى القدم ، ويرجع تأسيسها الى ما قبل الفتح العربى . ويذكر ياقوت انها كانت
تشتهر بصناعة الثياب الموشاه وصيد السمك ، والطير والحيتان . وقد تهدمت دمياط القديمة فى
منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، هدمها السلطان المملوكى بيبرس وبني المدينة فى موضعها
الحالى . انظر : ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، ص ٤٧٢ ، ٤٧٣ . انظر كذلك ، جوزيف
نسيم : العدوان الصليبي على مصر ، ص ٩٠ .

الى كريت (١) فأرادوا بهذه الحملة الحيلولة دون وصول هذه الاسلحة اليها .

وقد ذكر هذه الغارة عدد من المؤرخين المسلمين مثل الكندى (٢) ، وابن الاثير (٣) ، وابن خلدون (٥) ، على ان اكثر ماجاء عنها من تفاصيل هو ماورده المؤرخ المعاصر الطبرى (٦) . اما المؤرخون البيزنطيون فقد اغفلوا ذكرها اغفالا تاما ، ومن المستغرب ان يحدث ذلك خاصة وان الحملة قد انتهت بنجاح الغرض الذى ارسلت من اجله . وذلك فى الواقع يثبت ان تاريخ الاسرة العمورية قد تعرض للتشوية واخفاء كثير من الانتصارات التى حققها اباطرة هذه الاسرة . لذلك فاننا ندين بالفضل للمؤرخين المسلمين فى امدادنا بتفاصيل هذه الحملة البحرية الكبيرة .

على اية حال ، كان الاسطول البيزنطى الذى خرج للهجوم على دمياط يتكون من ثلاثمائة سفينة حربية (شلمدية) ، على كل مائة منها قائد . غير انه لم يهاجم دمياط سوى مائة سفينة كانت بقيادة احد امراء البحر البيزنطيين ، الذى ذكره الطبرى باسم (ابن قطونا) (٧) ، اما باقى السفن فلم توضح المصادر

(١) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

(٢) الكندى : ولاية مصر ، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ .

(٤) ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٢٤٦ .

(٦) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ .

(٧) يفترض كل من المؤرخ الفرنسى جريجوار ، والمؤرخ فازيلييف ان ابن قطونا هو قائد بيزنطى يدعى نكيثياتيس بعد ان حرف فازيلييف الاسم الى ابن نقطونا حتى يتمشى مع الاسم الذى افترضه ، ويفترض بيورى انه كونتوميتيس ، والواقع ان هذه كلها افتراضات ليس لها مايؤيدها اذا لم يعرض احد من المؤرخين البيزنطيين لهذه الحملة ، ولا تخرج هذه الافتراضات عن كونها مجرد اجتهاد شخصى لهؤلاء المؤرخين . انظر :

Gregoire: Etudes sur le neuvieme Siecle dans la Revue de Byzantion, tome VIII, Bruscelles, 1933, p. 525.

فازيلييف : العرب والروم ، ص ١٨٩ ، حاشية رقم (١) .

الدور الذى قامت به اثناء هذا الهجوم ، وان كان المرجح انها اضطلعت بحماية ظهر الاسطول البيزنطى الذى هاجم دمياط . وقد وقع هذا الهجوم على مدينة دمياط يوم ١٠ ذى الحجة ٥٢٣٨ هـ (٢٢ مايو ٨٥٣م) ، وكان هذا هو يوم وقفة عيد الاضحى ، وكانت المدينة خالية تماما من حاميتها التى استدعاها الى الفسطاط والى مصر وقتذاك عنبسه بن اسحاق الضبى ليتجمل بهم فى العيد (١) وقد نزل البيزنطيون الذين كان عددهم يزيد على خمسة الاف مقاتل الى المدينة ، ففزع الاهالى ، وفر فريق منهم فى المراكب الى الفسطاط ، ونزل فريق اخر الى بحيرة تفصل دمياط عن الشاطئ المقابل لها وهو المعروف باسم البر الشرقى اوجيزة دمياط اوجيزة دمياط فغرق عدد كبير منهم ، وقتل البيزنطيون اعدادا كثيرة من الاهالى ، كما اسروا اعدادا اخرى ، ويقال ان عدد السبايا بلغ ستمائة امرأة منهن مائة وخمسة وعشرون من المسلمات ، والباقيات من نساء القبط (٢) كما انتهبوا المدينة واحتملوا سلاحا كان فيها ارادوا (٣) حملة الى ابى حفص صاحب اقريطش ، نحو من الف قناة وآلتها (٤) واشعلوا النيران فى اماكن متعددة ، ولم يفرقوا بين المساجد والكنائس فتعرضت كلها للاحراق والتخريب (٥) .

-
- (١) الطبرى : تاريخ الامم ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .
- (٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ ، الكندى : ولاية مصر ، ص ٢٢٧ .
- (٣) المقصود اراد اهالى دمياط حملة الى ابى حفص .
- (٤) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ .
- (٥) المصدر السابق : ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خلدون : العبر ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

ورغم ظروف هذه الغارة المفاجئة ، الا أن فريقا من اهالى دمياط قد ابدوا بطولة نادرة ، فخرجوا لقتال المعتدين البيزنطيين ، وقتلوا جماعة منهم (١) . وانسحب البيزنطيون بعد ان ملأوا سفنهم بالمتاع والأموال والسبايا واتجهوا الى اشتوم تنيس (٢) ، فخرّبوه وانتزعوا بابيه المصنوعين من الحديد وحملوهما معهم ، ثم رحلوا الى بلادهم بما غنموا (٣) .

وهكذا انتقم ثيوكتيستوس للهزيمة التى الحقها مسلمو كريت بحملته فى عام ٨٤٣ م / ٢٢٨ هـ . على ان الاجل لم يمتد به لكى يقوم بمزيد من المحاولات العسكرية اثناء صراعه مع كريت اذ لم تلبث الظروف أن تغيرت . فبعد أربعة عشر عاما من وصاية ثيودورا ، بلغ الامبراطور ميخائيل الثالث سن الرشد ، وبدأ يضيق بوالدته ، التى حرمته من ممارسة شئون الحكم ، ولم تكتف بذلك ، بل اخذت تتدخل فى حياته الشخصية . وقد ازداد ضيقه نتيجة لتحريض خاله بارداس ، الذى رغب هو الاخر فى التخلص من منافسة ثيوكتيستوس بعد أن انفرد بالسلطة وحده . اضيف الى ذلك ان الامبراطور ميخائيل الثالث لم ينجب وريثا ، ومن ثمة فقد طمع بارداس فى

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن تبرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ، ص ٢٩٤ .

(٢) الاشتوم هو موضع فى شمال دلتا النيل يطل على البحر المتوسط ، ويعرفه ياقوت بقوله : ومن شمال دمياط يصب ماء النيل الى البحر الملح فى موضع يقال له الاشتوم عرض النيل هناك مائة ذراع « ويمين هذا الموضع تنيسل ستة فراسخ ، وكان له سور وبابان من الحديد كان الخليفة المعتصم قد امر بصنعهما .

انظر ، ياقوت : معجم البلدان ، ج ٨ ، طبعة بيروت ، ص ٤٧٣ ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ .

(٣) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، المقرئى : الخطط ، ج ١ ، ص ٣٤٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ .

ان يرث العرش الامبراطورى . وهكذا قربت الظروف بين ميخائيل وخاله بارداس وجعلتهما حليفان طبيعيان يسعيان معا للتخلص من سيطرة ثيودورا وتيوكتيستوس . وقد تم تنفيذ المؤامرة ضد هذا الاخير ، حين هاجمه جماعة من اتباع الامبراطور ، واغتالوه بالقصر الامبراطورى فى ٨٥٦ م (٢٤٢ هـ) ثم اعلن السناتو ميخائيل امبراطورا وحيدا ، وكان اول عمل قام به هو ادخال والدته الدير (١٠)

والصورة التى وصلتنا عن ميخائيل الثالث تظهره فى مظهر الشخص المنغمس فى اللهو ، المدمن على الخمر ، حتى اطلقت عليه المصادر البيزنطية لقب «السكير» . ولكن يجب ان ننظر بعين الحذر الى ما جاء فى هذه المصادر ، اذ حرص اباطرة الاسرة المقدونية على تلطيخ سيرة الاباطرة العمورين و اظهارهم فى مظهر سئ ومنفر . على ان المؤكد - كما يذكر المؤرخ اوستروجورسكى - ان الامبراطور ميخائيل لم ينجح الى الفضيلة فى حياته ، وان شخصيته جمعت المتناقضات ، فبينما نجده لا يدخر جهدا فى الدفاع عن الممتلكات البيزنطية ضد الاعداء ، ويقود الجيوش بنفسه فى ساحة القتال الا انه فى نفس الوقت ، كان ذا شخصية ضعيفة ، يسيرها الآخرون ، متبعا لنزواته ومحبا للهو (٢) .

(1) Monachus op. cit. p. 823; Symeon Magistri op. cit. p. 658; Theophanes Continuatus p. 203.

انظر كذلك المرجعين التاليين :

Ostrogorsky, History of the Byzantine State,
p. 197.; Vasiliev op. cit., p. 359.

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 198.

وهكذا فقد اتاحت الفرصة للقيصر بارداس للسيطرة على الحكم وتصريف شئون الامبراطورية بشكل يكاد يكون تاما لمدة عشر سنوات (٨٥٦ - ٨٦٦ م / ٢٤٢ - ٢٥٢ هـ) اظهر خلال هذه المدة كفاءة ممتازة ، فعمل على اصلاح دائرة القضاء ، وقوم بعض العيوب الموجودة في الجيش ، واهتم بنشر التعليم ، وابدى تفهما واضحا لشئون الكنيسة ، وحرص على ملئ الخزينة الامبراطورية بالاموال ، كما دافع عن الدولة ضد الاعداء المتربصين بها من كل جانب (١) .

وجدير بالذكر انه خلال هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الدولة البيزنطية وجزيرة كريت الاسلامية ، اظهر المسلمون بكرية تفوقا عسكريا عظيما على الدولة البيزنطية ، فقد اخذوا يذرعون البحر الايجي جيئة وذهابا دون ان يعرض لهم احد . وقد انتهزوا فرصة هجوم الروس على القسطنطينية في عام ٦٠ م (٢٤٥ - ٢٤٦ هـ) ، وقاموا بغارة كبيرة على جزر السيكلاديز ويذكر صاحب صلة ثيوفان ان الاسطول الكريتي الذي قام بهذه الغارة كان يتكون من سبع وعشرين سفينة حربية ، وبهذا الاسطول هاجم المسلمون جزر السيكلاديز واستباحوها ، كما هاجموا شواطئ آسيا الصغرى واستولوا على غنائم وفيرة وعلى العديد من الاسرى (٢) . ثم عاود الكريتيون الاغارة على جزر البحر الايجي واستولوا على جزيرتي لسبوس Lesbos (٣)

(1) Finlay, History of Greece, vol 11, p. 191, Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, vol 1, pp. 359—360.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 196.

وقد اشار إلى هذه الغارة ايضا المؤرخ البيزنطي المتأخر نسبيا زوناراس ولكن بإيجاز شديد ، انظر :

Zonaras, op. cit., Tomus III, p. 404.

(٣) بشأن جغرافية هذه الجزيرة انظر الفصل الاول من البحث.

وميتلين Mitylen (١) ، وبقيت هاتان الجزيرتان تدينان بالتبعية لكريت
الاسلامية لفترة طويلة من الزمن . وفي عام ٨٦٢ م (٢٤٧ - ٢٤٨ هـ) ، قام
مسلمو كريت بالاغارة على دير جبل آتوس ، فروع رهبانه ولاذوا بالفرار .
وفي عام ٨٦٦ م (٢٥٢ هـ) اغاروا على جزيرة صغيرة تدعى نيون Neon
بالقرب من آتوس واسروا بعض سكانها ، ثم عاودوا الاغارة عليها مرة
اخرى بعد فترة وجيزة (٢) .

وهكذا وجدت الامبراطورية البيزنطية نفسها امام عدو قوى ، روع
البحر الايجي والسواحل المطلة عليه بغاراته ، واصبح من الضروري القيام بعمل
ايجابي لوضع حد لهذه الغارات المتكرره على ممتلكاتها . ولتحقيق ذلك
اخذ القيصر بارداس في أعداد حملة على كريت تولى الاشراف عليها بنفسه ،
وقد اشتركت في هذه الحملة اساطيل الولايات البحرية الآسيوية وخيرة رجال
الامبراطورية من البحارة والعسكريين . ولكن ظروفها استجدت على مسرح
الاحداث عرقلت تحرك هذه الحملة وانتهى امرها بالفشل مثلما فشلت حملات
سابقة بيزنطية على كريت ، وكانت هذه الظروف خاصة بالمؤامرة التي
تزعمها باسيل المقدوني ، والتي انتهت باغتيال القيصر بارداس . وعلى هذا
فمن الالهية بمكان الاشارة الى باسيل ومؤامراته والآثار المترتبة عليها والتي

(١) تقع جزيرة ميتلين الى الجنوب من لسبوس وهي تمتاز بكثرة تعاريج سواحلها مما يهاها
وجود مجموعة من المرافق الطبيعية على جوانبها المختلفة ، والجدير بالذكر ان الجزيرة
قد خصمت في العصر الحديث الى جزيرة لسبوس . واصبحت اهم مدنها ، ويوجد
بها بعض الآثار التي ترجع الى العصور الوسطى . من بينها ١٤ جامعا و ٧
كنائس . انظر :

Encyclopdia Britannica, vol 13, p. 962.

(2) Theophanes Continuatus, Liber IV, p. 197.

وراجع كذلك ، فازيلييف : العرب والروم ، ص ٢٢٦ .

كان اهمها فشل المحاولة العسكرية ضد كريت ، والاطاحة بالاسرة العمورية وتأسيس اسرة جديده هي الاسرة المقدونية تربعت على العرش البيزنطى ما يقرب من القرنين من الزمان وان كان فى عهدهما قد تم توجيه اخر حملة كبيرة ضد كريت انتهت بالاستيلاء عليها .

ولد باسيل فى عام ٨١٢ م (١٩٦ - ١٩٧ هـ) ، واستقرت أسرته فى مدينة ادرنه ، وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات البلغار فى عهد الملك البلغارى كروم (٨٠٨ - ٨١٤ م) (١) ووقع باسيل واسرته اسرى فى ايديهم ، فحملوهم معهم ، وانتهى بهم المطاف الى الاستقرار مرة اخرى فى اقليم مقدونيا . وحينما بلغ باسيل الخامسة والعشرين من عمره التحق بخدمة الحاكم البيزنطى لاقليم مقدونيا ، ولكنه رأى ان الولايات اضيق من ان تحقق طموحه فصمم على ان يجرب حظّه فى القسطنطينية ذاتها ، فشد رحاله اليها ، وحين نزل بها التحق بالخدمة فى احد الاديرة وهناك رآه احد رجال الحاشية ويدعى ثيوفيلتزيس Theophilitzes وكان يمت بصلة القرابة للامبراطور ميخائيل الثالث ، فأعجب بقوته الجسمانية وألحقه بخدمته . وحدث ان اهدى الى الامبراطور ميخائيل احد الخيول الاصيله ، ولكنه كان فرسا شرسا لم ينجح احدا فى ترويضه فاقترح ثيوفيلتزيس على الامبراطور ان يقوم خادمه باسيل بمحاولة ترويض هذا الفرس ، وادى باسيل المهمة فى سهولة ويسر ، فاعجب به الامبراطور والحقه بالخدمة فى القصر الامبراطورى فى وظيفة قائد الحرس الاجنبى ، وخلال فترة وجيزة تنقل باسيل من منصب الى اخر

(1) Encyclopedia Britannica, vol 13, p. 498.

حتى وصل الى منصب كبير الحجاب مع حمله لقب بطريق Patrician (١) وهكذا توطدت الصداقة بين باسيل والامبراطور ميخائيل (٢) ، ثم بدأت الغيرة تدب في قلب باسيل نتيجة لاستيلاء القيصر بارداس على شئون الحكم في الامبراطورية فأخذ في تحريض الامبراطور ضد خاله القيصر . ولكن ميخائيل لم يستمع الى هذه الوشايات ، اذ كان يدرك تماما ان الامبراطورية في حاجة لمن يدبر شئونها وليس هناك من يقوم بهذه المهمة افضل من خاله بارداس . فلجأ باسيل الى حيلة بارعة بأن سعى لمصادقة زوج ابنة القيصر بارداس ويدعى سيمباتيوس Symbatius ووعده بأن يحل محل حماه القيصر في حالة القضاء على هذا الاخير . وبناء على ذلك قام سيمباتيوس بابلاغ الامبراطور ميخائيل ان خاله يدبر مؤامرة للاطاحة به وقتله ، وهنا صرح الامبراطور لسيمباتيوس وباسيل بقتل خاله القيصر بارداس (٣) .

(1) Genesius, op. cit., p. 109; Theophanes Continuatus, p. 231.

وجدير بالذكر ان لقب بطريق كان اعلى لقب يمنح للاعيان في بيزنطة حتى ذلك الوقت وهو لقب انشاء الامبراطور قسطنطين الأكبر خلال النصف الأول من القرن الرابع الميلادي ، وكان هذا اللقب يمنح في بادئ الأمر في نطاق محدود جداً ، وبمرور الزمن تزايدت اعداد من يحملون هذا اللقب حتى بدا وكأنه مباحا للجميع . انظر رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٢ (الترجمة العربية) .

(٢) يقال ان باسيل تزوج في هذه الفترة من مارية المقدونية ، ولكن الامبراطور ميخائيل اعادها الى مقدونيا وزوجة من ايدوكيا انجرينا Eudocia Ingerina عشيقه الامبراطور الذي ظل على علاقته بها بعد زواجها ، ويقال ان الامبراطور انجب منها ولدين هما الاسكندر وليو (وهما اللذين توليا العرش الامبراطوري فيما بعد) واضطر باسيل للاعتراف بهما كابنين شرعيين له . انظر :

Bury, History of the Eastern Roman Empire, p. 169; Finlay, op. cit., vol 11, p. 192.

(3) Symeon Magistri, op. cit., pp. 675—676, Theophanes Continuatus, vol V, p. 236

وقد ادرك القيصر ان هناك مكيدة تدبر ضده ، بعد ان لاحظ تغيرا في معاملة الامبراطور ميخائيل له ، فظهر تردده في الذهاب على رأس حملة كريت خوفا على حياته ، ولكن الامبراطور أكد له انه لا داعي للتردد او الخوف . وفي ٢٥ مارس ٨٦٦ م (٤ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وبعد الاحتفال باحد الاعياد الدينية في كنيسة العذراء بالقسطنطينية ، اقسم الامبراطور وباسيل امام البطريك على الآثار المقدسة انهما لا يضمرا ان شرا للقيصر وان عليه ان يصحب الحملة دون خوف (١) .

وفي ٧ ابريل ٨٦٦ م (١٦ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وبعد الاحتفال بعيد الفصح ، سافر الامبراطور وباسيل والقيصر برداس الى مكان اجتماع الحملة المزمع ارسالها الى كريت ، وكانت تعسكر في مكان يدعى كيبوس Cepos على فروع نهر المياندر في اقليم التراقيسيون ، وطال انتظار بارادس لأوامر الامبراطور بالرحيل الى كريت ، وحين نفذ صبره ، توجه الى خيمة الامبراطور ميخائيل في يوم ٢١ ابريل ٨٦٦ م (٣٠ ربيع الاول ٢٥٢ هـ) وطلب اليه ان يعجل باصدار اوامره بتحريك الحملة ، وعندئذ هجم عليه باسيل وسيمباتيوس وباقي المتآمرين ، وقطعوه اربا على مرأى من الامبراطور وبمقتل القيصر بارداس قائد حملة كريت ، انتهى امر هذه الحملة بالفشل ، ففرق شملها وعاد الامبراطور الى القسطنطينية (٣) .

(1) Symeon Magistri, op. cit., pp. 676—677.

(2) Monachus, op. cit., pp. 829—830; Symeon Magistri, pp. 678—679: Theophanes Continuatus, vol V, pp. 235—380; Genesius, op cit., p. 103.

(٣) وذكر المؤرخ البيزنطي المتأخر نسبياً زوناراس ذلك بقوله :

«Imprator Omissa Cretensi escpeditione Byzantium redu.»

وترجمتها باللغة العربية «اهمل الامبراطور حملة كريت وعاد إلى بيزنطة» وذكر المؤرخ كيدر ينوس نفس هذا المعنى ، انظر : كيدر ينوس : ٢٠ ، ص ١٨٠ . باليونانية.

وقد ادى مقتل القيصر برداس الى سخط عام بين جماهير العاصمة ،
وعبر احد الرهبان عن هذا السخط حين رأى الامبراطور يعبر احد الطرق
فصاح به قائلاً : «حيّاك الله ايها الامبراطور تحية من حملتك المنتصرة ، لقد
عدت وانت ملطخ بالدم ، وهذا شأنك وحدك» . وانتهى الامر بأن انقض
عليه الحرس الامبراطورى والقوا القبض عليه ، ولكن الاهالى نجحوا فى
تخليصه من ايديهم وحمايته (١)

وبعد مقتل القيصر بارداس ازدادت اواصر الصداقة بين الامبراطور
ميخائيل وباسيل المقدونى ، فقام الامبراطور بتبنيه كما منحه لقب ماجستر
Magistrus (٢) ثم قرر رفعه الى العرش الامبراطورى بأن يصبح شريكا
له فى الحكم ، حيث كان نظام الحكم فى بيزنطة يسمح بتعدد الباطرة
الجالسين على العرش

فقد كان العرش البيزنطى فى المقام الاول انتخابيا وكان من لهم حق
الانتخاب هم السناتو ، والجيش ، وشعب القسطنطينية ، فكان لزاما ان تنادى
هذه الهيئات او واحدة منها بامبراطور ، ثم تمارس شعائر تتويجه ، حتى
يصبح حكمه عندئذ مطلقا يستوجب رضاء الناس . على انه ان ظهر انه غير
مقتدر جاز لاي واحد من هذه السلطات الثلاث الناجبة ان تعلن بدلا منه

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 677.

(2) Theophanes Continuatus, p. 238.

هذا ويعتبر لقب الماجستر أعلى لقب شرف يمنح لكبار القوم ، وبظهوره فى ذلك الوقت
من عام ٨٦٦ م ، أصبح أعلى من لقب البطريرك الذى سبقت الاشارة اليه . والجدير بالذكر
ان المؤرخ رانسيمان يذكر أن لقب الماجستر ظهر فى القرن العاشر الميلادى ، ولكن
اتضح الان ان هذا اللقب ظهر فى أواسط القرن التاسع الميلادى . انظر رانسيمان : الحضارة
البيزنطية ، ٩٢ .

امبراطورا جديدا . وفي الواقع ان مبدأ الانتخاب هذا كان يخضع لتعديل اساسي ، هو أن من صميم حقوق الامبراطور في الولاية والسلطان ، انه يستطيع ان يضم اليه بحق الاختيار اباطرة آخرين ، حتى لا تتعرض الامبراطورية مطلقا لحدوث فترة شغور في ولاية العرش . غير ان كان لابد لمن لهم حق الانتخاب ان يعلنوا موافقتهم الرسمية على هذا الاختيار بالهتاف لذلك فقد تعدد الاباطرة المتعاصرون وربما وصل عددهم في بعض الاحيان الى خمسة . على ان امبراطورا واحدا فقط هو الذي يمارس السلطة الحقيقية ويميز بلقب اوتوقراطور باسيليوس اما الآخرون فهم شركاء بالاسم فقط او شركاء خاملون لا يتدخلون في شئون الحكم . فاذا مات في الاوتوقراطور باسيليوس ، خلفه في ممارسة الحكم بصورة آليه من يليه في الاسبقية والاقدمية . وتحقيقا لهذا المبدأ اراد الامبراطور ميخائيل الثالث ان يصبح باسيل المقدوني زميلا له على العرش . وفي يوم ٢٦ مايو ٨٦٦ م (٤ جمادى الاول ٢٥٢ هـ) واثناء احد الاحتفالات في كنيسة سانت صوفيا اعلن باسيل المقدوني امبراطورا وقد اورد المؤرخ البيزنطي المعاصر موناخوس نص هذا الاعلان ، الذي قرأه على الجميع السكرتير الامبراطوري المدعو ليو كاستور Leo Castor وكان نصه كالآتي : « لقد تأمر على القيصر بارداس ليذبحني ، ولهذا السبب اقنعني بترك المدينة (القسطنطينية) . لو لم أباخ بالمؤامرة بواسطة سيمباتيوس وباسيل ، لما كنت على قيد الحياة الآن . وقد مات القيصر نتيجة اثمه . هذه رغبتى ، مادام باسيل يخلص لى ، ويحمى سيادتي ، ومادام قد انقذني من

(١) رانسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ص ٦٥ - ٦٧ .

اعدائي ، ويحمل لى الكثير من الود ، لذا يجب ان يكون حارسا وقيما على
امبراطوريتي ، ويجب ان ينادى به الجميع امبراطورا» (١) .

وعقب ذلك سلم ميخائيل تاجد الى البطريرك ، الذى وضعه على المائدة
المقدسة وأدى الصلاة فوقه ، ثم توج به الامبراطور ميخائيل ، الذى رفعه
عن رأسه ووضع على رأس باسيل المقدوني ، الذى اصبح منذ تلك اللحظة
الامبراطور باسيل (٢) . وقد استمر الحكم المشترك لهما ما يقرب من عام
ونصف العام ، كان باسيل خلال هذه الفترة هو المتصرف الوحيد فى شئون
الحكم ، اما ميخائيل فقد زاد انغماسه فى اللهو والشراب (٣) . ولكن لم
تلبث العلاقات بينهما ان ساءت ، فأثناء احدى سهرات الامبراطور وكان
برفقته باسيل وزوجته ايدوكيا انجربنا وأحد أصدقائهم ويدعى البطريرك
باسيليكيينوس Patrician Basilikinos وبعد أن

اسرف ميخائيل فى الشراب كعادته ، طلب من البطريرك باسيليكيينوس ان
يخلع الخلف الاحمر (احد شارات الملك) من قدميه ويرتديها هو ، فتردد

(١) ونص الاعلان باللغة اللاتينية هو :

«Bardas Caesar Contra me coniuravit, ut neci me traderet eaque ratio
est cur me eduxerit ex urbe. Ac nisi mihi a Symtatio et Basilio de-
tectae essent insidiae non esset mihi iam vita superstes. Porro mor-
tuus est Suo is scelere. Volo autem, Basilium ut qui fidelis sit meam-
que custodiat maiestatem, Ac qui ab hoste me liberaverit, multaque
me prosecutione amoris vi, mei esse imperu custodem, eiusque iura
prospicere et ab omnibus salutari tanquam imperatorem,» Monachus
op. cit., p 832

انظر : وقد أورد هذا النص كذلك المؤرخ البيزنطى الماجستر سيميون ، انظر :

Symeon Magist., op. cit., pp. 679—680.

(2) Monachus, op. cit., p. 833.

باسيليكيнос ونظر إلى باسيل ، الذى أشار إليه بالأفعال . ولكن الامبراطور ميخائيل ، أصر على أن يقوم البطريق بكل ما أمره به ، ثم صاح بباسيل قائلاً : «ان الخلف الأحمر يليق به أكثر منك ، لقد توجتكم امبراطورا ، وما تزال لدى السلطة لكى أتوج امبراطورا آخرًا إن شئت» (١) . ثم أخذ يؤكدهم أنه جاد تماما فى رغبته فى تنويع باسيلكيнос امبراطورا . ومنذ هذه اللحظة بدأ باسيل يفكر فى الخلاص من الامبراطور ميخائيل ، حتى تم له ذلك فى ليلة ٢٥ سبتمبر ٨٦٧ م (١٩ رمضان ٢٥٣ هـ) حين هجم هو وآخرين ممن اشتركوا معه فى المؤامرة ، على الامبراطور ميخائيل فى حجرة نومه واغتالوه وفى الصباح أعلن على الشعب نبأ وفاة ميخائيل الثالث آخر أباطرة الاسرة العمورية ، فلم تبد الجماهير اهتماما كبيرا بالنبأ . ثم أعلن باسيل المقدونى امبراطورا وحيدا على العرش البيزنطى (٢) . وكان ذلك بداية لإنشاء أسرة جديدة فى التاريخ البيزنطى هى الاسرة المقدونية ، التى استمرت فى الحكم فترة طويلة من الزمن لعبت خلالها دورا هاما فى الصراع مع جزيرة كريت الاسلامية ، حتى تم لها استعادتها من المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح فى الفصلين التاليين .

(1) Theophanes Continuatus, p. 249.

(2) Monachus, op. cit., pp. 836—838; Theophanes Continuatus; p. 242; Zonaras, op. cit., Tomus III, pp. 415—418.

الفصل الثالث

صراع القوى البحرية الاسلامية ضد بيزنطة

(٨٦٧ - ٩٤٦ م)

- اهمية عصر الاسرة المقلونية .
- تنظيم الاسطول الاسلامى ، السفن والأسلحة المستخدمة فى الحرب البحرية عند المسلمين .
- نظام البحرية البيزنطية ، رتب العاملين بالاسطول واعطياتهم ، انواع السفن والأسلحة بالاسطول البيزنطى .
- الصراع بين كريت وبيزنطة فى عهد الامبراطور باسيل الاول (٨٦٧ - ٨٨٦ م)
- هجوم أساطيل كريت ومصر والشام بقيادة ليون الطرابلسى على مدينة سالونيك عام ٩٠٤ م .
- حملة هيميريوس على كريت عام ٩١١ م وفشلها ، ثم مهاجمة ليون الطرابلسى لها وقضاؤه عليها .
- الحملة البيزنطية عام ٩٤٩ م على كريت بقيادة قسطنطين جوجيل وهزيمتها .

استعرضنا فى الفصل السابق بداية الصراع بين جزيرة كريت الاسلامية والدولة البيزنطية فى عهد الاسرة العمورية ، والمحاولات التى قام بها أباطرة هذه الاسرة لاستعادة كريت ، والظروف السياسية التى عرضت لهم سواء فى صقلية أو فى آسيا الصغرى ، وانعكست آثارها على صراعهم مع كريت فى هذه المرحلة . ثم استعرضنا الظروف الداخلية فى بيزنطة ، تلك الظروف التى

لا بست حملة عام ٨٦٦ م على كريت ، وأدت إلى اغتيال القيصر بارداس ، وبذلك اتبحت الفرصة لأن يتوج باسيل المقدوني امبراطورا مشاركا لامبراطور ميخائيل الثالث آخر اباطرة الاسرة العمورية ، ثم المؤامرة التي اطاحت به ، وانفراد باسيل المقدوني بالعرش البيزنطي مؤسسا الاسرة المقدونية التي استمرت في الحكم قرابة القرنين من الزمان (٨٦٧ - ١٠٥٦ م / ٢٥٣ - ٤٤٨ هـ) .

ورغم الطريق الشائك المليء بالعنف الذي سلكه باسيل للوصول إلى العرش البيزنطي ، إلا أنه في الواقع امتاز بصفات جعلته من أشهر وأقدر أباطرة الدولة البيزنطية ، إذ كان جنديا ممتازا ، أولى عناية فائقة للجيش والاسطول البيزنطي ، وقاد جيوشه الظافرة حتى بلغ بها ضفاف نهر الفرات كما كان اداريا ماهرا ، أعاد تنظيم الادارة المالية بالدولة ، وقبض بيد من حديد على زمام الامور ، وأقام حكومة قوية ذات نظم واضحة . ولتعزيز النظام الاداري والسياسة الداخلية للدولة ، اصدر باسيل المجموعة القانونية الاولى التي ظهرت في عهد الاسرة المقدونية، وهي التي تعرف باسم Procheiros Nomos أي «القانون الميسر» . وخلاصة القول أن باسيل قد آل على نفسه النهوض بالامبراطورية البيزنطية عن طريق اصلاح شئونها في الداخل وارجاع هيبتها في الخارج بعد الهزائم المتلاحقة التي حلت بها في فترات الضعف والانحلال (١)

وينقسم تاريخ الاسرة المقدونية الى قسمين يختلفان في طول مدتهما ، كما يتباينان في الاهمية . والقسم الاول يمتد من سنة ٨٦٧ - ١٠٢٥ م ، وقد

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ٧ - ٨ ، رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٨٣ . انظر كذلك :

Gibbon, History of the Decline and full of the Roman Empire, pp. 348—349; C.M.H., Vol IV p. 51; Hussey, the Byzantine world p. 34.,

تولى العرش البيزنطى خلاله الاباطرة ، باسيل الاول (٨٦٧ - ٨٨٦ م) ،
وليوس السادس (٨٨٦ - ٩١٢) ، وقسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٩ م) ،
ورومانوس الاول ليكابينوس - قسما للعرش مع قسطنطين السابع - (٩١٩ -
٩٤٤ م) ، ورومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) ، ونقفور فوقاس - وصيا
على الامبراطورين الصغرى باسيل الثانى وقسطنطين الثامن - (٩٦٣ - ٩٦٩ م)
ويوحنا تريمسكس - باعتباره هو الآخر وصيا على الامبراطورين
الشرعيين - (٩٦٩ - ٩٧٦) واخيرا باسيل الثانى (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) الذى
امتد حكمه بمفرده نصف قرن .

وبصفة عامة ، فقد امتاز اباطرة هذه المرحلة بالكفاءة فى الحكم ،
والخبرة الكبيرة فى الامور الدبلوماسية كما كانوا محاربين مرموقين ،
وادارين ممتازين ، دأبوا على العمل من اجل زيادة ثروة البلاد ، وهدفوا الى
جعل الامبراطور البيزنطية هى الدولة المسيطرة فى الجزء الشرقى من حوض
البحر الابيض المتوسط . ونصيرة الحضارة الهلنستية ، والعقيدة الاثو كسية ،
ومحط انظار كل الشعوب المتحضرة ، وقد حققوا كثيرا من الانتصارات
العسكرية على المسلمين والبلغار والروس ، واسهم فى تحقيق هذه الانتصارات
عدد من القادة الكفاء امثال يوحنا كوركواز ، ونقفور فوقاس ، ويوحنا
تريمسكس وبلغت الانتصارات ذروتها فى عصر الامبراطور باسيل الثانى الذى
تمتع بصفات جعلته من اشهر الاباطرة البيزنطيين . ويقول المؤرخ الفرنسى

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ١٠٧ - ١١٠ ، رانسيان :
الحضارة البيزنطية ، صص ٣٧٢ - ٣٧٤ . انظر ايضا :

Diehl, Histoire de l'empire Byzantine, pp. 90—96; Bailly, Byzance
pp, 211—212; Hussey, op cit. pp. 33—34, p. 163.

شلومبرجيه Schlumberger ان الامبراطورية البيزنطية لم تبلغ منذ زمن جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) وهرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) من القوة والسلطان مثلما بلغت في مستهل عام ١٠١٩م بما حرزته باسيل الثاني من انتصارات باهرة وبدأت المرحلة الثانية من تاريخ الاسرة المقدونية بعد وفاة باسيل الثاني في ١٠٢٥ م ، وامتدت حتى عام ١٠٥٦ م . وخلال هذه المرحلة من التاريخ البيزنطي ، افتقرت الامبراطورية الى القيادات الصالحة ، كما كثرت بها الاضطرابات الداخلية والفتن . وقد اعتلى العرش خلال هذه المرحلة ، الاباطرة ، قسطنطين الثامن (١٠٢٥ - ١٠٢٨ م) ، ورومانوس الثالث أرجيروس - زوجا للامبراطورة الشرعية زوى المقدونية - (١٠٢٨ - ١٠٣٤ م) ، وميخائيل الرابع البفلاجوني - وهو الزوج الثاني لزوى - (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) . وميخائيل الخامس الجلفاط - وهو ابن له بالتبني - (١٠٤١ - ١٠٤٢ م) ، ثم زوى وثيودورا (ابريل ١٠٤٢ - يونيو ١٠٤٢ م) وبعد ذلك قسطنطين الثامن - وهو الزوج الثالث لزوى - (١٠٤٢ - ١٠٥٥ م) واخيرا ثيودورا - اخر افراد الاسرة المقدونية - (١٠٥٥ - ١٠٥٦ م) (٢) . ويعقب المؤرخ الفرنسى ديل على هذه الفترة قائلا انه كان من سوء حظ الدولة البيزنطية ان وجدت فيها وقتذاك حكومات من النساء او من حكام غير اكفاء ، فكان هذا هو نقطة البداية نحو ازمة جديدة في التاريخ البيزنطي . على ان اهم ما حققه اباطرة الاسرة المقدونية من انتصارات داخلية ، هو كسبهم لشعور الشعب وولائه بما حققوه له من امجاد ، فأخذت الجماهير

(1) Schlumberger L'éopée Byzantine, vol 11, p. 413.

(2) Hussey op. cit., p. 163.

(3) Diehl op. cit., p. 131.

تنظر الى افراد هذه الاسرة نظرة ملؤها الاحترام ، كما آمنت بأنهم أصحاب الحق الشرعى فى حكم البلاد . واذا كان بعض الاباطرة الدخلاء على هذه الاسرة امثال رومانوس ليكابينوس ، ويوحنا تريمسكس ، ونقفور فوقاس ، قد اغتصبوا السلطة من البيت المقدونى ، الا انهم حكموا فى ظله ولم يقضوا على هذا البيت (١) . اما الفريق الاخر من هؤلاء الاباطرة الدخلاء الذين راودتهم نفوسهم بمحاولة القضاء على السيادة المقدونية ، فقد لقوا من الشعب شر الجزاء (٢) .

لم يكن من المتوقع ان يسود السلام بين كريت والدولة البيزنطية فى هذه المرحلة الجديدة من مراحل العلاقات السياسية بينهما ، نظرا لحرص اباطرة هذا العصر على حفظ الممتلكات البيزنطية ، واستعادة نفوذ بيزنطه فى شرق

-
- (١) عمر كال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، صص ١٠٩ - ١١٠ .
(٢) يروى التاريخ البيزنطى العديد من المواقف التى اثبت فيها الشعب تمسكه بأفراد الأسرة المقدونية وولاءه لها . وقد تجلّى ذلك بشكل واضح فى عام ١٠٤٢م حين رغب الامبراطور ميخائيل البفلا جوفى فى تأسيس أسرة جديدة يقضى بها على الأسرة المقدونية ، فقبض على الامبراطورة الشرعية زوى Zoë ابنة الامبراطور قسطنطين الثامن ، ونفاها إلى احدى الجزر المواجهة للقسطنطينية . ولما علمت الجماهير نبأ نفى حاكمهم سلبا البيت المقدونى ثارت ثورة عارمة واجبرت ميخائيل على اعادتها واطهارها للشعب ، الذى لم يكتف بذلك وانما اسرع افراده وانتزعوا شقيقها ثيودورا Theodora من الدير الذى كانت تعيش فيه والتفوا حولها فى مظاهرة شعبية مهيبه حتى انتهوا إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث اعلن السناتو ورجال الدين والشعب - صفوته ورعاه - خضوعهم التام لها ونادوا بها امبراطوره وذلك فى ٢١ ابريل ١٠٤٢ م . اما ميخائيل البفلا جوفى فقد تم تكحيله وابعاده عن العرش . وهناك مواقف اخرى مماثلة حدثت فى عهد الامبراطور قسطنطين مونوماخوس (١٠٤٣ - ١٠٥٤ م) . انظر :

Psellus chronographia Tomus I pp. 100--107; Zonaras Epitomae Historiarum Liber XVIII p. 611. Ramband Etudes sur l'histoire Byzantine p. 236; Diehl Figures Byzantines, p. 280; Foord the Byzantine Empire, p. 308.

البحر الابيض المتوسط . وفي نفس الوقت ، كان المسلمون بكريت حريصين على الاحتفاظ بالجزيرة تحت سيادتهم ومواصلة النضال ضد الدولة البيزنطية . وقد امتازت هذه المرحلة من مراحل الصراع بين الطرفين بظاهرة هامة ، هي ان بيزنطة لم تعد تواجه كريت وحدها على النحو الذى حدث فى الفترة السابقة من الحكم الاسلامى للجزيرة ، فان الوضع اختلف منذ اواخر الستينات من القرن التاسع الميلادى - اى منذ بداية تأسيس الاسرة المقدونية فى بيزنطة بعد أن ظهرت روح جديدة من التعاون بين اسطول كريت والاساطيل الاسلامية الاخرى فى البحر المتوسط ، وعلى الاخص اسطول الشام ، وذلك فى مواجهة البحرية البيزنطية .

والواقع أن هذا التعاون فى المجال البحرى بين كريت وباقي القوى الاسلامية فى البحر المتوسط يكتنفه الغموض الشديد ، فان المصادر المعاصرة والمتأخره ، العربية والبيزنطية لا تلقى أية أضواء على ماهية وكيفية ومدى هذا التعاون . فلم نعثر على وثائق او نصوص تؤكد تأكيذا قاطعا ان اتفاقية او معاهدة مثلا ، تمت بين كريت وأى من الاساطيل الاسلامية بخصوص التعاون معافى عمل عسكري مشترك ضد البيزنطيين . وعلى أية حال ، يمكن القول ان هذا التعاون البحرى بين المسلمين ، انما جاء نتيجة لما بلغته البحرية البيزنطية من ازدهار وتقدم ، وعلى الاخص فى اوائل عهد الاسرة المقدونية ، فكان رد الفعل عند المسلمين هو تعاونهم وتكتلهم ومساندتهم لاسطول كريت حتى يستطيع مواصلة جهوده العسكرية ضد الدولة البيزنطية ويرجع هذا التعاون ايضا الى نمو القوى البحرية الاسلامية فى شرقى البحر الابيض المتوسط وغربه

(١) لويس : القوى البحرية ، ص ٢٢٧ ، ومايعدها .

يضاف لذلك ، تلك الرابطة التي جمعت بين المسلمين ، سواء في كريت او في البلاد الاسلامية الاخرى ، وهي الرغبة الخالصة للجميع في الجهاد في سبيل الله ، خصوصا بعد ما شاع في ارجاء الوطن الاسلامي ، الدور الكبير الذي اضطلعت به جزيرة كريت في الجهاد ضد البيزنطيين ، والذي اكده احد المعاصرين وهو ابن حوقل الذي قال ان كريت كانت بما فيها «من الرجال والعدة والعتاد ، كالنار لهيبتها لايفتر ، واوارها لايقصر ، وكان اهلها ينكون في بلد النصرانية صباح مساء ، نكاية بينه ظاهره ، يوجبها لهم قربهم من مطالبهم ، ومجاورتهم للروم في مساكنهم (١) » وأيد ابن حوقل في ذلك أحد الجغرافيين المتأخرين نسبيا وهو ياقوت الذي ذكر ان كريت « كانت من اعظم بلاد المسلمين نكاية على الروم (٢) » وقد هيأ لها هذا الدور الفرصة لان تنبؤا مكانا مرموقا في طليعة القوى الاسلامية المواجهة للعدو المشترك ولهذا اصبحت معظم الاساطيل الاسلامية ترنو للاشتراك مع اسطول كريت في عملياته العسكرية ، دفاعا عن كيانها ، وردا لهجمات العدو المنتظرة .

ونظرا للدور الكبير الذي لعبته البحرية في هذه المرحلة من مراحل الصراع بين كريت وبيزنطة ، يجدر بنا ان نلم بنبذه سريعه عن نظام البحرية عند كل من المسلمين والبيزنطيين ، استكمالا للمعالجة الشاملة للموضوع .

كان رجال الاسطول الاسلامي يتألفون من المقاتلين والملاحين ، وكان يرأس المقاتلين بكل سفينه حربيه «قائد» او «مقدم» يتولى تدريب الجند على القتال في البحر . اما الملاحون في السفينه فكان لهم رئيسا يعرف باسم «الاشتيام» (٣)

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، الطبعة الثانية ، ليدن ١٩٣٨ ، ص ٢٠٣

انظر كذلك الفصل الثاني من هذا البحث ص ١٠٢-١٠٥ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ (طبعة بيروت) .

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ١١ ، ص ٣٠٤ .

وكان طاقم المركب الحربى الكبير يشتمل على عشرة افراد هم : ريس
ريح ، وماسك دفة ، وقبطان ، واربعة نجارين ، وطبيب ، وجراح ،
وجلفاط (١)

وكان على الاسطول قائد عام يدعى «امير البحر» أو «والى البحر» أو
«امير الماء» (٢) ومن واجباته المحافظة على المراكب وتقويتها وادخار آلاتها
حتى اذا تلف شئ منها وجد ما يخلفه ، وان يختار القواد والرؤساء الذين
لديهم خبره بمسالك البحر ومراسيه وعلامات الرياح والحركات البحرية
الخاصة بالمد والجزر وغير ذلك من امور البحر . وعليه كذلك ان يشرف على
شحن المراكب بالاسلحة الخاصة بالقتال وان يحذر الاماكن التى تكثر بها
الشعاب وان كان القتال على مقربة من البر والسواحل والجزر ، فمن واجبه
ان يجعل عيونه على قمم الجبال حتى لا يفاجأ بخطر يأتيه من ناحيتها ، كما
يجب عليه ان يكثر من شحن السفن بالمؤن والمياه بكميات مضاعفة (٣) . هذا
وكانت تجرى الارزاق على رجال الاسطول كل بحسب رتبته (٤) .

اما عن السفن التى استخدمها المسلمون فى حروبهم البحرية فى هذه الحقبة
من الزمن ، فمنها «الشوانى» ومفردها «شبنى» ، وكانت من اهم القطع التى
يتكون منها الاسطول الاسلامى لانها كانت من اكبر السفن حجما ومن اكثرها

(١) ابن المنكى : الاحكام المملوكية والضوابط الناموسية فى فن القتال فى البحر ، مخطوط
مصور ، لوحة رقم ٢٠ .

(٢) الحسن بن عبد الله : آثار الاول واخبار الدول ، ص ١٩٥ ، الطبرى : تاريخ الام
والملوك ، ج ١١ ، ص ٢٨٢ ، راجع كذلك ، حسن إبراهيم حسن . تاريخ الاسلام
السياسى . ج ٣ ، ص ٢٨٨ ، سعاد ماهر : البحرية فى مصر الاسلامية ، ص ٢٧٢ .

(٣) الحسن بن عبد الله : نفس المصدر ، ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) الطبرى : نفس المصدر ، ج ١١ ، ص ٣١٩ .

استعمالا لحمل المقاتلين . وكانت مزودة بالابراج والقلاع للدفاع والهجوم كما انها مزودة بقاذفات النار الاغريقية . وكان متوسطا تحمله الشينى الواحده مائه وخمسون رجلا ولها مائه مجداف ، وبعضها يسير بمائة واربعين مجدافا ويرى المؤرخ ارشيبالد لويس ان المسلمين اخذوا هذا النوع من السفن عن البيزنطيين ، الذين كانوا اول من بنى هذه الشوانى (٢) . و«الميريه » وهى نوع من سفن البحر والنهر عرفت فى اواخر القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ، ومن نص اورده الطبرى (٣) يفهم منه ان لهذه السفن اربعون مجدافا ، وكانت تستخدم فى القتال . و«الحراقات» وهى سفن حربية مجهزه بآلات لقذف النيران على الأعداء ، ويذكر المؤرخ دوزى ان هذه السفن قد استخدمها المسلمون بصفة خاصة فى حالات الحصار البحرى لمدن الاعداء ومن السفن (٤) المقاتلة كذلك «الشذا» و«الشلنديه» وقد اخذ المسلمون هذا النوع الاخير عن البيزنطيين (٤) . اما السفن التابعة للاسطول والتي اقتصر استعمالها على النقل فمنها «العشاريات» وهى لنقل المقاتلين والعتاد وتسير بعشرين مجدافا (٥) . و«المعابر» وهى سفن صغيرة الحجم استخدمها رجال الاسطول للعبور من شاطئ لآخر فى وقت الحرب وكذلك لنقل الاسلحه (٦)

(١) ابن ماقى : قوانين الدواوين ، ص ٣٣٩ ، عبد الرحمن ذكى : المتلاح فى الاسلام ، ص ٣٦ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ص ٣٢٥ .

(٣) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، حوادث عام ٢٦٧ هـ .

(5) Dozy : Supplement aux Dictionnaires Arabes, Tome premier Paris, 1881, p. 274

(٤) انظر التعريف بالشلند به ص ١٤١ من هذا الفصل

(٥) المقرئى : الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٢ ، السيوطى : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ١٩٩ .

(٦) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، ج ١١ ، ص ٣١٦ .

«والعزازی» وكان استعماله خاصا بنقل المؤن فقط (١) . «والمرکوش»
واقصر على حمل الماء (٢) . «والطريده» وهى لنقل الخيل وكان اكثر ما
يحمل فيها اربعون فرسا (٣) .

ومن النصوص التى أوردھا المؤرخون البيزنطيون اثناء وصفهم لبعض
المعارك التى جرت بين البيزنطيين ومسلمى كريت ، يأتى ذكر لبعض انواع
السفن المستخدمة فى الاسطول الكريتى ، ومنها على سبيل المثال سفن تدعى
كيمباريا Cumbaria ونوع آخر يدعى أنراريا Oneraria (٤) . وقد
ذكر الامبراطور ليو السادس فى كتابه «فنون الحرب» Tactica نبذات
مختصرة عن هذه السفن ، ومنها يتضح ان الكيمباريا من السفن المقاتله
المحدودة الاتساع ولها ثلاثة صفوف من المجاديف ، وقد حرص الامبراطور
ليو على ان يشير الى ان المسلمين — بصفة خاصة — قد استخدموها فى حروبهم
البحرية (٥) . اما الانراريا فهى من السفن التى تستخدم فى النقل ولاستخدم
فى القتال ، وكان استعمالها مقتصرًا على نقل الاسلحة الحربية والمؤن والالات
التي تستخدم فى الحصار ، كما استخدمت كذلك لنقل الخيل (٦) .

والى جانب السفن الكبيرة كان الاسطول يشتمل كذلك على زوارق
صغيرة سريعة الحركة تستخدم فى الانهار الضيقة والخلجان التى لا تستطيع
السفن الكبيرة الدخول اليها ، كذلك كانت تستخدم لاحتراق سفن الاعداء

(١) ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٢) ابن مائى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ .

(٣) ابن مائى : نفس المصدر ، ص ٣٣٩ .

(4) Theophanes Continuatus vol. V p. 298.

(5) Leonis Philosophi, Tactica, parisina, 1863, p. 1011.

(6) Ibid, p. 994.

فذاقنى بها النيران وتهرب اولتقطع عليها الطريق ، فاذا هوجمت لاذت بالفرار الى الاماكن الضيقة فلا تستطيع السفن الكبيرة اللحاق بها (١) .

وفىما يتعلق بالاسلحة التى استخدمها المسلمون فى الحرب البحرية ، فمنها السهام والنشاب والرماح والقسى والخناجر والباسليقات وهى سلاسل بعضى فى رأسها رمانه من الحديد ، والمجانيق ، والعرادات وهى صورة من المجانيق . وقد استخدم المنجنيق لالقاء قوارير ما يسمى بدهن المنجنيق ، وهو خليط من النفط والكبريت وبعض المواد الدهنية ، وتقلب هذه المواد كلها على النار حتى تصبح شيئا واحدا يوضع فى قارورة من الجص وترمى به المجانيق على سفن الاعداء ، فاذا وقعت القاروره على مكان ما فى السفينة لطخته بالدهن ، ثم يعملون على القاء بعض المشاعل على نفس المكان فيشتعل كله ولا تطفأ النار حتى تصير السفينه كلها رمادا (٢) . ومن الاسلحة التى استخدموها ايضا «اللجام» وهو عباره عن قطعة طويله من الحديد محدة الرأس جدا ، واسفلها مجوف كسنان الرمح تدخل من اسفلها فى خشبة كالقناة بارزة فى مقدمة السفينه يقال لها «الاسطام» فيصبح اللجام وكأنه سنان رمح بارز من مقدمة السفينه ، ويحتالون فى طعن سفن الاعداء به ، فاذا اصاب جانب السفينه المعادية بقوة نعبه حتى يخشى غرقه ، وحينئذ يطلب العدو التسليم وكان بعض الملاحون ممن يجيدون الغوص ، يغوصون فى الماء حتى يصلوا الى سفن الاعداء فينقبونها حتى يتسرب اليها الماء وتغرق . وفى حالة اقتراب سفن المسلمين من سفن الاعداء كان المسلمون يطرحون بينهما الواحا من الخشب

(١) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ١١٤ ، ص ٢٩٠ .

ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢١ .

(٢) ابن المنكلى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٨ .

كالجسر وينتقلون عن طريقها الى سفن الاعداء فيقاتلونهم وجها لوجه . كما كانوا يجعلون في اعلى السفن صناديق مفتوحة من اعلاها يسمونها «التواييت» يصعد اليها الرجال قبل استقبال العدو فيقيمون فيها ومعهم الحجارة يرمون بها العدو مستورون بالصناديق ، او يرمونه بقوارير النفط وقذور الصابون اللين حتى تنزلق اقدامهم ، او قدور بها حيات وعقارب . على ان اكثر ما كان يخشاه المسلمون من البيزنطيين هو النار الاغريقية وذلك بسبب سرعة اشتعال القار الذى تطلّى به السفن ، على انهم كانوا يتغلبون عليها بأن يعلقوا حول المراكب الجلود واللبود المبلولة بالخل والشب والنظرون لمقاومتها لهذه النيران (١) .

ومن أساليب القتال البحرى التى عرفها المسلمون ، تنظيمهم للاسطول على هيئة قلب وميمنه وميسره وساقه ، أو ان تصطف السفن صفوا واحدا للمقابلة الأعداء ، تماما مثل التشكيلات التى استخدموها فى الجيش البرى . (٢) وقد أجاد المسلمون فنون الحصار البحرى ، واستخدموا فيه نفس الآلات التى استخدموها فى الحصار البرى من المعاول والفؤوس والمناشير ، إلى جانب السلام لتسلق الأسوار ، والكلايب المربوطه بالحبال يرمون بها أعلى السور ثم يتسلقون الحبال ، كما استخدموا الحطب والقار والكبريت المشتعل لاحراق الاسوار . وقد استخدم مسلمو كريت كل هذه الاساليب فى حروبهم مع الدولة البيزنطية . ومن الأمثلة لذلك ماحدث أثناء حصارهم البحرى لمدينة سالونيك البيزنطية فى عام ٩٠٤ (٣) .

(١) الحسن بن عبدالله : اثار الأول ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ، الطبرى : تاريخ الام والملوك ،

١١٠ ، ص ٢٨٥ ، ابن المنكى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٨ ، لوحة ٢٧ .

(٢) ابن المنكى : الاحكام المملوكية ، لوحة ٢٠ .

(٣) انظر تفاصيل حصار المسلمين لسالونيك فى الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٨٣ ومابعدها

ومن هذا العرض لنظم الأسطول عند المسلمين يمكن القول أنهم قد نهضوا بقوتهم البحرية نهضة مباركة كان لها أثر بعيد فيما قاموا به من فتوحات وما أحرزوه من انتصارات، على المعتدين .

أما فيما يتعلق بالبحرية البيزنطية ، فالمعروف أنها لعبت دورا هاما أثناء الصراع الذى اشتعل بين الدولة البيزنطية والمسلمين ، وخاصة فى عهد الأمويين الذين حاصروا القسطنطينية برا وبحرا أكثر من مرة ، وقد أبلى الأسطول البيزنطى بلاء حسنا أثناء عمليات الحصار ، واضطر السفن الإسلامية إلى رفع الحصار فى كثير من الحالات (١) . على أنه بسقوط الدولة الأموية فى ٧٥٠ م (١٣٢هـ) انتقلت قاعدة الخلافة الإسلامية من إقليمى البحر المتوسط وهما الشام ومصر ، إلى إقليم داخل فى غربى آسيا ، اذ صارت بغداد العاصمة الجديدة للخلافة العباسية ، وهى بعد مدينة فارسية فى أفكارها وثقافتها ، وتتجه نحو وسط آسيا والمحيط الهندى ، لاصوب البحر المتوسط . وقد ترتب على ذلك أن الخلفاء العباسيين لم يواصلوا النشاط البحرى لاسلافهم الأمويين ، فخفت حدة البحرية الاصطدامات البحرية بين المسلمين والبيزنطيين ، وبالتالى بدأ الابطار البيزنطيون يوجهون اهتماما أقل إلى بحريتهم (٢) .

والواقع أنه منذ القرن الثامن الميلادى وجدت عوامل أخرى ساعدت على تزايد هذا الإهمال ، ومنها الصراع العنيف الذى قام فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور المقدسة . فالمعروف أن أهالى الثغور البحرية البيزنطية وخاصة فى الجزء الأوروبى من الإمبراطورية كانوا من الايقونيين ، وحين

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، ص ٩٦ - ١٠٨ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ١٥٧ .

قام أباطرة الأسرة الأيسورية (٧١٧ - ٨٢٠ م) بمناهضة هذه العبادة ، تعرضوا لسخط بحارة هذه الاساطيل ، وظهرت حركات التمرد بينهم على الحكم في بيزنطة ، بل ونصبوا في بعض الاحيان أباطرة جدد وتقدموا لمهاجمة القسطنطينية ، ونتيجة لذلك عمل أباطرة الأسرة الأيسورية على الحط من شأن الاسطول وبحارته حتى لا تقوى شوكتهم وتزداد تبعاً لذلك حركات التمرد بينهم (١) . ثم جاءت ثورة توماس الصقلي التي بلغت ذروتها في عهد الإمبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ - ٨٢٩ م) لتقضى على البقية من أساطيل الولايات البيزنطية (٢) .

وقد ترتب على ذلك نتائج خطيرة للغاية ، إذ أن الأساطيل الإسلامية استطاعت أن تظهر مرة ثانية في القرن التاسع الميلادي ، واستولت على جزيرة كريت في ٨٢٧ م / ٢١٢ هـ التي تحولت منذ ذلك الوقت إلى قلعة إسلامية حصينة كانت مصدر إزعاج دائم لبيزنطة بما شنه المسلمون بها من غارات متكررة على جزر وسواحل البحر الأبيض . وفي نفس العام تم فتح صقلية ، وأخذوا في الأغارة على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا . وهكذا أصبح من الضروري أن يعيد أباطرة الأسرة العمورية (٨٢٠ - ٨٦٧ م) بناء قوتهم البحرية ، ليتتمكنوا من صد هذا الزحف البحري الإسلامي والصمود أمامه وشجعهم على ذلك القضاء النهائي على المشكلة الدينية ، بإعادة الارثوذكسية الصحيحة في عام ٨٤٣ م (٣) .

(١) رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ ، بينز : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٨ - ١٨٩ .

(٢) سبق التعرض لآثار هذه الثورة على البحرية البيزنطية في الفصل الأول من البحث .

(٣) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٣ ، رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .

وقد واصل الأباطرة المتقدمون من الأسرة المقدونية (٨٦٧ - ١٠٢٥ م) إهتمامهم بالأسطول ، وبلغ هذا الإهتمام ذروته في عصر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس (٩١٩ - ٩٤٤ م) ، فقد كان هذا الإمبراطور قائدا عاما للأساطيل البيزنطية قبل اغتصابه للعرش الإمبراطوري ، لذلك أولى إهتماما خاصا للبحرية ، فشرع في بناء سفن أكثر ضخامة وأشد قوة عن ذي قبل ، وبذلك تكون الاسطول البيزنطي الذي أصبح أداة فعالة في يد البيزنطيين استخدموه لاسترداد كريت في أوائل الستينيات من القرن العاشر الميلادي (١)

ولقد وصلتنا معلومات قيمة عن نظام البحرية البيزنطية في عصرها الذهبي هذا ، اذ أورد الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢ م) فصلا عن البحرية البيزنطية في كتابه « فنون الحرب » Tacrica ، ولعل المصدر الأهم هو كتاب الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٢ - ٩٥٩ م) المسمى « المراسم الإمبراطورية وهو باليونانية إذ أورد في هذا الكتاب تفاصيل الحملتين البحريتين اللتين أرسلتهما الإمبراطورية البيزنطية لاستعادة كريت من المسلمين ، وقد تم إرسالهما في النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، وبالعودة لتفاصيل هاتين الحملتين البحريتين ، يمكن الاطلاع بصورة واضحة عن نظام البحرية البيزنطية في تلك الحقبة من التاريخ .

كانت البحرية البيزنطية تتكون من :

أولا : الاسطول الإمبراطوري وهو بمثابة العمود الفقري في البحرية البيزنطية ومقره الدائم عند القسطنطينية ، وكان بحارته من البيزنطيين ، وغالبا ما كان يضم اليهم أعداد قليلة من البحارة المرتزقة مثل الروس (٢) :

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر كتاب الإمبراطور قسطنطين السابع « المراسم الإمبراطورية » ، الجزء الثاني ص ٦٥١ (باليونانية) .

ثانيا : أساطيل الولايات ، وقد تكونت من أساطيل الولايات البحرية البيزنطية
وكانت في ذلك الوقت تشمل : -

١ - إسطول ثيم كبير هايوت (٢) .

٢ - إسطول ثيم ساموس .

٣ - إسطول ثيم البحر الإيجي .

٤ - إسطول ثيم الهيلاس « بلاد اليونان » .

هذا بالاضافة لبعض الوحدات البحرية التي كانت ترابط عندنيقوبوليس (٣)
والبلوبونيز (٤) وكيفا لونيا (٥)

وكان بحارة هذه الأساطيل الإقليمية يتكونون من رعايا الإمبراطورية
ومن المتبربرين المستقرين في الأراضي البيزنطية مثل المردة وقد (٦)
احتفظ كل أسطول إقليمي . بمستلزماته الخاصة من سفن الحرب والبحار

-
- (١) بشأن أساطيل الولايات البحرية البيزنطية ، انظر نفس المصدر السابق ، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ .
 - (٢) تقع كبير هايوت على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى .
 - (٣) تقع نيقوبوليس على ساحل نهر الدانوب .
 - (٤) البلوبونيز هي شبه جزيرة الموره ، انظر أطلس أو كسفورد ص ٣٩ .
 - (٥) كيفالونيا هي جزيرة صغيرة في البحر الادرياتي عند مدخل خليج كورنث ، انظر أطلس
أو كسفورد ، ص ٣٩ . وبشأن هذه الوحدات البحرية الثلاث انظر كتاب الامبراطور
قسطنطين السابع ، ص ٢٠ ، ص ٦٦٥ .
 - (٦) المردة هم جماعات جبلية كانت تسكن نواحي لبنان من قديم الزمن ، وكانت الدولة
البيزنطية تستخدمهم في الدفاع عن حدودها الشرقية ، وبعد فتح المسلمين للشام تراجع
المردة إلى آسيا الصغرى وهناك قاموا يماربون في صفوف البيزنطيين حتى تم نقلهم في عصر
الامبراطور جستنيان الثاني (٦٨٥ - ٦٩٥ م) إلى الولايات الأوروبية التابعة للدولة
البيزنطية ، انظر :

Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 50.

راجع كذلك بينز : الامبراطورية البيزنطية ص ٥٣ ، ص ١٩٣ ، حاشية رقم ١ .

ودور الصناعة واحواض البناء والمعدات البحرية الأخرى . وذلك على نفقة الاقاليم التي ترابط فيها هذه الأساطيل (١) . وفي حالة القيام بحملة بحرية كان على هذه الولايات أن ترسل بعض القطع الحربية من أساطيلها بكل لوازمها واستعداداتها لتساهم مع الأسطول الإمبراطورى فى نشاطه العسكرى . (٢) .

وكانت رتب العاملين بالأسطول البيزنطى تتدرج فى شكل هرمى ، يبدأ من القاعدة بالكوميتيس Comites ، وهو الذى يتولى قيادة مجموعة صغيرة من السفن لا تقل عن ثلاث ولا تزيد عن خمس ، ويدين الكوميتيس بالولاء المباشر للقائد Dux ، الذى يتقدم عليه حامل الرمح Hestes وهذا يدين بالولاء للضابط Mandata ، الذى يخضع بدوره للدرنجار Drungarius ، الذى يتسلم الأوامر من الأمبراطور ذاته (٣) .

وكان جميع العاملين بالبحرية البيزنطية يتقاضون اعطيه مثل زملائهم العاملين بالجيش ، اما الاعطيه الإضافية التى كانوا يتقاضونها عند الاشتراك فى حملة بحرية فكانت تتحملها كلها الخزينة الإمبراطورية . وقد اختلفت أعطية البحارة تبعا لاختلاف الأسطول الذى ينتمون إليه . ويفهم مما أورده الأمبراطور قسطنطين السابع أثناء عرضه لأعطية البحارة خلال حملة عام ٩١١ ضد كريت ، أن بحارة الأسطول الإمبراطورى كانوا يتقاضون عطاء أكبر من الذى يتقاضاه بحارة الأسطول الإقليمى (٤) . على أنه فى حالات قليلة كان

(١) لويس : القوى البحرية والتجارة ، ص ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسم الامبراطورية » ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ (باليونانية) .

(3) Leonis philosophi, Tactica, p., 998.

(٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، ج ٢ ، ص ٦٥٤ - ٦٥٥ (باليونانية) .

لأباطرة يجذلون العطاء للقادة والبحارة المشتركين في بعض الحملات ليكون ذلك دافعا لهم على بذل أقصى جهدهم من أجل احراز النصر (١) .

اما عن السفن التي استخدمت في الأسطول البيزنطي فأنها اختلفت باختلاف العدو الذي تحاربه بيزنطة ، فقد قال الامبراطور ليو السادس مخاطبا قائد الأسطول : أن حجم السفن التي تبنيها سيتوقف على العدو الذي تحاربه ، والأمر يختلف بين العرب والروس ، فالعرب يستخدمون سفنا كبيرة وبطيئة نسييا ، بينما يستخدم الروس سفنا خفيفة وسريعة الحركة ، والسبب أن غارات الروس في البحر الأسود ، تحدث عند مصبات الأنهار حيث يتعذر استخدام سفنا أكثر من حمولة معينة (٢) . ومن السفن التي استخدمها البيزنطيون في حربهم مع المسلمين تلك السفن المعروفة باسم الدرمنه Diomones — وهي سفن كبيرة تستخدم في القتال ، وقد وجه البيزنطيون عناية كبيرة لصناعة هذا النوع من السفن وحرص الإمبراطور ليو السادس على أن ينصح الموكلين ببناء هذه السفن قائلا « ينبغي أن تكون ألواح الخشب التي تصنع منها هذه السفن متوسطة ، لا كبيرة الغلظ فتبطيء في سيرها ، ولا بالرقيقة فتكون حينئذ عرضة للغرق عند التناطح مع سفن الأعداء ، أو حين تعرضها لأمواج البحر » (٣) . وتسير الدرمنه بأربعة صفوف من المجاديف ، وبلغ عدد مجاديفها من ٢٠٠ إلى ٢٣٠ مجداف ، وتتسع الواحد منها لسبعين مقاتلا عدا المجدفين ، ومنها ما هو أكبر فيتنسع

(1) Symeon Magistri, op. cit., p. 624.

(2) Leonis Philosophi, Tictica, p. 992.

(3) Ibid, p. 991.

لمايتين وعشرين رجلا . وإلى جانب ذلك كان بكل درومونه شخصا موكلا يحمل العلم ، وشخصان مخصصان لتوجيه الدفة ، وآخر موكلا بالهلب (١) . ومن السفن الكبيرة المقاتلة كذلك ، نوع « البامفيلية Pamphyli » ، وهي أسرع من الدرمونه ، وغالبا ما كان قائد الأسطول البيزنطي في القرن العاشر الميلادي يتخذ سفينته من هذا النوع . وقد وصل عدد مجاديفها إلى ١٦٠ مجدافا ، وكانت حمولتها من الرجال المقاتلين من ١٣٠ إلى ١٦٠ رجلا (٢) . وغالبا ما كان المحاربون على ظهر هذه السفن من المنطقة الجبلية المواجهة لبامفيلية ، (٣) ويعرفون بأسم البامفيليين ، ولذلك فقد نسبت اليهم هذه السفن (٤) .

وهناك السفن المعروفة بأسم الشلندية Chelendia — وكانت تتسع لأعداد من المقاتلين تراوح ما بين ١٠٨ إلى ١٥٠ مقاتلا (٥) . وقد استخدم البيزنطيون هذا النوع من السفن بكثرة ، وتذكر المصادر العربية أن الأسطول البيزنطي الذي خرج للأغارة على مدينة دمياط في عام ٢٣٨ هـ / ٨٥٣ م انتقاما للهزائم التي انزلها الأسطول الكرطي بالبيزنطيين ، كان يتكون من ثلاثمائة شلندية (٦) . وقد وصفها المؤرخ ابن مماتي بقوله : مركب مسقف تقاتل

-
- (١) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، ج ٢ ، ص ٦٥٢ - ٦٥٣ (باليونانية) .
 - (٢) نفس المصدر سابق ، ج ٢ ، ص ٦٥٣ .
 - (٣) تقع بامفيلية في ثيم كبير هايوت على ساحل اسيا الصغرى المواجه للبحر المتوسط ، انظر الخريطة الملحقة بكتاب رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٤٠٦ .
 - (٤) قسطنطين السابع : المراسم الامبراطورية ، ج ٢ ، ص ٧٨٧ ، (باليونانية)
 - (٥) نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .
 - (٦) انظر على سبيل المثال ، الطبري : تاريخ الام والملوك ، ج ١١ ، ص ٤٨ ، الكندي : ولاية مصر ، ص ٢٢٧ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٦ ، ابن خلدون : المعر ، ج ٣ ، ص ٢٧٧ .

الغزاه على ظهره ، وجذافون يجذفون تحتم (١). وثمة نوع من السفن يطلق عليها اسم جاليا Galea وهذه السفن أصغر حجما من السفن السابقة ولها صفوف مفردة من المحاديف (٢) .

وإلى جانب هذه السفن الكبيرة ، كانت هناك سفن صغيرة سريعة الحركة أشبه ماتكون بالزوارق الكبيرة . ومنها النوع المعروف بأسم الأوسيا Ousia . وقد صنع على نفس طراز القوارب الروسية ، ويتسع لعدد من البحارة يتراوح ما بين ٥٠ إلى ٦٠ بحارا ، وكانوا غالبا من البحارة الروس الذين يستعان بهم في الأسطول البيزنطي (٣) . وبالإضافة إلى السفن الحربية كانت هناك سفن أخرى لنقل الخيل والمؤن ، وغيرها من مستلزمات الجنود وغالبا ما كانت السفن التجارية تحول في وقت الحرب إلى سفن للنقل (٤) .

وكانت السفن الحربية الكبيرة تزود بأبراج من الخشب ، وكان موضع البرج في الغالب في المؤخرة ، وأثناء القتال ، كان البحارة يتخذون أماكنهم في داخل البرج حتى يكونوا بما من من هجمات العدو ، وفي نفس الوقت يوجهون إليه بأسلحتهم التي كان أهمها قنابل يدوية تحتوي على المركب الكيميائي للنار الاغريقية . وكانت هذه القنابل تنفجر وتشعل النار في سفن الأعداء كما كانت المراكب الكبيرة تزود كذلك بقاذفات النيران الاغريقية . (٥) ومن

(١) ابن ماقى : قوانين الدواوين ، ص ٣٤ .

(2) Leonis Philosophi : Tactica, p. 994.

(٣) قسطنطين السابع : المراسيم الامبراطورية ، ج ٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية) .

(4) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64.

(5) Theophanes Continuatus, Liber 11, p. 64: Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

الأسلحة التي استخدمها الأسطول البيزنطي كذلك ، شوك من الحديد ذات أطراف حادة كانت تستخدم لثقب سفن الأعداء ، وحراب مسنونة لتمزيق أشرعة وحبال السفن المعادية ، و كلاليب حادة مزودة بسلاسل حديدية كانت تستخدم لجذب سفن الأعداء القريبة والأشتباك معهم وجها لوجه . بالإضافة للسيوف والسهام الكبيرة والصغيرة ، كما كان البحارة يزودون بالدروع السمكية ، والحوذ الفولاذية التي كان بعضها يغطي كل الوجه وذلك لحمايتهم من أسلحة الأعداء . و كان لكل سفينة حمولة محددة من الأسلحة ومهمات الحرب توضع بها ليستخدمها المقاتلون ، كما كان لابد من وجود كميات مضاعفة بكل سفينة من قطع الغيار اللازمة لها مثل المجاديف والحبال والبكرات والواح الخشب والقار ، حتى تكون تحت إيدى البحارة عند الحاجة إليها ، كذلك لابد من وجود نجار ومعه كل مايلزمه من معدات كالازميل والمنشار وغيره مما يحتاج اليه في عمله .

ومن فنون الحرب البحرية التي يوصى بها الأمبراطور ليو السادس قائد الأسطول البيزنطي ، تجنب المعارك الفاصلة مع الأعداء ، إلا إذا كان أسطول العدو يعاني من المتاعب ، ويرى أن المناوشات المنفصلة أفضل بكثير من المعارك الفاصلة ، فإن اضطرته الظروف لخوض المعركة ، فإن ينصحه بالقتال في هيئة التشكيلة الهلالية (أى النصف دائرة) (٢) .

(١) لقد اورد الامبراطور قسطنطين السابع في كتابه « المراسم الامبراطورية » الحمولة المخصصة لكل درومونه من الأسلحة ومهمات الحرب ، انظر التفاصيل في الفصل الثالث من هذا البحث . انظر كذلك ،

Leonis Philosophie, Tactica, p. 994

(2) Leonis Philosophie, Tactica, p. 1006.

وقد وجه البيزنطيون أهتماما كبيرا إلى علم العمليات البحرية ، فدرس القادة البحر والأوصاف الطبيعية للسواحل والجزر ، وخصائص الرياح وأتخذوا تجاهها الاحتياطات اللازمة ، وكات الأشارات تم بين السفن عن طريق الرايات نهارة ، واستخدام الأضواء ليلا (١) . وفي حالة القيام بحملة بحرية ضد الاعداء كانت بعض السفن الحربية البيزنطية ترابط في مياه القسطنطينية لحمايتها ضد أى هجوم يقع عليها أثناء غياب الأسطول . (٢)

وهكذا يتضح مدى التقدم والأزدهار الذى أحرزته البحرية البيزنطية خلال هذه المرحلة من تاريخ الأسرة القدونية ، الأمر الذى أدى إلى رد فعل إيجابى لدى المسلمين ، تمثل فى تعاون الاساطيل الإسلامية فى البحر الأبيض المتوسط مع أسطول كريت . حتى تستطيع هذه الإمارة المجاهدة مواصلة أنصاراتها العسكرية على العدو البيزنطى .

وكان الامبراطور باسيل المقدونى هو أول من عانى من جراء هذا التعاون البحرى الإسلامى ، ففي السنة الأولى من حكمه أى فى عام ٨٦٧ م (٢٥٣ هـ) قام المسلمون بغارة كبيرة على الساحل الشرقى للبحر الادرياتيكي المعروف بساحل دالماشيا Dalmatia (٣) ، وقد دون هذه الغارة عدد من

-
- (١) بينز : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٤ ، رانسيهان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٨٣ .
(٢) قسطنطين السابع : المراسيم الامبراطورية ، ج٢ ، ص ٦٦٤ (باليونانية)
(٣) كانت دالماشيا هذه تابعة للدولة البيزنطية ، وفي عصر الامبراطور هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) بدأت القبائل الصقلية تغزوها وتستقر بالساحل والاماكن الداخلية بها ، ورغم ذلك فقد بقيت بعض المدن تحتفظ بالاستقلال عن هذه القبائل . وأثناء الصراع الداخلى الذى اشتغل فى الدولة البيزنطية حول عبادة الصور والايقونات بدأت هذه المدن تطرح السيادة البيزنطية تدريجيا ، ومنذ النصف الأول من القرن التاسع الميلادى استقلت تماما عن بيزنطة ، انظر :

Finlay, History of Greece, vol 11, p. 248; Ostragorosky, History of Byzantine State, p. 209.

المؤرخين البيزنطيين أمثال الماجستر سيميون ، وقسطنطين السابع ، وصاحب صلة ثيوفان (١) . ويفهم مما رواه هؤلاء المؤرخون أنه أشترك مع أسطول كريت في هذه الغارة بعض القطع الحربية من أساطيل مدينة قرطاجنة في شمال إفريقية ، وصقلية ، وجنوب إيطاليا — وهي البلاد التابعة للدولة الأغالبة آنذاك — وكان الأسطول الإسلامي المهاجم يتكون من ٣٦ سفينة حربية ، استعمله المسلمون في مهاجمة العديد من المدن من بينها مدن بوتوبال Butobal ، وروزا Rosa وديكاتير ، Decatera حتى وصلوا إلى المدينة التجارية الهامة المسماة راجوزا Ragusa ففرضوا عليها حصارا قاسيا ، وحين طال أمد الحصار ، وأشتد الأمر على سكانها ، أرسلوا يطلبون النجدة من الإمبراطور باسيل الأول ، الذي وجد في الطلب الذي تقدموا به الفرصة المناسبة لإعادة فرض السيادة البيزنطية من جديد على هذه المدن ، فسارع بإرسال أسطول بيزنطي مكونا من مائه شلندية بقيادة البطريق والدربنجار البحري نقيتاس أوريفاس Nicetas Oryhas ، قائد الأسطول البيزنطي في ذلك الوقت . وحين علم المسلمون بأقتراب وصول هذا الأسطول ، رفعوا الحصار وأنسحبوا بعد أن ظلوا محاصرين المدينة لمدة خمسة عشر شهرا . وقد أسفرت هذه الغارة عن نتائج هامة في صالح الدولة البيزنطية ، إذا استطاع نقيتاس أوريفاس ، أن يعيد توطيد النفوذ البيزنطي على هذه المدن ، التي تعهدت بدفع الجزية السنوية للإمبراطورية . كما نجح كذلك في كسب ولاء القبائل الصقلية المستقرة بالساحل والمناطق الداخلية وتعهدوا هم أيضا بدفع الجزية السنوية لبيزنطه ، على أن يتمتعوا باستقلال ذاتي ، هيا لهم الاحتفاظ بنظام حكمهم (٢) .

(١) انظر تفاصيل هذه الغارة في المصادر التالية :

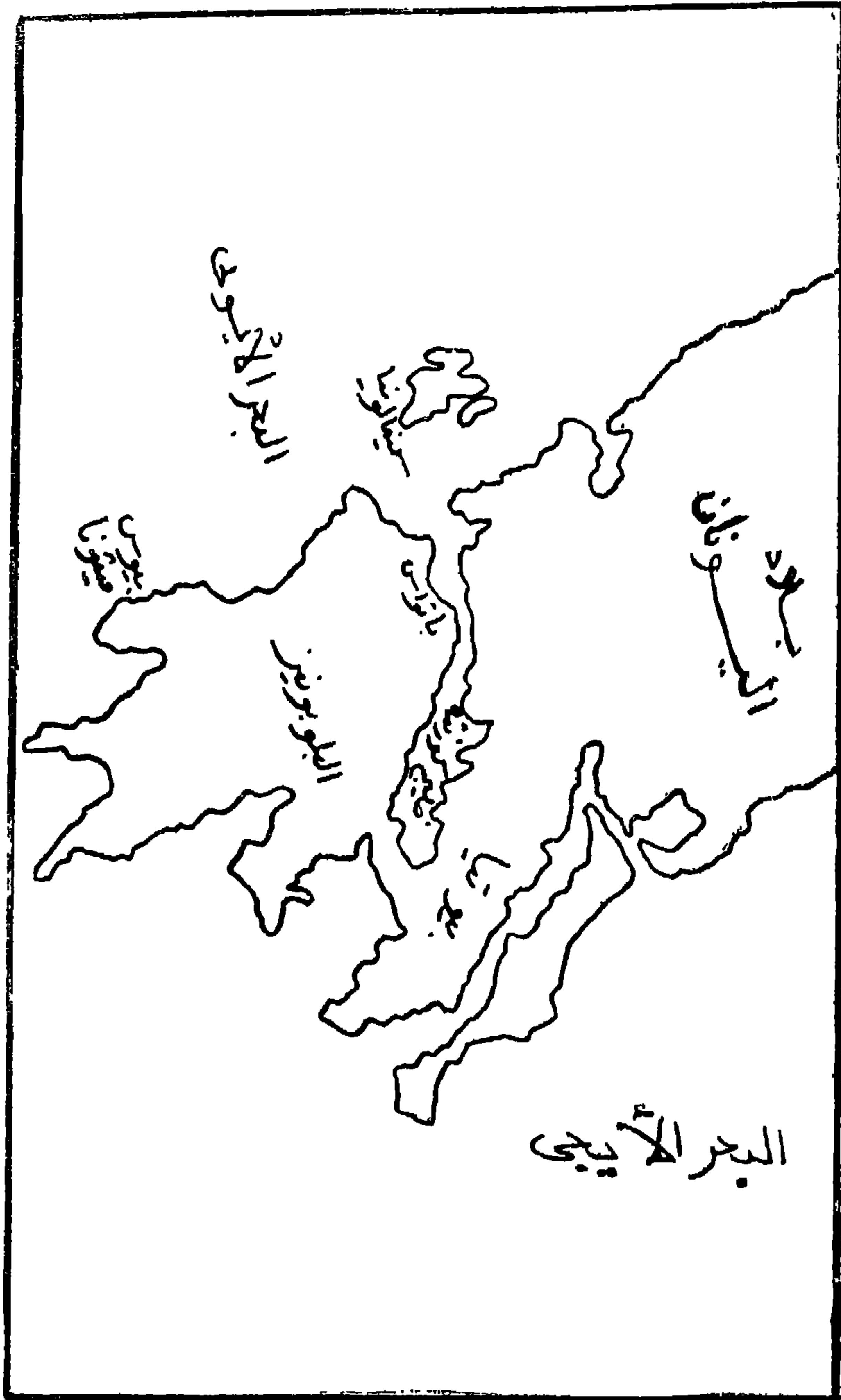
Symeon Magistri, p. 694; Constantin Porphyrogenety; De Administrando Imperio, p. 130; Theophanes Continuatus, Liber V, p. 289.

(2) Constantin Porphyrogenetus, De Administrando Imperio, pp. 130—131

وقد شهد عصر الأمبراطور باسيل الأول مزيدا من الاشتباكات العسكرية مع كريت ، كانت في نفس الوقت مظهرا من مظاهر التعاون العسكري بين أسطول كريت والأساطيل الإسلامية في البحر المتوسط في مواجهة العدو البيزنطي . وجاء التعاون هذه المرة من جانب مدينة طرسوس ، التابعة وقتذاك لحاكم مصر أحمد بن طولون . والواقع أن هذه المدينة قد أبلت بلاء حسنا في الجهاد ضد البيزنطين ، إذ كانت من الثغور الإسلامية الهامة المواجهة للعدو وكان يتدفق عليها المقاتلون المسلمون من جميع أنحاء العالم الإسلامي ، ليقوموا بواجب الجهاد . وقد وصفها الجغرافي المعاصر ابن حوقل فقال : عليها سوران من حجارة ، كانت تشتمل على خيل ورجال ، وعدة وعتاد وكراع وكان بينهم وبين الروم جبال متشعبة من اللكام (١) كالحاجز بين العمليين . ورأيت غير عاقل مميز وسيد حصيف مبرز يشار إليه بالدراية والفهم ، واليقظة والعلم ، يذكران بها مائة ألف فارس ، وكان ذلك عن قريب عهد من الأيام التي أدركتها وشاهدها . وكان السبب في ذلك أنه ليس من مدينة عظيمة من حد سجستان وكرمان وفارس وخوزستان والجبال وطبرستان والجزيرة واذريجان والعراق والحجاز والشامات ومصر والمغرب ، إلا بها (أي بطرسوس) لأهلها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلاة ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة الجسيمة إلى ما كان السلاطين يتكلفونه ، وأرباب النعم يعانونه وينفذونه متطوعين متبرعين ولم يكن في ناحية ذكرتها رئيس ولا نفيس الاوله عليها وقف من ضيعة ذات مزارع وغلات ، أو مسقف من فنادق» (٢) .

(١) اللكام ، جبل في شمال الشام ، يشرف على مدينة انطاكية ، كذلك على المصيصة وطرسوس ومنطقة النغور ، انظر ، ياقوت : معجم البلدان ص ٣٣٧ (الطبعة الأولى ١٩٠٦ م)

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الأول ، ص ص ١٨٣ - ١٨٤ .



وتحقيقاً لدور مدينة طرسوس في الجهاد ، اشترك اسطولها مع الأسطول الكريتي في الأغارة على الأراضي البيزنطية في عام ٢٦٦ هـ (٢٣ اغسطس ٨٧٩ - ١٢ اغسطس ٨٨٠ م) . وقد عرضت المصادر البيزنطية (١) هذه الغارة بشيء من التفصيل . أما المصادر العربية فقد أغفلتها ، وتكون الأسطول الإسلامي من ٣٠ قطعة حربية ، واسندت القيادة العامة فيه إلى عامل أحمد بن طولون على الثغور الشامية ، الذي ذكره المؤرخ البيزنطي صاحب صلة ثيوفان بأسم اسمانوس Esmanus (٢) . وقد حددت المصادر البيزنطية الموقع الذي تعرض لهذا الهجوم تحديداً دقيقاً ، فذكرت انه وقع على مدينة خالقيس Chalcis — وهي المدينة الرئيسية في جزيرة يوبيا Euboea اليونانية (٣) . وأثناء الحصار الذي فرضه المسلمون على هذه المدينة ، أخذ حاكم نيم الهيلاس (بلاد اليونان) ويدعى اونيائيس Oeniatas ، في تجميع القوات المحاربة داخل المدينة (٤) ، وعندما قامت القوات الإسلامية بمحاولة لاقتحامها اشتبكت معها القوات البيزنطية في معركة كبيرة ، انتهت بانتصار البيزنطيين ، ولقى قائد الأسطول الإسلامي مصرعه خلالها ، بعد أن قاتل ببسالة هوورفاقه رغم قلة عددهم (٥) .

(١) انظر على سبيل المثال :

Theophanes Continuatus, p. 298;

(2) Theophanes Continuatus, p. 298

ولعل اقرب الاسماء العربية إلى هذا الاسم هو «عثمان»

(٣) تقع مدينة خالقيس على مضيق يوريوس Euripus ، الفاصل بين جزيرتي يوبيا وبيوتيا Boetia اليونانيتين . ، انظر ،

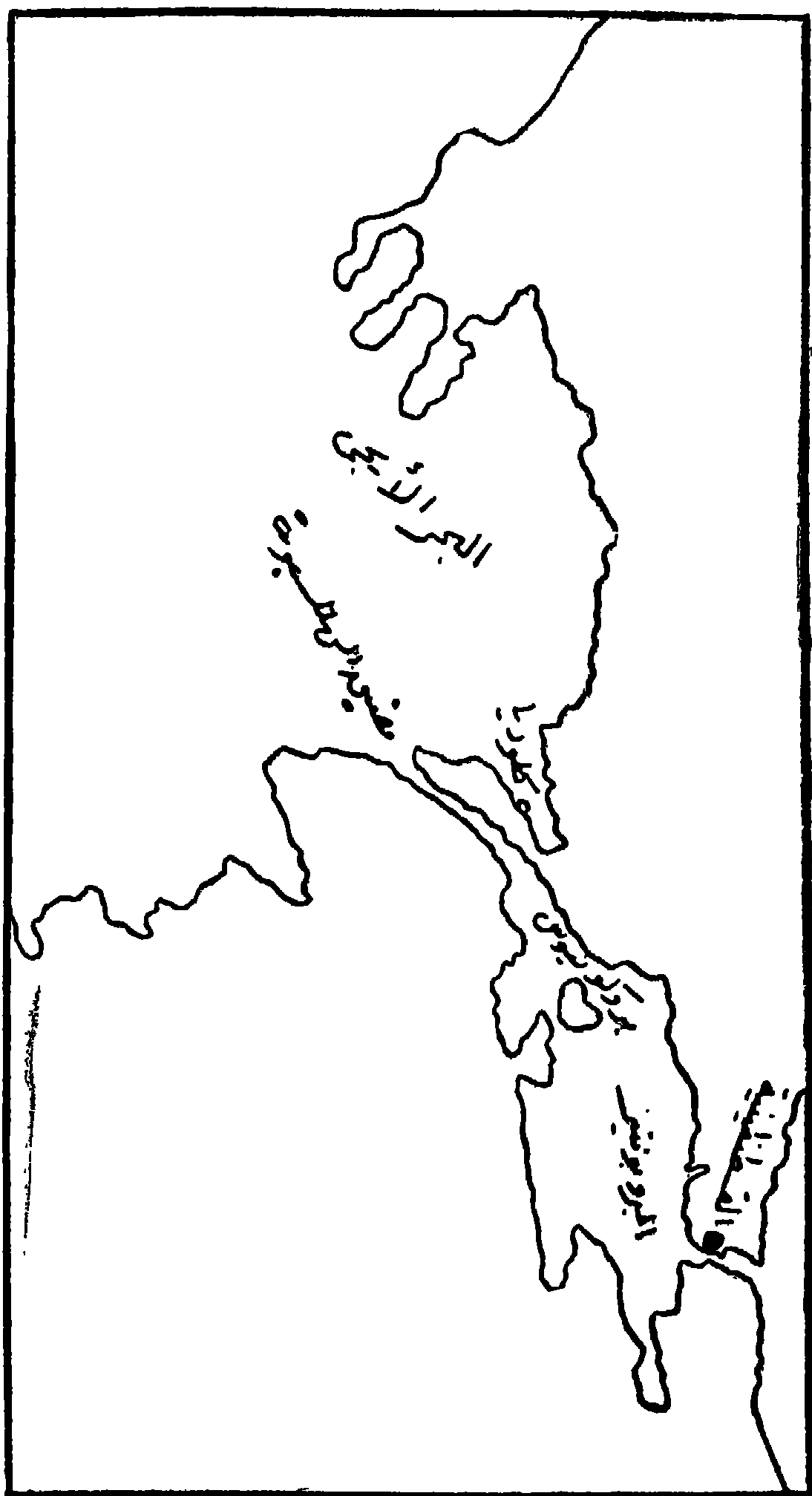
Encyclopedia Britannica, vol 5, p. 194; Cassell's new latin Dictionary, p. 220.

انظر كذلك خريطة رقم (٢) .

(4) Theophanes Continuatus, p. 298.

(5) Theophanes Continuatus, p. 298;

كيدرنيوس : ص ٥٨٠ .



خريطة رقم (٣)

وانتقاماً لهذه الهزيمة ، أرسل حاكم أمارة كريت الذى ذكره صاحب صلة ثيوفان بأسم « سايته » Saete وذكره جينزيوس بأسم سايبس Saipes وهو الأمير شعيب بن أبي حفص الذى تولى حكم الجزيرة بعد وفاة والده أبى حفص عمر بن عيسى (١) ، بأسطول مكون من ٢٧ قطعة حربية للاغارة على البلاد البيزنطية ، وقد تولى قيادة هذا الأسطول شخص يدعى فوتيوس Photius ، والمرجح أنه من أصل يونانى واعتنق الإسلام ويصفه كل من صاحب صلة ثيوفان وكيدر ينوس بالشجاعة والمهارة الحربية. وقد عبر الأسطول الكريتي مضيق الهللسبونت ، ودخل فى مياه البروبونتيز ، وتوغل حتى وصل إلى جزيرة بروكونيسوس Proconnesus (٢) ، التى امتازت بموقعها الاستراتيجى الهام. وقد أسرع قائد الأسطول البيزنطى نقيتاس اوريفاس لمطاردة المسلمين ، حتى التقى الطرفان فى معركة عند قناة فى البحر الإيجى بالقرب من كارديا Cardia وقد انتصر البيزنطيون فى هذه المعركة ، ودمروا عشرين سفينة كريتية ، أشغل بعضها بفعل قاذفات اللهب البيزنطية وجذبوا بعضها الآخر بالكاليب واشتبكوا مع المسلمين فى القتال وجها لوجه ، ثم دمروا هذه السفن

(١) لم تأت المصادر العربية أو البيزنطية بشئ عن التاريخ الدقيق لوفاة أبى حفص وتولى ابنه الحكم فى كريت ، وكل ما وصل إلينا فى هذا المجال ، تلك الإشارة التى أوردها المؤرخ جينزيوس ، والتى يفهم منها ان الأمير شعيب كان معاصراً للإمبراطور باسيل الأول ، انظر : Genesius, p. 47—48 :

(٢) هى إحدى الجزر الصغيرة الواقعة فى مياه البروبونتيز ، وتعرف فى الوقت الحاضر ، باسم جزيرة مرمره ، وهى تمتاز باعتدال مناخها ، وأهم محاصيلها القمح ، والعنب الذى يستخرج منه اهاليها النبيذ ، أنظر :

La grande Encyclopedia, vol, 23, p. 205.

واغرقوها ، أما البقية الباقية من الأسطول الكريتي فقد سارعت بالفرار بعد أن أصيب معظم من بها بالجراح (١) .

على أن المسلمين بكريت لم يستكينوا لهذه الهزيمة ، بل قاموا بتنظيم أسطول آخر رأسه فوتيوس للمرة الثانية ، وعادوا بعد أيام قلائل من المعركة الأولى لمهاجمة بعض المدن على الساحل الجنوبي الغربي لشبه جزيرة البلوبونيز ، مثل ميثونا Methona ، وييلوس Pylus ، ثم واصلوا تقدمهم نحو الشمال حيث هاجموا مدينة باتراس Patras (٢) وأخذوا يخربون الأماكن المحيطة بكورنثه والسواحل الغربية لبلاد اليونان . وأثناء طواف نقيتاس اوريفاس باسطوله حول البلوبونيز ، شاهد السفن الكريتيه تعيث في الأراضي البيزنطية ، فقام بعمل كمين لها ، بأن توارى بسفنه في خليج كورنثه ، ثم فاجأها بالهجوم ودمر الأسطول الكريتي عن آخره ، وقتل البيزنطيون اعدادا كبيرة من المسلمين كان من بينهم فوتيوس نفسه ، كما اسروا اعدادا أخرى . ويسوق المؤرخان البيزنطيان صاحب صلة ثيوفان و كيدرينوس أمثلة واضحة للوحشية التي عامل بها البيزنطيون الأسرى المسلمين ، إذ تم تقطيع اجساد بعضهم اربا كما تم نزع جلد البعض الآخر وهم أحياء (٣) .

والواقع أن هذه الانتصارات التي احرزها البيزنطيون على المسلمين في هذه المرحلة ، كانت أثرا من آثار النهضة البحرية الكبرى التي بلغتها الدولة البيزنطية في عهد الامبراطور باسيل الأول ، نتيجة للعناية والأهتمام الكبيرين اللذين وجههما هذا الإمبراطور إلى هذا المجال الحيوى في دولته . على أن هذه

(1) Genesius, p. 48 ; Theophanes Continuatus, pp. 299—300;

راجع : ايضا كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ . باليونانية .

(٢) انظر الخريطة رقم (٢) .

(3) Theophanes Continuatus, P. 300

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٢٢٧ .

الهزائم التي لقيها المسلمون أمام الأسطول البيزنطي كانت لها نتائج بعيدة المدى فهي لم تدفعهم إلى الاستكانة والاستسلام ، ولم تدخل اليأس إلى نفوسهم ، وإنما كان لها رد فعل مضاد ، إذ أدت إلى ازدياد تعاونهم في المجال البحري بشكل أدى في النهاية إلى احرازهم انتصارات باهرة على الدولة البيزنطية .

ولعل من أهم ماأسفر عنه التعاون البحري بين الأسطول الكرّتي والأساطيل الإسلامية الأخرى في البحر المتوسط ، ذلك الانتصار العظيم الذي احرزته البحرية الإسلامية على الدولة البيزنطية في عام ٩٠٤ م ، والخاص بالهجوم على مدينة سالونيك . ومصدرنا الرئيسي في هذا الموضوع هو كتاب « قهر سالونيك » وهو مدون باليونانية الذي كتبه يوحنا كامينيائي ، وهو احد رجال الدين من أهالي سالونيك ، وكان شاهد عيان للغارة التي قام بها المسلمون على مدينته (١) ، انتقاما للهزائم التي لحقت بهم أمام البحرية البيزنطية في عهد باسيل الأول . وقد تعرض لهذه الغارة كذلك ، عدد من المؤرخين البيزنطيين ، منهم على سبيل المثال موناخوس ، وصاحب صلة ثيوفان ، وكيدرينوس (٢) غير أن اشاراتهم كانت شديده الإيجاز إذا ماقورنتبالعرض المسهب الذي قدمه يوحنا كامينيائي . أما المصادر العربية ، فقد أشارت هي الأخرى إلى هذه الغارة ، ولكن في عبارات مبهمه مقتضبة لاتفي بالغرض المطلوب . ونورد على سبيل المثال ، ما ذكره المؤرخ ابن الأثير في حوادث عام ٢٩١ هـ (٢٤ نوفمبر ٩٠٤ م) إذ قال : « وفيها صار المعروف بـ غلام زرافه من طرسوس نحو بلاد الروم ، ففتح مدينة أنطاكية ، وهي تعادل

(١) للمزيد من المعلومات عن كامينيائي ، انظر ص ١٤

(2) Monachus, p. 862—863; Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 368

كيدرينوس ، موجز التاريخ ، صص ٢٦١ - ٢٦٢ ، باليونانية .

القسطنطينية ، فتحها بالسيف عنوة ، فقتل خمس آلاف رجل ، واسر مثلهم واستنقذ من الأسارى خمسة آلاف ، وأخذ لهم ستين مركبا ، فحمل ماغنم لهم من الأموال والمتاع والرقيق ، وقد ر نصيب كل رجل ألف دينار . وهذه المدينة على ساحل البحر ، فاستبشر المسلمون بذلك» (١) . وذكر كل من الطبرى وابن خلدون وابن تغرى بردى والحافظ شمس الدين نفس هذا المعنى (٢) .

وهناك ما يدعو للاعتقاد أن هذا النص يتعلق بفتح مدينة سالونيك ، وذلك لأكثر من سبب ، منها أن التاريخ الذى ذكره المؤرخون لهذه الغزوة وهو ٢٩١ هـ يوافق تاريخ غزو سالونيك فى ٩٠٤ م . كما أن غلام زرافة الذى ذكر المؤرخون المسلمون أنه قائد الأسطول الإسلامى أثناء هذه الغارة ، هو نفسه ليون الطرابلسى الذى قاد الأسطول الإسلامى المغير على سالونيك. ذلك أنه يفهم من رواية ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين سبقت الإشارة إليهم ، أن اسم غلام زرافة ، ليس الاسم الحقيقى لهذه الشخص ، وإنما هو اسم اشتهر به . وبالبحث والتنقيب فى المصادر العربية عن الأسم الحقيقى له ، امكن العثور فى كتاب «التنبيه والأشراف» للمسعودى على نص يقول : «بند سالونيكه ، التى افتتحها لاون ، غلام زرافه» (٣) وهكذا يتضح أن الأسم الحقيقى لغلام زرافة هو لاون .

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ١٧٤ .

(٢) الطبرى : تاريخ الام والملوك ، ج١١ ، ص ٥ ، ابن خلدون : المعبر ، ج٣ ، ص ٣٥٧
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص ١٣٢ ، الحافظ شمس الدين : دول الاسلام ، ج١ ، ص ١٣٨ .

(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ، ص ١٨٠ .

وبالعودة إلى المصادر البيزنطية ، نجد أنها جميعا وبلا استثناء ، تؤكد أن قائد الأسطول الإسلامي الذي أغار على سالونيك يدعى ليون — Leon . وتلقى هذه المصادر المزيد من الضوء على ليون فتقول ، أنه ولد من أبوين مسيحيين في إقليم أضايا ، في ولاية بامفيلية على الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى وكان يسمى آنذاك ليون الاضالي وعندما بلغ مرحلة الشباب ، ارتد عن الدين المسيحي واعتنق الإسلام ، ورحل إلى البلاد الشامية حيث استقر بمدينة طرابلس على الساحل ، ومن طول أقامته بهذه المدينة اكتسب لقب الطرابلسي فأصبح يعرف لديهم بأسم ليون الطرابلسي (١) . وبناء على ذلك يكون غلام زرافه هو ليون الطرابلسي قائد الأسطول الإسلامي الذي أغار على سالونيك في عام ٩٠٤م والذي ذكره المسعودي تحت اسم لاون .

أما فيما يتعلق بمدينة انطاكية التي يذكر المؤرخون المسلمون أن الهجوم وقع عليها ، فإنه ليس هناك مجال للقول بأنها هي نفسها مدينة أنطاكية الشامية فقد ذكر ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين الذين تعرضوا لهذه الغارة أن مدينة انطاكية هذه «تعادل القسطنطينية» ، وانطاكية الشامية لا بنطبق عليها هذا الوصف . فرغم تمتعها بميزات عديدة ، مثل تمتعها بمركز ديني هام نظرا لكونها مدينة القديسين والبطارقة العظام والجامع الدينية العديدة ، ورغم تمتعها أيضا بمركز تجاري ممتاز نظرا لوقوعها عند ملتقى بعض الطرق الرئيسية كالطريق منها إلى حلب في شمال الشام ، ومنها إلى ميناء اللاذقية الذي يطل على البحر المتوسط ، وطريق آخر يربطها بقلبيقيه ، ورغم الميزات التي حبتها بها الطبيعة ، من خصوبة التربة ، إلى توفر المياه النابعة من الجبل الذي

(١) كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، صص ٢٦١ - ٢٦٢ . باليونانية . راجع كذلك Theophanes Continuatus, p. 366.

يقع إلى شمالها والذي امتد على طول الشمال فأكسبها حصانة طبيعية من هذه الجهة (١) . رغم كل هذه الميزات ، إلا أنها لم تكن في وقت ما من تاريخها تعادل القسطنطينية في الأهمية والمكانة ، وقد أجمع كثير من المؤرخين المحدثين على أنه لم تكن هناك مدينة في الإمبراطورية البيزنطية تعادل القسطنطينية في ذلك الوقت سوى مدينة سالونيك (٢) .

يضاف لذلك أن مدينة انطاكية الشامية كانت بيد المسلمين آنذاك ، وكانت تدين بالتبعية مع غيرها من بلاد الشام للخلافة العباسية في عهد الخليفة المكتفى بالله (٢٨٨ - ٢٩٥ هـ / ٩٠١ - ٩٠٨ م) (٣) ولم تخرج انطاكية من يد المسلمين إلا في ٢٨ أكتوبر ٩٦٩ م (١٤ ذى الحجة ٣٥٨ هـ) حين فتحها القائلين البيزنطيين بطرس فوقاس وميخائيل بورتزيس في عهد الامبراطور البيزنطي نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) (٤) .

لذلك كله يمكن القول أن المؤرخين المسلمين قد التبس عليهم الامر ، فذكروا أن هذه الغارة وقعت على مدينة انطاكية ، في حين أن واقع تفسيرات النص الذي ذكره تؤكد أن الغارة وقعت على مدينة سالونيك .

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ١٧٩ - ١٨٠ .
وقد وصفها القلقشندي بقوله : « وهي مدينة عظيمة غرب حلب بشمال يسير على مرحلتين وهي مدينة قديمة على ساحل بحر الروم ، ولها سور عظيم من صخر ليس له نظير في الدنيا وكان عدد شرفات هذا السور اربع وعشرون الفا ، وعدد ابراجه مائة وستة وثلاثون برجاً . انظر القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٤ ، ص ١٢٩ . راجع كذلك :

Cahen, La Syrie du Nord à l'époque de Croissades, pp. 127—130.

(2) Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p. 16; Ostrogorsky, op. cit, p. 228: Bloy Byzance, p. 21.

(٣) الطبري : تاريخ الامم والملوك ، ج ١٢ ، ص ١٢ .

(٤) كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . باليونانية .

ولما كان النقل هو العادة المتبعة عند المؤرخين المسلمين في تلك الحقبة من الزمن فلا يستبعد أن يكون قد تناقلها الخلف عن السلف دون روية أو تمحيص .

على أية حال ، ففي يوليو عام ٩٠٤ م (شعبان ٢٩١ هـ) عقد المسلمون العزم على انزال ضربة قاصمة بالامبراطورية البيزنطية انتقاما للهزائم التي انزلتها بحريتها بأسطول كريت (١) . فاجتمعت بعض القطع الحربية من اسطول مصر (٢) ، واساطيل الموانئ البحرية في الشام وهي صور وصيدا وطرابلس وطرسوس ، واسندت القيادة العامة لهذا الاسطول إلى ليون الطرابلسي قائد أساطيل الشام وقتذاك ، وخرج هذا الاسطول من ميناء طرسوس إلى كريت حيث انضم إليه اسطولها ، واصبح عدد القطع البحرية في هذا الاسطول الاسلامي المشترك ، اربع وخمسون قطعة . ومن كريت اتخذ المسلمون طريقهم إلى البلاد البيزنطية ، وكان في نيتهم التوجه إلى القسطنطينية ذاتها لمحاصرتها (٣) .

وعندما وصلت انباء هذه الحملة إلى الامبراطور البيزنطي الجالس على العرش آنذاك وهو ليو السادس المعروف بليو الحكيم (٤) أرسل الأسطول الأمبراطوري بقيادة الدرنجار ايستاثيوس Eustathius لملاقاتهم واعاقهم عن الوصول إلى العاصمة البيزنطية ، لكن هذا القائد لم يجرؤ على

(١) انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ١٧٩ - ١٨٤ .

(٢) كانت مصر وقتذاك تدين بالتبعية للأسرة الطولونية ، وكان يحكمها الأمير هارون بن خمارويه بن أحمد بن طولون (٢٨٨ - ٢٩٢ هـ / ديسمبر ٩٠٠ - نوفمبر ٩٠٥) انظر : الشيال : تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٥٠ .

(3) Brehier, Vie et mort de Byzance p. 150; Finlay History of Greece vol 11, p. 267; Schlumberger, Recit de Byzance et des Croissades, p, 16.

(٤) كان ليو قد تولى العرش البيزنطي بعد وفاة والده باسيل الأول في ٨٨٦ واستمر في الحكم حتى ٩١٢ .

التعرض لهم ، فتوارى بأسطوله في مضيق الهللسبونت وأخذ يراقب تحركات الأسطول الإسلامي، بينما تقدم ليون الطرابلسي ونزل على مدينة ابيدوس (١) فهاجمها ثم تركها وعبر الهللسبونت ودخل في مياه البروبونتيز وفرض الحصار على مدينة باريوم Parium (٢) . وهكذا أصبح الطريق مفتوحاً أمامه لحصار القسطنطينية ولكن يبدو أن ليون أدرك صعوبة الاستيلاء على العاصمة البيزنطية التي تمتعت بموقع استراتيجي ممتاز (٣)، وكان لابد لمحاصرها أن يكون متفوقاً في البر والبحر معاً، وهذا ما لم يتهيأ لليون الطرابلسي، الذي لم يرغب في اضاعة الوقت هباء فانسحب من أمام باريوم وخرج من الهللسبونت واتجه إلى شبه جزيرة خلقيديه Chalcidice فدار حولها واتخذ طريقه إلى سالونيك. وعندئذ عاد ايستاثيوس وأخبر الأمبراطور ليو السادس بعزم المسلمين على مهاجمة سالونيك، فأرسل الأمبراطور بالأسطول البيزنطي وأسند قيادته هذه المرة إلى السكرتير الأمبراطوري الأول هيميريوس Himerius وذلك لمنازلة المسلمين ومنعهم من التقدم نحو سالونيك، غير أن هيميريوس لم يستطع اللحاق بأسطول المسلمين، فعاد من حيث أتى (٤) .

ومادنا نتحدث عن الهجوم الإسلامي الكبير على مدينة سالونيك البيزنطية يحسن أن نمهد لذلك بكلمة عن أهمية سالونيك، الأمر الذي جعلها هدفاً لهذا الهجوم دون غيرها من المدن والموانئ البيزنطية. فقد كانت سالونيك في ذلك الوقت أهم قاعدة للأسطول البيزنطي في البحر الإيجي، ومرفأً لأصلاح سفن

(١) فيما يتعلق بأهمية ابيدوس انظر الفصل الأول من البحث ص ٨٢ حاشية رقم (١) .

(2) Monachus, op. cit., p. 862.

(٣) بشأن موقع القسطنطينية وأهميته انظر الفصل الأول من هذا البحث، ص ٨٠ حاشية رقم (٤)

(4) Monachus. op. cit., pp. 862—863.

الأسطول التي يصيبها التلف (١) ، وهذه المدينة هي عاصمة إقليم مقدونيا ، وتقع عند رأس حوض داخلي ينهى الخليج الطويل الممتد إلى الشمال بين القمم الثلجية الوعرة لجبال أوليمبس Olympus ، وأوسا Ossa إلى الغرب ، والسواحل الغنية لشبه جزيرة خلقيديه وكاساندر إلى الشرق (٢) . ثم أنها تقع عند ملتقى طرق عديدة ، أهمها طريق أجناتيا Via Ignatia الذي يخترق قلب المدينة من غربها إلى شرقها ، وهو الطريق الذي كان يربط بين روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وبين القسطنطينية وبلاد الشرق وكان تأسيسها في عام ٣١٥ ق . م . ومؤسسها هو الملك كاسندر Cassandre ملك مقدونيا ، واتخذت اسمها نسبة إلى سالونيكه Thessalonik ابنة الملك فيليب المقدوني وشقيقه الأسكندر الأكبر (٤) . وكانت مدينة عظيمة منذ الأيام الأولى للإمبراطورية ، وقد ظلت مطرده الأخذ بأسباب الاتساع والنمو ، حتى أصبحت في القرن التاسع الميلادي ثيا بيزنطيا منفردا (٥) . وتمتعت خلال القرنين الثامن والتاسع الميلاديين بسلام طويل ، أفادها في تنمية مواردها الاقتصادية حتى أصبحت واحدة من أغنى المخازن التجارية في العالم الوسيط ، فكان كهرمان البلطيق وفراء أوروبا الوسطى ومعادنها تجدد

(١) هارتان : الدولة والإمبراطورية ، ص ١٠ .

العريبي : الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٢١١ .

(2) Finlay, History of Greece vol 11, p. 266.

(3) Dictionnaire de Theologie Catholique, Tome 15, p. 574,; Finlay op. cit., p. 267.

(4) Porphyrogenetus: De Thematibus, p. 50.

انظر كذلك المرجعين التاليين :

Dictionnaire de Theologie Catholique Tome 15, p. 573; Tafrali, Thessalonique au Quatorzième Siecle p. 1.

(5) Porphyrogénetus : De Thematibus p. 51.

طريقها إلى سالونيك فتنتشرها السفن البيزنطية في كل مكان، وعند ختام القرن التاسع الميلادي أصبحت كتلة التجارية البلغارية كلها تسير عن طريقها . وفي السوق السنوي العظيم ، وهو سوق القديس ديمتريوس كانت المدينة تغص بالزحام لمدة أسبوع بمن يتوافد عليها من التجار من كل أرجاء العالم (١) وإلى جانب ذلك فقد ازدهرت بها الحركة الثقافية والفنية بدرجة تقترب من مثيلتها في القسطنطينية كما تبوأ مكانه دينية مرموقة نظرا لاحتوائها على جسد القديس ديمتريوس صانع المعجزات . ولهذا كله فقد أصبحت سالونيك المدينة الثانية في الإمبراطورية بعد عاصمة قسطنطين . وأن كان قد قيل بأنها تعادها في المركز والمكانة (٣) .

والمعروف أن الأزدهار الإقتصادي يساعد على توجيه العناية إلى وسائل الدفاع مثل الجيش والأسطول . ولكن الذي حدث في سالونيك كان على العكس من ذلك ، فقد أدى ثراء المدينة ، وازدهار الحركة الفنية والفكرية إليها فضلا عن السلام الطويل الذي عاشته في القرنين السابقين إلى تعود الأهالي على حياة الترف والدعة وفقدانهم لصفات المحاربين ، ومن ثمة فقد أهملوا وسائل الدفاع عن مدينتهم ، التي كانت في حاجة إلى الترميم والأصلاح ، كما كانت اجزاء منها منخفضة إلى درجة كبيرة . بحيث كان من السهل الوثوب إلى أعلاها إذا ما أعتلى الفرد ظهر سفينة راسيه بالميناء . أما الأبراج فوق الأسوار فكان معظمها في حالة تسوس كما كان من العسير الاتصال بين بعضها والبعض الآخر ، وكانت الحامية

(١) رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٩ ، ص ٢٤٦ .

(2) Diehl, in the preface of Tafrali's book Thessalonique p. 6.; Brehier, Vie et Mort de Byzance, p. 150; Ostrogorsky. Byzantine State, p. 228.

(٣) انظر نفس هذا الفصل ، ص ص ١٨٥-١٨٦

مهمله ، ولم تكن هناك في الغالب قوات نظامية للدفاع عن الأسوار . وحين علم الأمبراطور ليو بماعليه المدينه من أهمال في وسائل دفاعها ، قام باجراءات سريعة لتحسينها ، غير أنه زاد باجراءاته تلك الفوضى والارتباك المتفشى فيها ، فقد أخذ في إرسال قوات متتالية من القسطنطينية إلى سالونيك ، وكل دفعه من هذه القوات برئاسة قائد معين ، وزود كل قائد بتعليمات جديدة ، وقد أخذ كل قائد منهم في تغيير خطة الدفاع التي اتخذها سلفه . وكان أول قائد أرسله الأمبراطور إلى سالونيك ، يدعى بتروناس Petronas وقد رأى أن الوقت لايتسع لترميم الأسوار ، فأمر بالقاء كتلات ضخمة من الأحجار والرخام على مسافة من رصيف الميناء لتعوق تقدم سفن المسلمين ، وتبيح للقوات المدافعة عن المدينة أن تصلهم بالنار الإغريقية . غير أن ضابطا آخر يدعى ليون ، أرسله الأمبراطور إلى سالونيك بعد أن عينه حاكما لها ، رأى عدم جدوى مشروع بتروناس ، فأمر بتعطيل العمل فيه ، كما أمر بترميم الأسوار وتقويتها فشرعوا في تنفيذ اقتراحه وقبل أن ينتهى العمل في مشروع ليون ، أرسل الأمبراطور قائدا جديدا يدعى نقيتاس Matmos الذى شكل قدومه في حد ذاته ، اضطرابا وفوضى زائدين . وقد تطورت الأحداث بشكل أدى إلى جعل نقيتاس هو المسئول عن الدفاع في المدينة ، فأثناء مروره مع ليون لتفقد الأسوار ، كى فرس الأخير والقى براكبه بعيدا ، فأصيب اصابة بالغة ، وهكذا انسحب من الميدان ليخلو الأمر لنقيتاس وحده ، الذى اهتم مشروع سلفه وأخذ في تكوين جيش من أهالى سالونيك . والواقع أن الروح المعنوية للسكان كانت متدهوره للغاية فانهم لم يتحمسوا كثيرا للدفاع عن مدينتهم ، وإنما وضعوا كل ثقتهم في القديس ديمتريوس الذى اعتقدوا اعتقادا راسخا بأنه سيتولى الدفاع عنهم وحمايتهم ضد أى هجوم يتعرضون له . وحين أدرك نقيتاس ذلك ، أرسل إلى قائد

ثم ستريمون Strymon (١) ، يطلب منه امداده بجيش من الصقالبة المتربين على الحرب والمتحالفين مع حكومته . غير أن أهمال قائد ستريمون لهذا الطلب ، وسوء نية الزعماء الصقالبة من جهة أخرى ، حالا دون وصول أية مساعدة عسكرية إلى سالونيك ، فأضطر نقيتاس إلى جمع اعداد ضئيلة من المحاربين الصقالبة من القرى المجاورة لسالونيك (٢) . وهكذا عندما أخذ المسلمون في الأقتراب من المدينة ، لم يكن هناك أى تقدم فى وسائل دفاعها وفى يوم الأحد ٢٩ يوليو ٩٠٤ م (ذى القعدة ٢٩١ هـ) وصل المسلمون إلى خليج سالونيك ، فساد الذعر بين الأهالى ، وعلت أصواتهم بالنحيب والبكاء ، وهرع أغلبهم إلى الكنائس يلتمسون النصر والحماية من القديس ديمتريوس (٣) .

وعلى الفور قام ليون الطرابلسى باستطلاع التحصينات ، واختبار مشروع بتروناس الذى لم يستكمل ، وقد مكن عدم استكمال هذا المشروع المسلمين من الأقتراب من الأسوار ، خصوصا وأن عمق المياه فى بعض الأماكن فى الميناء كان ممايسر لهم ذلك . وبعد العمليات الاستطلاعية ، قام المسلمون بهجمات متقطعة كانت أشبه ماتكون بالمناوشات بقصد جس النبض وكشف مدى قوة الدفاع عن المدينة وخطط المدافعين بداخلها . وفى اليوم التالى ٣٠ يوليو ٩٠٤ (ذى القعدة ٢٩١ هـ) قام المسلمون بهجوم عنيف على الأسوار وتحت غطاء من قذائف المنجنىقات والسهام تمكنت اعداد منهم من النزول على الشاطئ وهاجموا بوابة روما — وهى احدى البوابات الموجودة بالسور

(١) يقع ثم ستريمون على ساحل مقدونيا إلى الشمال من شبه جزيرة خلقيدية .

انظر ، أطلس دائرة المعارف البريطانية ، ص ٦ .

(٢) كامينيقي ، قهر سالونيك ، صص ٤٨٧ - ٤٩١ ، صص ٥١ - ٥٢٤ . باليونانية .

(٣) كامينيقي ، قهر سالونيك ، صص ٤٩٢ - ٤٩٥ . باليونانية .

الشرقي للمدينة ، كما قاموا بمحاولة لتثبيت سلام لتسلق إلى أعلى السور ، ولكن المدافعين احبطوا هذه المحاولة وفي مساء نفس اليوم قام المسلمون بمحاولة جديدة ، فملأوا بعض قوارب الصيد الصغيرة بالحطب والقار والكبريت ، ونقلوها إلى السور الشرقي واشعلوب فيها النيران وانسحبوا ، وقد التهمت النيران بوابتي روما وكاسندرا ، ولكن حين سقطت البوابتان ظهر أن خلفهما بوابتان من الحجارة الشديدة الأحكام (١) . وأثناء الليل ساد الهدوء ميدان القتال ، وقضى المسلمون ليلتهم في الاستعداد للهجوم الكبير الذي عزموا على القيام به . وفي اليوم التالي أى في صباح ٣١ يولييه ٩٠٤ م بدأ القتال ، فامطر المسلمون المدافعين عن المدينة بوابل من السهام والحرايب ، وقذائف النيران وزجاجات المواد الحارقة ، فأصبح الموقف لا يحتمله المدافعون عن الأسوار ، فأخذوا في الانسحاب والتقهقر ، وعندئذ أندفع البحارة الأثيوبيون الذين ينتمون إلى الأسطول المصري وشرعوا في اعتلاء الأسوار ونزلوا إلى المدينة وفتحوا بواباتها واقتحم المسلمون سالونيك حيث قامت معركة كبيرة بينهم وبين القوات المدافعة عنها كان مسرحها الأزقة الضيقة للميناء ، وأحرز المسلمون انتصارا باهرا خلال هذه المعركة ، وبذلك قضوا على آخر محاولة للمقاومة داخل سالونيك (٢) .

ويفيض المؤرخ كامينياني في وصف الذعر والأضطراب الذي ساد أنحاء المدينة حين علم الأهالي بدخول المسلمون (٣) الذين استباحوها ، وخلصوا أسراهم بها وكان عددهم كما يذكر الطبري ، أربعة الاف أسير (٤) ، وان

(١) نفس المصدر السابق ، ص ٥٢٩ .

(2) Ibid, pp. 552—560.

(3) Ibid, pp. 565—584.

(٤) الطبري : تاريخ الام والملوك ، ج ١١ ، ص ٥ .

كان ابن الاثير قد ذكر انهم خمسة الاف اسير (١) وحصلوا على غنائم هائلة وثروات عظيمة ، وفي ذلك يقوم أحد المؤرخين المسلمين وهو الحافظ شمس الدين « وأتوا بالغنائم لم يعهد مثلها حتى بلغ سهم الجندي الف دينار » وقد اتفق معه في ذلك كثير من المؤرخين امثال الطبري وابن تغري بردي ووجد ليون الطرابلسي ستون مركبا تجاريا بيزنطيا راسية بميناء سالونيك ، وكانت هذه المراكب مشحونة بالذهب والفضة والمتاع والآنية فأستولى على المراكب وعلى كل ما فيها ويقول ابن خلدون في هذا الصدد « وغنم ستين من مراكب الروم بما فيها من المال والمتاع والرقيق » (٤) . وبلغ عدد الأسرى والسبايا الذين اخذهم المسلمون من سالونيك ٢٢ ألف نسمة ، وهم يشكلون عشر سكان المدينة كما يذكر كامينيائي (٥) الذي كان ضمن هؤلاء الأسرى وقد يكون في هذا التقدير نوع من المبالغة ، إلا انه يدل على كثرة عدد الأسرى أما المؤرخون المسلمون فقد قدروا عدد الأسرى بخمسة آلاف (٦) ، وربما كان ذلك أقرب إلى الحقيقة .

على أن المسلمين لم يستقروا طويلا بسالونيك ، اذ مكثوا بها لمدة عشر أيام فقط ، والظاهر انهم لم يهدفوا من وراء غزوتهم هذه إلى فتح سالونيك واستقطاعها من الدولة البيزنطية وادخالها في دائرة النفوذ الإسلامي ، ولكن

-
- (١) ابن الاثير : الغامل ، ج٧ ، ص ١٧٤ .
 - (٢) الحافظ شمس الدين ، دول الاسلام ، ج١ ، ص ١٣٨ .
 - (٣) ابن تغري بردي : في النجوم الزاهرة ، ج٣ ، ص ٣٣٢ ، الطبري : تاريخ الام والملوك ، ج١١ ، ص ٥٥ .
 - (٤) ابن خلدون : العبر ، ج٣ ، ص ٣٥٧ ، انظر كذلك : الطبري : نفس المصدر ، ج١١ ، ص ٥٥ ، ابن الاثير : الكامل ج٧ ، ص ١٧٤ .
 - (٥) كامينيائي ، قهر سالونيك ، ص ٥٨٩ ، باليونانية
 - (٦) الطبري : تاريخ الام والملوك ، ج١١ ، ص ٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ص ٣ ، ص ٣٥٧ ج٣ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، ص ١٧٤ .

كان الغرض من الهجوم على هذه المدينة هو القيام بغارة انتقامية سريعة ضد أحد القواعد الرئيسية للبحرية البيزنطية رداً على الهزائم التي لحقها الأسطول البيزنطي بمسلمي كريت في السنوات الأولى من عهد الأسرة المقدونية وكذلك الحصول على الغنائم من هذه المدينة الشهيرة بثرائها . فضلاً عن رغبة المسلمين في العودة السريعة إلى قواعدهم قبل أن يفیق أولو الأدمر في بيزنطة من أثر هذه المفاجأة القاسية ، ويشرعوا في القيام بعمل عسكري يكون من نتيجته حصار المسلمين في سالونيك والقضاء عليهم .

ومما يدعو إلى الدهشة أن الإمبراطور البيزنطي ليو السادس لم يقم بأية محاولة لاسترداد سالونيك من يد المسلمين طوال العشرة أيام التي قضوها بها وبعد أن حصل المسلمون على الغنائم والأسرى ، حان موعد رحيلهم ، وعندئذ أرسل الإمبراطور ليوبعض قطع الأسطول الإمبراطوري لمطاردتهم ، ولما كان القتال متعذراً بالنسبة للمسلمين نظر لأزدحام سفنهم بالأسرى والغنائم ، فقد رأوا أنه من الأفضل مراوغة الأسطول البيزنطي ، فتوقفوا ستة أيام عند جزيرة باتموس Patmos — إحدى جزر البحر الإيجي — ويومين عند جزيرة ناكسوس Naxos — إحدى جزر السيكلاديز — وكانتا تدينان بالتبعية لجزيرة كريت في ذلك الوقت (١) ، ثم رسا المسلمون بالقرب من جزيرة ديا Dia — إلى الشمال من مدينة الخندق — واحتماها لمدة ثلاثة أيام ، وبعد ذلك واصلوا سيرهم حتى بلغوا جزيرة كريت (٢) .

(١) لم تأت المصادر بشيء عن تفاصيل استيلاء مسأمي كريت على هاتين الجزيرتين ، أو عن التاريخ الذي خضعتا فيه لكريت ، والظاهر أن ذلك تم أثناء الغارات العديدة التي

كانوا يقومون خلالها بالهجوم على جزر البحر الإيجي وجزر السيكلاديز .

(٢) كامينياتي ، قهر سالونيك ، صص ٥٨٣ - ٥٨٤ باليونانية .

ويصف المؤرخ البيزنطي كامينيائي استقبال الأهالي بمدينة الخندق للمتصرين المسلمين فيقول أنهم خرجوا جميعاً لاستقبالهم فرحين مهللين معلنين عن فرحتهم بدق الطبول والنفخ في الأبواق ، وأخذت النساء تطلقن الزغاريد ، كما أخذ الاطفال يرددون الأهازيج . وبعد أن احتفل الجميع بانتصارهم وعودتهم سالمين ، أخذ ليون الطرابلسي ورجال الأسطول يوزعون الغنائم والأسرى على الأطراف التي اشتركت في هذه الغزوة حتى يستطيع كل أسطول أن يعود إلى قاعدته قبل انتهاء فصل الصيف ومن كريت خرج الأسطول المصري إلى الإسكندرية مباشرة ، كما خرج الأسطول الشامي إلى قواعده في صيدا وصور وطرابلس وطرسوس (١) .

وهكذا استطاع المسلمون عن طريق تعاونهم في عمل عسكري مشترك أن ينزلوا بالدولة البيزنطية هذه الضربة العنيفة التي اعتبرها عدد كبير من المؤرخين الغربيين وبصفة خاصة المؤرخين الفرنسيين شلومبرجييه Schlumberger ، وبرييه Brehier وبلوي Bloy ، من أكبر المآسي التي تعرضت لها الدولة البيزنطية خلال تاريخها الطويل (٢) . ولاشك أن هذه الرأي على جانب كبير من الصواب ، خاصة لما ترتب على تلك الغارة من نتائج تتعلق ببيزنطة ، وهي لم تقتصر فقط على علاقتها بكريت ، وإنما تعدتها إلى علاقاتها مع جيرانها الآخرين ، إذ أدت إلى الخط من هيبته في نظر أعدائها ، وأخذ كل منهم يحاول أن ينال منها قدر استطاعته ، وأن يحصل على ما يبغيه من مكاسب على حسابها ، مثال ذلك سيميون ملك بلغاريا الذي كان في صراع دائم مع الدولة البيزنطية ، فقد رأى بعد أن انسحب المسلمون من سالونيك أن

(1) Ibid, pp. 585—599.

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p, 35; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 150; Bloy, Byzance, p. 20.

يستقطعها ويضمها إلى ممتلكاته ، وشرع في تنفيذ هذا المشروع ، ولما وجد
الأمبراطور ليو السادس أنه لن يستطيع الوقوف في وجهه والحيولة بينه وبين
تنفيذ غرضه ، تنازل له عن أجزاء من الممتلكات البيزنطية ، مقابل تخليه عن
أطماعه في سالونيك ، وتم بينهما اتفاق في عام ٩٠٤ م (٢٩١ هـ) استحوذ
سيميون بمقتضاه على كل الأراضي الصقلية الواقعة إلى الجنوب من مقدونيا
والبانيا الحالية ، وبذلك نجح سيميون في توحيد كل القبائل الصقلية بالبلقان
تحت لوائه (١) .

وقد أستغل الروس أيضا هذه الكارثة التي حلت ببيزنطة على يد المسلمين
وقدم ملكهم اوليج Oleg في عام ٩٠٧ م (٢٩٤ - ١٩٥ هـ) بأسطول كبير
وفرض الحصار على القسطنطينية ذاتها ، وأخذ في تخريب المناطق المحيطة بها
واضطر الإمبراطور البيزنطي ليو السادس إلى مقابله وتم عقد معاهدة بينهما
حصل اوليج بمقتضاها على إمتيازات تجارية هامة ، وقد جددت هذه المعاهدة
في عام ٩١١ م (٢٩٨ - ٢٩٩ هـ) .

كذلك فقد انعكست آثار هذه الغارة على العلاقات بين بيزنطة وكريت
لفترة طويلة من الزمن ، ففي أكتوبر عام ٩٠٨ م (المحرم ٢٩٦ هـ) ، أرسلت
الدولة البيزنطية أسطولا بقيادة هيميريوس ، اشتبك مع أسطول كريت في
معركة في البحر الإيجي - ولم تأت المصادر بشيء عن تفاصيلها - ويقال
أن البيزنطيين انتصروا على الأسطول الكريتي خلالها (٣) .

(1) Brhler. op. cit., p. 150; Ostrogorsky, History of the Byzantin State,
p. 228.

(2) Brhler, op cit., pp. 150—151.

انظر كذلك العريني : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٣٣٤ .

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 229; Vasiliev, op. cit., p. 404.

وقد رأت الدولة البيزنطية بعد الخسائر التي لحقت بها من جراء التعاون بين أسطولى كريت والشام ، أن تحول دون اتصالهما في المستقبل ، ولتحقيق ذلك ، قررت الاستيلاء على جزيرة قبرص وإخراجها من يد المسلمين ، وكان موقع الجزيرة مما يتيح لبيزنطة تحقيق غرضها ، إذ أنها تقع في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر المتوسط ، ويقترب طرفها الشرقي من خليج الأسكندرية ، مما جعلها سهما منصوبا إلى السواحل الشامية (١) . وقد أرسلت بيزنطة في عام ٩١٠ م (٢٩٧ هـ) أسطولا بقيادة هيميريوس لغزو قبرص وإعادة تأسيسها من جديد (٢) ، وهاجم هيميريوس الساحل الشرقي للجزيرة ، لكنه لم ينجح إلا في تأسيس بعض القواعد البيزنطية على هذا الساحل ومنها أتيجه في نفس العام إلى مدينة اللاذقية على الساحل الشامي ، فهاجمها واحتل بعض الحصون بها وأستولى على أعداد كبيرة من الأسرى المسلمين (٣) .

وكان رد الأسطول الشامي على هذه الغارة حاسما ، إذ قام هذا الأسطول بقيادة داميان Damianus (٤) ، بالإغارة على القواعد البيزنطية التي أسسها هيميريوس على الساحل الشرقي لقبرص ، وخرّبها وأعادها لسلطان المسلمين

(١) سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، ص ٣ - ٤ .

(٢) يرجع الفضل في سرد اخبار هذه الحملة وما ترتب عليها من نتائج إلى البطريك نيقولا مستيكوس Nicola Mysticus ، الذي اشار اليها في ثنايا خطابه إلى امير كريت في

عام ٩١٥ م انظر ص ٢١٠-٢١١ .

(3) Nicolai Constantinophilitani Archiepiscopi Epistolae, in patrologiae cursus completus, Tomus unicus, p. 34.

(٤) داميان هو احد اليونانيين المرتدين عن الدين المسيحي ، اعتنق الاسلام وعرف بنشاطه الكبير في الجهاد ضد البيزنطيين ، وكان يتولى امارة الثغور إلى جانب رئاسة الأسطول الإسلامي في الشام . انظر ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٤٤ .

كما انزل العقاب بالقرى المسيحية التي أمدت هيميريوس بالمساعدة وخضعت له ، ثم عاد إلى قاعدته في طرسوس محملا بالغنائم والأسرى (١) وهكذا فشلت بيزنطة في تحقيق غرضها ، والعمل على قطع الاتصال بين أسطولى كريت والشام ، فقد كانت البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط على درجة كبيرة من القوة ، ولم يكن من اليسير القضاء عليها ، بعد أن ارتفع شأنها منذ أوائل القرن العاشر الميلادي ، وأصبحت أكثر رسوخا واستقرارا. في الوقت الذي أصاب التدهور والأضمحلال البحرية البيزنطية في عهد الإمبراطور ليو السادس ، بعد الانتعاش الذي شملها في عصر سلفه باسيل الأول (٣) . ذلك أن الإمبراطور ليو لم يوجه اهتماما كبيرا لشئون السياسة والحرب في دولته ، بل انصرف للأشتغال بأمور اللاهوت والفلسفة والقانون وغيرها من العلوم حتى أطلق عليه المعاصرون أسم ليو الحكيم أو الفيلسوف Leo Philosophi ، هذا إلى جانب انشغاله بالمشاكل الداخلية التي قامت بسبب زيجاته المتعددة ، وهو الأمر الذي يخالف تعاليم الكنيسة الشرقية ، مما ترتب عليه نشر بذور الخلاف بين هذا الإمبراطور والكنيسة والبلاط والشعب كله (٤) . ويقول المؤرخ الروسي أوستروجورسكى أنه من الأمور التي تؤخذ على الإمبراطور ليو السادس أنه لم يوجه اهتماما كبيرا للسياسة الخارجية لدولته ، مما ترتب عليه الأضرار بالإمبراطورية البيزنطية في عهده ضررا بالغا (٥) .

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae pp. 31—35.

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ص ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

(٣) لويس : نفس المرجع ، ص ٢٢٦ .

(4) Ostrogorsky, op. cit., p. 231, C.M.H. vol IV, p. 57.

(5) Ostrogorsky, op. cit., p. 215, 226.

ورغم اهمال الإمبراطور ليو السادس للشئون العسكرية في دولته ، وتشاغله عنها بأمور أخرى ، إلا أن الضربة العنيفة التي تلقتها الدولة البيزنطية في سالونيك ، والفشل الذريع الذي أسفرت عنه محاولاتها لمنع الاتصال بين الأساطيل الإسلامية في شرقي البحر المتوسط وأسطول كريت ، اضطره إلى توجيه المزيد من العناية والأهتمام للقوة العسكرية التي هي السبيل الوحيد لإحراز النصر على الأعداء . فأخذ في الإعداد لحملة ضخمة بقصد استرداد كريت وادخالها في دائرة النفوذ البيزنطي من جديد ، ولم يبخل في الأنفاق عليها ، ويمكن ملاحظة ذلك بأستعراض التفاصيل الخاصة بها ، تلك التفاصيل التي أنفرد بعرضها الإمبراطور قسطنطين السابع دون المؤرخين جميعا من معاصرين ومتأخرين ، بيزنطيين كانوا أو مسلمين ، وذلك في كتابه «المراسم الإمبراطورية» (١) . وجدير بالذكر أن كثير من المؤرخين المحدثين ، وعلى رأسهم كبار المشتغلين بتاريخ العصور الوسطى أمثال فازيلييف ، ، وبريه واوستر جورسكى ، وفنلاي ، وديل ، ومارسيه وغيرهم ، لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة ، وإنما أشاروا إليها بصفة عامه في عبارات شديدة الإيجاز (٢) ، لذا كان اعتمادنا أساسا على مؤلف قسطنطين السابع في استجلاء الغموض الذي يحيط بالحملة المذكورة وأهميتها في تاريخ العلاقات بين كريت الإسلامية والدولة البيزنطية .

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة في كتاب «المراسم الإمبراطورية» وهو باليونانية ، ص ص

٦٥١ - ٦٦٠ .

(2) Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, p. 404; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 229; Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 152, Finlay, History of Greece, vol 11, p. 278; Diehl Histoire de l'empire Byzantin, p.98; Diehl et Marcais, le monde orientale, p. 451.

ولقد أسندت قيادة الأسطول في هذه الحملة إلى البطريق واللغيشيث هيميريوس . وبلغ عدد البحارة في الأسطول الإمبراطوري وأساطيل الولايات البحرية البيزنطية التي اشتركت في الحملة ٣٣٧ و ٣٣ بحارا ، كما ضمت اعدادا كبيرة من السفن الحربية البيزنطية بلغ عددها أكثر من ٢٤٥ قطعة مابين كبيرة وصغيرة . وكانت هذه الأعداد من السفن والبحارة موزعة على النحو التالي :

أولا : الأسطول الإمبراطوري : تكون هذا الأسطول من ٦٠ درومونه وبلغ بعضها من الضخامة أنه كان للسفينة الواحدة من ٢٠٠ - ٢٣٠ مجداف وبلغت حمولة الواحدة منها ٧٠ مقاتلا . إلى جانب ٤٠ بامفيليه تحمل كل منها من ١٣٠ إلى ١٦٠ مقاتلا ، و ٧٠ زورقا حربيا « روسوس » . وبلغ عدد البحارة في هذا الأسطول ١٢ ألف بحار بيزنطي ، ٧٠٠ بحارا من الروس ، ٥٠٣٧ بحارا من المردة (١) .

ثانيا : أساطيل الولايات البحرية البيزنطية : وقد اشترك ثيم كبير هايوت في هذه الحملة بأسطول كبير مكون من ١٥ درومونه ، ١٦ بامفيليه ، وكان يضم ٦٦٠٠ بحارا . وتألّف أسطول ثيم ساموس من عدد غير محدد من الدرومونات ، بالإضافة إلى ٢٠ بامفيليه ، ٥٠٠٠ بحارا . أما أسطول ثيم البحر الإيجي فقد أشتمل على ٧ درومونات ، ٧ بامفيليات ، ٤٠٠٠ بحارا كما تكون ثيم الهيلاس من ١٠ درومونات ، ولم يذكر الإمبراطور قسطنطين السابع عدد البحارة العاملين في هذا الأسطول .

وقد أسندت قيادة الجيش في هذا الحملة إلى القائد البيزنطي رومانوس

(١) بشأن التعريف بالمردة ، انظر نفس هذا الفصل من البحث ، ص ١٦٨ حاشية رقم (٦)

ليكاينوس (١) وتكون هذا الجيش من الفرسان والمشاة ، أما الفرسان فقد بلغ عددهم ٠٣٧ و ٦ فارسا جمعوا من ثبات مقدونيا والتراقيسيون وارمينيا . وبلغ عدد المشاة ١٢٩ و ٣١ رجلا ، من بينهم ٥٠٢ و ١٢ من القادة والجنود من الجيش الإمبراطوري ، ٧٦٠ ر ٦ رجل من الكشافة والمقاتلين من ثيم ساموس ، كما أرسل البحر الإيجي ١٠٠ و ٣ من الكشافة والمقاتلين ، إلى جانب ٠٨٧ و ٤ كشافا ومقاتلا من المردة .

هذا ، وقد انفقت مبالغ طائلة على أعداد هذه الحملة ، وساق الإمبراطور قسطنطين السابع أمثله من العطاءات الإضافية Rogas التي صرفت للقادة والجنود الذين اشتركوا في الحملة والتي تحملتها كلها الخزينة الإمبراطورية ، وقد منح البحار الذي ينتمي إلى الأسطول الإمبراطوري ٦٦ نوميسما (٢) ، ١٣ ليره (٣) ، وتقاضى البحار الروسي في الأسطول الإمبراطوري ٤٣ نوميسما ، ٥٩ ليرة ، على حين تناول كل بحار من العاملين في أساطيل الولايات ٢٤ نوميسما ، ٨٣ ليره .

-
- (١) هو الذي أصبح امبراطورا منتصبا للعرش في الفترة من ٩١٩ - ٩٤٤ م. وهي فترة تصور الامبراطور الشرعي قسطنطين السابع ، انظر التفاصيل ص ص من هذا الفصل .
- (١) (٢) النوميسما ، هي عملة ذهبية بيزنطية ، وكانت تساوى واحدا على اثنين وسبعين (١/٧٢) من الرطل من الذهب ، وكانت النوميسما تنقسم إلى ١٢ ميلياريسيا ، التي تنقسم بدورها إلى اثني عشر فلسا . انظر ، رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٢١٠ .
- (٣) الليره ، هي عملة ذهبية استعملت في الدولة البيزنطية ، وكانت تسلك على اساس اثنين وسبعين قطعة من الذهب ، وهي تساوى ٣٢٧ جراما من الذهب ، ويستطرد المؤرخ موريس لومبار في تعريفه بالليره قائلا « أى أنها هي الصلدى المعروف في الاصطلاح القسطنطيني بالصلدى الذهبى ، أو الديناريون الذهبى ، ومنه اشتق المسلمون عملتهم الذهبية أو الدينار » انظر ، لومبار : الاسس النقدية للسيادة الاقتصادية . بحث ترجمة ونشره بالعربية توفيق اسكندر في كتاب بحوث في التاريخ الاقتصادي القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٥٦ .

أما بالنسبة لعطاءات الفرسان والجنود المشاه المشتركين في الجيش الإمبراطوري وجيوش الولايات ، فكانت على النحو التالي :

الفرسان : لم يذكر الإمبراطور قسطنطين عطاءات الفرسان بالجيش الإمبراطوري أما الفارس الذي ينتمي إلى ثيم مقدونيا فكان عطاؤه ٤٢٣ نوميسما ، ٤١ ليره . وتقاضى الفارس من ثيم التراقيسيون ٢٤ نوميسما ، ٨٠ ليره ، أما الفارس الأرميني فقد منح ٤٨ نوميسما ، ٤١ ليره .

المشاه : تقاضى كل قائد بالجيش الإمبراطوري عدد غير محدد من النوميسمات ، ٩٠ ليره ، ومنح الجندي في هذا الجيش ٣٢ نوميسما ، ٦٩ ليره . وبلغ عطاء الجندي الواحد في ثيم ساموس ١١ نوميسما وليره واحدة أما الجندي الذي ينتمي إلى ثيم البحر الإيجي فتقاضى ٣ نوميسمات ، ٥٤ ليره وبلغ عطاء الجندي من المردة ٣٢ نوميسما ، ٦٦ ليره .

هذا إلى جانب كميات هائلة من أدوات القتال ، من السيوف ، والحرايب والسهام والدروع والخوذ الحديدية والشوك والكلاليب ، والمواد الملتهبة والمنجنوقات وغيرها من الآلات التي استخدمها الجيش والأسطول البيزنطي في الحرب .

ومن العرض السابق يتضح مدى استعدادات هذه الحملة الكبيرة التي فاقت ما قبلها من حملات أرسلتها بيزنطة ضد كريت . ورغم أن الإمبراطور قسطنطين السابع أفاض في ذكر استعدادات هذه الحملة ، إلا أنه أشار بصورة سريعة إلى الاشتباكات التي حدثت بينها وبين الكريتيين . ولم تمدنا المصادر الأخرى بما يفيد في هذا المجال . وقد ذكر الإمبراطور قسطنطين أن الحملة ابجرت إلى كريت في صيف عام ١١٩ م ، لكنه لم يحدد التاريخ الدقيق

لإبحارها ، ووصل هيميريوس امام كريت دون أن يواجه صعوبات تذكر لكنه لم يستطع النزول إلى ارض الجزيرة ، نظرا للمقاومة الشديدة التي قابلها من المسلمين ، ففرض الحصار عليها ، واستمر محاصرها لمدة ثمانية شهور وقعت خلالها بعض الإشتباكات بين الطرفين كان التفوق فيها للمسلمين . واذ تملك هيميريوس اليأس ، رفع الحصار وانسحب من امام كريت . وفي طريق عودته إلى بيزنطة ، طارده أسطول الشام بقيادة ليون الطرابلسي ، والتقى الطرفان في معركة كبيرة بالقرب من جزيرة ساموس في ربيع عام ٩١٢ م (٢٩٩ هـ) ، الحق فيها المسلمون بالبيزنطيين هزيمة ساحقة ودمروا العدد الأكبر من أسطولهم ، واستطاع القائد رومانوس ليكاينوس أن ينقذ البقية الباقية من جيشه بصعوبة بالغة. اما هيميريوس فقد نجح في الفرار إلى جزيرة ميتلين ، واختفى بها لبعض الوقت ، وحين عاد إلى بيزنطة كان الإمبراطور ليو السادس قد توفي (١٢ مايو ٩١٢ م) وخلفه على العرش شقيقه الإمبراطور الإسكندر Alexandre (١) ، الذي أمر بادخال هيميريوس الدير ، ليقتضى به بقية حياته عقابا له على هزيمته .

والواقع أن الواقعة الصامدة التي وقفها كريت في وجه القوات البيزنطية التي استمرت في حصارها للجزيرة لمدة ثمانية شهور كاملة ، توضح مدى القوة التي كانت تتمتع بها الجزيرة وقتذاك ، وإن كانت المصادر المعاصرة والمتأخرة لم توضح ذلك صراحة إلا أن الباحث بوسعه أن يدرك هذا الأمر أستنادا إلى سير الحوادث التاريخية ، وقد زاد من فعالية هذه القوة مساندة

(١) استمرت فترة حكم الإمبراطور الاسكندر عاما واحدا فقط ، من ١٢ مايو ٩١٢ م حتى ٦ يونيو ٩١٣ م ، وهو تاريخ وفاته . انظر ،

Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

الأسطول الشامى لها . على أن أهم ما أسفرت عنه هزيمة القوات البيزنطية . من نتائج ، هو التغيير الذى طرأ على سياسة بيزنطة تجاه كريت . فبعد صراع عنيف استمر بين الطرفين لمدة ثلاثة ارباع القرن ، ولم يسفر عن أية مكاسب جنتها بيزنطة من ورائه ، ادركت الحكومة البيزنطية ، عدم جدوى استخدام القوة ضد كريت ، فلجأت إلى الأساليب السياسية والسلمية ، لعلها تحقق عن طريقها ما فشلت القوة العسكرية عن تحقيقه وتنجح في كف اذى المسلمين بكريت عنها . وكان ذلك هو الطابع المميز للسياسة البيزنطية ، فقد كان يحدث احيانا — كما يذكر المؤرخ رانسيان — اذا لم تكن بيزنطة راغبة في خوض غمار الحرب لسبب ما ، أن تلجأ إلى أتباع الدبلوماسية الهادئة ، والسياسة واللين مع الخصم حتى تتحسن ظروفها ، وعندئذ تخوض الحرب (١) . وهى نفس السياسة التى اتبعتها مع كريت .

فقد أرسل بطريرك القسطنطينية نيقولا ميستيكوس (٢) — بصفته وصيا على الإمبراطور القاصر قسطنطين السابع — رسالة إلى أمير كريت (٣) في

(١) رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٩٣ .

(٢) يعتبر نيقولا ميستيكوس من اشهر بطاركة الكنيسة الشرقية في القرن العاشر الميلادى لما امتاز به من قوة الشخصية والنبل والشرف ، وقد تولى بطريركية القسطنطينية في مستهل القرن العاشر الميلادى اثناء حكم الامبراطور ليو السادس ، ثم قام الخلاف بينهما بسبب رفض الطريرك نيقولا الاعتراف بالزواج الثالث للامبراطور ليو ، فعزله الأخير عن البطريركية في يناير ٩٠٧ م على انه عاد اليها بعد وفاة هذا الامبراطور في مايو ٩١٢ م ، وشارك في الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد آنذاك . انظر ،

Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 231, C.M.H., vol IV, p. 57.

(٣) لم يشر البطريرك نيقولا في رسالته إلى اسم أمير كريت وقتذاك ، ولم تأت المصادر الأخرى من بيزنطية أو عربية بما يفيد في هذا الشأن ، ولكن المعروف أن الامير شعيب بن أبي حفص كان معاصرا للامبراطور باسيل الأول (٨٦٧ — ٨٨٦ م) وبناءا على ذلك يكون أمير كريت الذى وجه اليه البطريرك نيقولا هذا الخطاب اما الامير شعيب أو ابنه عبدالله الذى خلفه على حكم الجزيرة .

عام ٩١٥ م (٣٠٢ - ٣٠٣ هـ) تفيض رقة وعذوبة بدأها بقوله : « إلى أمير كريت الأعظم ، المتألق ، المختار ، نهر القوة المتدفق ، الصديق الأول ، المنتمى إلى أفضل الأصول وأقواها . ليس أى رجل بين الرجال فى قوتك ، ولا بإمكان أى انسان فى الوجود أن يتفوق على خلقتك (١) ثم أوضح للأمير كريت أن الغرض من مراسلته هو طلب السلام ، وقد عبر البطريرك نيقولا عن ذلك فى عبارات تدل على مدى الاحترام والتقدير الذى يكنه البيزنطيون للمسلمين رغم ما بينهما من عدوات واختلافات دينية ، فقال « أن دولتى المسلمين والروم الشقيقتان مرموقتان ، وهما تمتازان وتتألقان فى قبة السماء الزرقاء ، ولهذا وحده ، لا مفر لنا من أن نعيش معا كأخوه ، رغم اختلافنا فى العادات واللغة والدين (٢) »

ومن المتعذر رسم صورة واضحة للعلاقات بين بيزنطة وكريت فى الفترة التالية لعام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٩ م . إذ لم تأت المصادر بشيء عن طبيعة هذه العلاقات مما يكشف الغموض الذى يحيط بهذه الفترة . وهذا يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان أمير كريت قد استجاب لدعوة السلام التى وجهها اليه البطريرك نيقولا ، وماهى الأسباب التى دفعته لذلك ؟ وهل اسباب تتعلق بالأحوال الداخلية فى امارته ، أم غير ذلك من أسباب ؟ ولن نجد - للأسف - الإجابة الحاسمة على هذه التساؤلات وغيرها ، فلم تأت المصادر العربية بالكثير عن علاقات كريت بالدولة البيزنطية بصفة عامة ، كما انها لم تذكر شيئا كذلك عن الأحوال الداخلية فى الجزيرة . أما المصادر البيزنطية فقد اهتمت بسرد العلاقات السياسية بين بيزنطة وكريت ، واغفلت ماعداها من امور خاصة بأحوال كريت الداخلية .

(1) Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae, tomus unicus, p. 27.

(2) Ibid, p. 29.

وهناك احتمال مؤداه أن تكون الدولة البيزنطية لجأت إلى شراء السلام مع كريت بعد الهزائم المتتالية التي منيت بها ، وذلك بتعهدها بدفع الجزية السنوية لامراتها حتى تأمن جانبهم وتتفرغ لمشاكلها الأخرى خصوصاً وأنها كانت تمر بظروف حرجة خلال فترة زمنية امتدت منذ عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥ م ، تلك الظروف التي سنعرض لها فيما بعد بشيء من التفصيل . ولا نستبعد ذلك الاحتمال ، خاصة وأن هناك إشارة أوردها ابن حوقل عند تعرضه لجزيرة كريت الإسلامية ، يفهم منها أنه كانت هناك هدنات تعقد بين المسلمين بها والدولة البيزنطية من آن لآخر ، وكان الجانب الكريتي فيها هو الجانب الأقوى الذي يملئ شروطه على البيزنطيين ، فقد قال ابن حوقل «وفي حين الهدنة والمسالمة مصونه (١) ، في شرائط بينهم عزيزة ، مقرونة بالقهر والاستظهار» (٢) . وأن كان المؤرخون البيزنطيون — وهم مصدرنا الرئيسي في موضوع هذا البحث لم يشيروا إلى مثل هذا الأمر ، فيغلب على الظن أنهم كانوا يجدون في ذلك شيئاً شائناً لا يشرفهم ذكره . وعلى أية حال فهذه كلها مجرد فروض واحتمالات ، دفعنا إليها الصمت الذي يحيط بالعلاقات البيزنطية الكريتيه ، خلال هذه الفترة الزمنية الممتدة من عام ٩١٥ وحتى عام ٩٤٩ م .

كان هذا فيما يتعلق بالجانب الكريتي ، أما الدولة البيزنطية ، فقد وجد لديها من الأسباب ما جعلها تحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت ، وكانت هذه الأسباب تتعلق في المرتبة الأولى ، بالصراع الذي نشب بينها وبين جيرانها على الحدود المختلفة . فبعد وفاة الإمبراطور ليو السادس في ١٢

(١) أى أن كريت هي المصونة

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ص ٢٠٤ .

مايو ٩١٢ م ، خلفه على العرش ابنه قسطنطين السابع ، الذى كان فى السادسة من عمره آنذاك ، فتولى تصريف شئون الحكم كوصى على الطفل القاصر ، عمه الاسكندر ، غير انه لم يلبث أن توفى فى ٦ يونيه ٩١٣ م بعد مباشرته مهام الوصاية بعام واحد (١) . ولما كان قسطنطين لم يتجاوز السابعة بعد ، فقد تولى تصريف شئون الإمبراطورية مجلس وصاية برئاسة بطريك القسطنطينية نيقولا مستيكوس . لكن الظروف التى تعرضت لها بيزنطة وقتذاك ، والخاصة بصراعها مع البلغار ، استلزمت قيام حكم عسكرى قوى ، وقد انتهز هذه الظروف المواتية قائد البحرية البيزنطية الدرنبجار رومانوس ليكاينوس وعن طريق تقربه من الإمبراطورة الوالدة زوى Zoé نجح فى أن يصبح وصيا على الإمبراطور قسطنطين ، وكان ذلك فى عام ٩١٩ . ولم يلبث ليكاينوس أن وطد مركزه ونفوذه وتخلص من امبراطوره زوى ومستشاريها . وفى مايو ٩١٩ م زوج ابنته هيلين Helena من الإمبراطور قسطنطين السابع ، وبذلك حصل على لقب الأمير الوالد Basileopator (٢) وفى ٢٤ سبتمبر ٩٢٠ م رفعه صهره قسطنطين إلى رتبة القيصر Ceasar ، ثم ارتقى إلى مرتبه أعلى من ذلك بأن أصبح شريكا فى الحكم للإمبراطور قسطنطين ، وذلك فى ١٧ ديسمبر ٩٢٠ م (٣) . على أن طموح ليكاينوس لم يقف عند

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 377.

(٢) يعتبر هذا اللقب أعلى الألقاب البيزنطية فى ذلك الوقت ، وقد أنشأه الامبراطور ليو السادس وكان هذا اللقب مقتصرا على اصهار الامبراطور ، ومن الامتيازات التى يحصل عليها حامله هو السماح له ولزوجته بتناول الطعام على المائدة الامبراطورية .

انظر : Ostrogorsky, op. cit., p. 215.

رانسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٩٢ .

(3) Theophanes Continuatus, pp. 380—384.

راجع كذلك : Ostrogorsky, op. cit., pp. 231—234.

هذا الحد ، بل سرعان ما انفرد بثئون الحكم ، واصبح الاوتوقراطور
باسيليوس (أى الحاكم المفرد) ، ورفع ثلاثة من ابنائه إلى مرتبة اباطرة
زملاء للأمبراطور الشرعى قسطنطين السابع ، بل لقد جعل ابنه كريستوفر
Christopher يسبق الإمبراطور قسطنطين فى الترتيب ، أى انه أصبح عليه
أن يلى أباه مباشرة فى حكم الإمبراطورية ، كما بذل كل جهده فى سبيل
صرف الإمبراطور قسطنطين عن التدخل فى شئون الحكم ، بأن شجعه على
التفرغ لدراسة الأدب والتاريخ (١) . وقد صاحبت هذه التطورات الداخلية
أحداثا خارجية خاصة بالعلاقات بين بيزنطة وجيرانها البلغار والمسلمين
والروس .

فقد كانت بلغاريا فى هذه الحقبة من الزمن تشمل جانبا كبيرا من غرب
شبه جزيرة البلقان ، ومعظم الأراضى الواقعة بين نهر الدانوب وموراڤيا
وبولندا ، وكان يتولى عرشها آنذاك القيصر سيميون Tsar Symeon (٨٩٣
— ٩٢٧ م) ، الذى نشأ بالقسطنطينية كرهينه ، واتفق اللغة اليونانية والخطابة
وعلم المنطق ، كما استهوته الحضارة البيزنطية إلى حد كبير ، بعد أن وقف
على عظمة وأبهة البلاط البيزنطى ، وكانت اقصى احلام سيميون أن يستولى
على القسطنطينية ويضع التاج الإمبراطورى على رأسه ، وينشئ امبراطورية
عالمية واحدة تحل محل الإمبراطورية البيزنطية . وبمجرد توليه الحكم فى بلاده نشأ
الصراع بينه وبين بيزنطة ، وكانت الأسباب المباشرة له تجارية بحتة . إذ أن
اثنين من التجار البيزنطيين حصلوا من الإمبراطور ليو السادس على حق
احتكار التجارة البلغارية ، ثم عمدا إلى نقل السوق البلغارية إلى مدينة سالونيك

(1) Theophanes Continuatus, p. 339.

Ostrogorsky, op. cit , pp. 239—240.

انظر :

راجع ايضا :

وفرضا رسوما باهظة على التجار البلغار ، فتقدم هؤلاء التجار بشكواهم إلى القيصر سيميون الذي رفعها بدوره إلى الإمبراطور ليو ، فأهملها أهمالا تاما . وبناء على ذلك أعلن سيميون الحرب على بيزنطة ، وقد حدثت بعض الاشتباكات بين الطرفين تراوحت بين النصر والهزيمة لكليهما ، وانتهت بانتصار البلغار انتصارا حاسما على الجيوش البيزنطية في معركة بلغار وفيجون Bulgrophygon بالقرب من أدرنه ، وذلك في عام ٨٩٦ م . وبمقتضى الصلح الذي أعقب هذه المعركة تحتم على بيزنطة أن تدفع الجزية السنوية للمملكة البلغارية (١) .

وما أن تولى الإمبراطور الأسكندر الحكم في سنة ٩١٢ م ، حتى امتنع عن دفع هذه الجزية للقيصر سيميون ، فهاجماً له بذلك الدافع الذي أعلن من أجله الحرب من جديد (٢) . وقد نجح الجيش البلغاري في انزال الهزائم المتوالية بالبيزنطيين في معارك مختلفة ، على أن أشد الهزائم التي ألحقها بهم وقعت في عام ٩١٧ م حين تم سحق الجيش البيزنطي عند نهر اخيلوس Achelous بالقرب من انخيالوس Anchialus في إقليم تراقيا . وفي سنة ٩١٨ م هاجم سيميون شمال بلاد اليونان ، وتوغل بها حتى وصل إلى خليج كورنثة ، وقد ثمل سيميون بهذا النصر فأعلن نفسه قيصر البلغار وإمبراطور الرومان (٣) وبعد ذلك تطالع إلى الأستيلاء على العاصمة البيزنطية نفسها . وفي عام ٩٢٣ م ، استولى على أدرنه ، على أنه أدرك استحالة اقتحامه

(١) عمر كمال توفيق : الامبراطورية البيزنطية ، ص ، ص ١١٥ - ١١٦ .
انظر كذلك ،

Ostrogorsky, op. cit., pp. 227—232; C.M.H., vol IV, p. 237.

(2) Ostrogorsky, op. cit., 231.

(3) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 385—390

راجع كذلك ، عمر كمال توفيق ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٦ .

Ostrogorsky, op. cit., pp. 232—234.

القسطنطينية التي أمتازت بحصانتها (١)، إلا بامتلاكه أسطولا بحريا إلى جانب قواته البرية ، ولما كان لا يمتلك مثل هذا الأسطول ، فقد عقد تحالفه مع الأخشيديين حكام مصر حتى يمكنه الاستفادة من مهارة المصريين في القيام بهجوم مشترك على القسطنطينية . (٢) على أن الإمبراطور ليكاينوس احبط هذه التحالفه بتقريبه إلى الأخشيديين ، فأرسل إلى محمد بن طنجج الأخشيدي حاكم مصر انذاك ، برسالة يخطب وده فيها ، وبالرجوع إلى المصادر العربية والبيزنطية المعاصرة والمتأخرة لم نعثر على نص رسالة ليكاينوس ، وان كان قد وصلنا نص رد الأخشيدي عليه ، وقد انفرد المؤرخ القلقشندي بإيراد هذا النص (٣) ، ومنه يفهم أن الإمبراطور البيزنطي أوفد برسولين من قبله إلى الأخشيدي ، أحدهما يدعى نيقولا ، والآخر اسحاق ، وبعد أن اجزل رومانوس الشاء للأخشيدي بقصد التقرب اليه ، أخبره برغبته في تخليص الأسرى المسلمين الموجودين بالسجون البيزنطية ، وكذلك قيام العلاقات الودية بينهما ، وفتح أسواق التجارة بين البلدين . وقد استجاب له الأخشيدي ، وبذلك نجح ليكاينوس في سد الطريق امام سيميون البلغاري .

ولما وجد هذا الملك أن مفاوضاته مع الأخشيديين لم تثمر ، وأن مالهديه من قوات لن يهيء له تحقيق حلمه بفتح القسطنطينية ، رأى انه من الأفضل التخلص عن هذا الحلم وان يقنع بعقد صلح مع الدولة البيزنطية ، ومن ثمة فقد ألح في مقابلة الإمبراطور البيزنطي ، وفي ٩٢٤ م جرى اللقاء الشهير بينه وبين الإمبراطور ليكاينوس تحت أسوار القسطنطينية ، فأستقل الإمبراطور

(١) سبق التعرض لموقع القسطنطينية والمبيزات التي اختصت بها في الفصل الاول ص ٨٠ حاشية رقم (٤).

(2) Ostrogorsky, op. cit., p. 235.

(٣) انظر نص خطاب الاخشيدي إلى رومانوس ليكاينوس في المصدر التالي :

القلقشندي : صبح الاعشى ، ج ٧ ، ص ص ١٠ - ١٨ .

سفينة إلى موضع اللقاء ، وجاء سيميون من جهة البر ، وتبادلا عبارات التحية والأحترام ، ثم انتقلا بالحديث إلى موضوع المقابلة ، وقد اسفر هذا اللقاء عن عقد الهدنة بين الطرفين مقابل تعهد بيزنطة بدفع الجزية السنوية للملك البلغاري (١) .

وهكذا تخلصت بيزنطة من هذا الخطر الذي مهددها لعدة سنوات ، وما كادت تنهى من مشاكلها الراهنة مع البلغار ، حتى خاضت صراعا آخر مع المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية اذ وجدت في الأوضاع السياسية المضطربة التي عانى منها المشرق الإسلامي آنذاك (٢) ، فرصتها الذهبية لاستعادة ممتلكاتها السابقة في هذه المنطقة ، فقامت بمحاولات متكررة في عامي ٩٢٥ ، ٩٢٦ م ، (٣١٣ هـ ، ٣١٤ هـ) للإستيلاء على مدينة ملطية . لكن هذه المحاولات لم تكلل بالنجاح ، حتى تم للقائد البيزنطي يوحنا كوركواز الإستيلاء عليها في عام ٩٦٤ م (٣٢٢ هـ) (٣) . وقد وجدت الدولة البيزنطية في هذه المرحلة من مراحل صراعها مع مسلمي المشرق ، ندا خطيرا تمثل في الأمير سيف الدولة الحمداني الذي تولى توجيه القتال ضد البيزنطيين وكان أول اشتباك له معهم في عام ٣٢٤ هـ (٩٣٥ - ٩٣٦ م) حين سار الجيش البيزنطي بقيادة كوركواز إلى مدينتي آمد وسميساط بأعلى الجزيرة - التابعتين لأبي تغلب بن حمدان حاكم امارة الموصل وشقيق سيف الدولة - فنازلهم الأمير سيف الدولة عند آمد وابعدهم عنها (٤) . وفي شهر سبتمبر من عام

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 397.

(٢) انظر التفاصيل ، في الفصل الرابع من البحث .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ، ص ١٨٢ ، ص ١٨٥ ، راجع كذلك :

Canard, Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 736—737.

(٤) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٥٨ .

٩٣٨ (ذى الحجة ٣٢٦ هـ) احرز سيف الدولة انتصارا حاسما على كوركواز في إقليم اعالي الجزيرة في موضع بين حصن زياد وحصن سلام (١) ثم غزا سيف الدولة ارمينية (٢) في عام ٩٤٠ م (٣٢٨ - ٣٢٩ هـ) ، وارغم عددا كبيرا من امرائها على الاعتراف بسيادته ، وتوغل حتى وصل إلى الممتلكات البيزنطية في ارمينية فخرّب الجهات المجاورة لمدينة كولونيا Colonta على أن ماحدث من صراع داخلي في دار الخلافة العباسية ، أعاق سيف الدولة عن مواصلة جهوده العسكرية ضد البيزنطيين ، وعاد إلى العراق كيما يستأنف التدخل في أمور الخلافة العباسية هناك (٤) .

ولم تكد الحرب مع سيف الدولة تهدأ ، حتى ظهر في الأفق خطر جديد موجه ضد بيزنطة ، وكان هذا المرة من جانب الروس ، اذ قام الأمير الروسي إيجور Igoi في يونيه ٩٤١ م بحملة بحرية كبيرة ، ونزل بقواته على شاطئ بيشنيه المطل على البحر الأسود ، وانزل هو ورجاله التخريب والدمار بالشاطئ

(١) نفس المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، راجع كذلك :

Canard op. cit., p. 743.

(٢) كانت ارمينية في ذلك الوقت مملكة مستقلة استقلاليا ، ولكنها كانت تعترف بسيادة الخلافة العباسية ، فكانت تدفع الجزية السنوية للخليفة العباسي وكان لابد من الحصول على موافقته عند تعيين ملوكها ، وفي نفس الوقت كانت ترتبط بالعلاقات الودية مع الامبراطورية البيزنطية ، التي كانت تطمح في اخراج ارمينية من دائرة النفوذ الاسلامي ، وادخالها في مناطق النفوذ البيزنطي ، انظر :

C.M.H. vol IV, pp. 140, pp. 158—159.

(3) Canard, op. cit., p. 747.

(٤) كان هذا الصراع من أجل السلطة بين الخليفة العباسي المتقي بالله ، وامير الامراء التركي ثوزون وكان بنو حمدان يناصرون الخليفة العباسي ، ويشخذون جانبه ، وبشأن تفاصيل هذا الصراع وموقف الحمدانيين منه ، انظر ، ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

الآسيوى لبوغاز البسفور ، ثم واصلوا زحفهم على هذا الشاطئ حتى وصلوا إلى كريسوبوليس Chrisopolis . لكن الجيش والأسطول البيزنطى نجحا فى انقاذ الموقف ، فأنزل الجيش بقيادة كوركواز هزيمة ساحقة بالروس وحين انسحبوا إلى سفنهم عازمين على الارتداد هاجمهم الأسطول البيزنطى بقيادة القائد البارع ثيوفانىس Theophanes والحق بهم خسائر فادحة (١) .

على أن هذه الهزائم لم تثن عزم الإيجور عن معاودة الهجوم على الأراضى البيزنطية ، فقام بحملة ثانية فى ٩٤٤ م ، وقد استعد لها استعداد كبير ، بعد أن استفاد من نتائج حملته السابقة ، فأعد سفنا حربية قوية ، كما عبأ جيشا ضخما استعان فيه إلى جانب المقاتلين الروس بعناصر أخرى من الصقالبة والبنجناك . وحين علم الإمبراطور ليكابينوس بعزمه على مهاجمة القسطنطينية أرسل إليه سفارة محملة بهدايا ثمينة أوضحت له استعداد الإمبراطور لدفع الجزية السنوية له ، لكن الإيجور لم يعبأ بذلك ، وتقدم بأسطوله حتى نزل على سواحل بيشينية ، وسار نحو القسطنطينية ، واخذ يعيثُ فسادا فى الأراضى التى مر بها حتى بلغ البسفور . لكن النيران الإغريقية لعبت دورا هاما فى إبعاده عن العاصمة وانزال الخسائر الجسيمة بجنده ، الذين تعرضوا كذلك الصقيع ونفاذ الاقوات ، وقد أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى ارتداده إلى سفنه وعودته إلى روسيا دون أن يحقق هدفه (٢) . وبعد ذلك جرت المفاوضات بين الجانبين ، وانتهت فى عام ٩٤٥ م ، بعقد معاهدة بينهما تقرر فيها الاعتراف بكل ماسبق عقده من معاهدات بين الطرفين ، اللذين تعهدا ألا يهاجم أحدهما

(1) Ostrogorsky, op. cit., p. 245.

(2) C.M.H., vol IV, p. 205.

أراضي الجانب الآخر ، وأن ينهض كل منهما لمساعدة الآخر إذا اقتضت الظروف ذلك (١) .

وهكذا امتلأت هذه الفترة الممتدة من عام ٩١٥ م وحتى عام ٩٤٥ م ، بالنزاع والصراع بين بيزنطة وجيرانها المختلفين ، هذا الصراع ، الذي ترك بصماته الواضحة على علاقاتها مع كريت ، اذ دفعها إلى الحرص على أن يسود السلام بينها وبين كريت لمعالجة مشاكلها على الجهات المختلفة. على أنه حينما تهيأت لها الظروف المناسبة ، سارعت على الفور إلى اعداد حملة كبيرة وجهتها إلى كريت في عام ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) ، أثناء عهد الإمبراطور قسطنطين السابع ، خاصة بعد أن عاود مسلمو كريت غاراتهم من جديد على الأراضي البيزنطية ..

فقد تطورت الأحداث الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية بشكل أدى إلى انفراد قسطنطين السابع بالعرش ، اذ توفي كريستوفر اكبر ابناء الإمبراطور ليكابينوس في عام ٩٣١ ، وبموته أصبح من حق الإمبراطور قسطنطين أن يلي العرش بعد وفاة ليكابينوس ، الذي لم يتخذ أى اجراء من شأنه أن يجعل ولديه وزميلييه في العرش وهما ستيفن وقسطنطين يتقدمان على الإمبراطور قسطنطين السابع في الترتيب ويليا والدهما في الحكم بعد وفاته ، لذلك صمما على القيام بانقلاب للاطاحة بوالدهما ، ثم التخلص من قسطنطين السابع والإنفراد بالحكم . وقد لعب اتباع هذا الأخير دورا هاما في تحريضهما على التعجيل بهذا الانقلاب ، وبالفعل نفذ المتآمران الشر الأول من مؤامراتهما في ١٦ ديسمبر ٩٤٤ م . إذ قبضا على والدهما ونفياها إلى جزيرة بروتن Proten

(1) C.M.H , vol IV, p. 205.

وهى إحدى الجزر المواجهة للقسطنطينية ، وبذلك فقد السند الوحيد لهما .
وقد جنى الإمبراطور قسطنطين السابع ثمار هذا الانقلاب فتولى الحكم
باعتباره صاحب الحق الشرعى فيه ، ولقى التأييد من جانب شعب القسطنطينية
أما مدبراً هذه المؤامرة فقد تم نفيها إلى جزيرة رودس في ٢٧ يناير ٩٤٥ م .
وهكذا تولى الإمبراطور قسطنطين السابع شئون الحكم بصفة فعلية ، وكان
قد بلغ الأربعين من عمره ، وبعد أن تخلص من آل ليكابينوس وسيطرتهم
على الحكم (١) .

وهكذا استتبت الأمور في الداخل للإمبراطور قسطنطين السابع ، أما في
الخارج فقد ساد السلام بين بيزنطة وجيرانها الروس والبلغار ، أما على الجبهة
الشرقية للإمبراطورية ، فقد أحرز البيزنطيون بعض الانتصارات على حساب
المسلمين . ففي سنة ١٣٣١ هـ (٩٤٢ - ٩٤٣ م) هاجم البيزنطيون منطقة اعلى
الجزيرة ، ونزلوا على ديار بكر وسبوا من أهلها خلقاً كثيراً ، كما فتحوا
مدينة آرزن وخربوها ، واخذوا يعيشون في اراضى المسلمين حتى اقتربوا من
مدينة نصيبين ، ثم حاصروا مدينة الرها ، والتمسوا من أهلها أن يسلموهم
ايقونة منديل السيد المسيح (٢) ، الموجودة بكنيسة الرها ، ووعدوا أهلها

(1) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 431—436

انظر كذلك المصدر التالى ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٤٠ - ٤١ (طبعة باريز) .
(٢) هو المنديل الذى يقال ان السيد المسيح قد مسح به وجهه فصارت صورته فيه . وكان هذا
الاثر موضع تبجيل من جانب المسلمين والمسيحيين على السواء . وقد وافق المسلمون على
تسليمه وهم مجبرين ، حتى يتخلصوا من تهديد البيزنطيين لهم ، ولينقذوا اسراهم .
وقد تم نقل هذا الاثر إلى القسطنطينية حيث استقبل في حفل مهيب ، حضره الامبراطور
ليكابينوس وبطريك القسطنطينية وغيرهما من كبار القوم . وحمل هذا المنديل إلى كنيسة
القديسة صوفيا ، ثم إلى القصر الامبراطورى ، للاحتفاظ به . والواقع أن هذا يدل على مدى
اهتمام البيزنطيين بالآثار الدينية الموجودة في المشرق ورغبتهم في جمعها ، تلك الرغبة التى كان =

بفك الحصار والأنسحاب من امام مدينتهم ، وإطلاق سراح عدد كبير من الأسرى المسلمين الموجودين بأيديهم ، إذا قاموا بتسليمهم هذه الإيقونة . وقد اجابهم الأهالى إلى ذلك بعد رجوعهم إلى اولى الأمر في بغداد لاستشارتهم وفي رمضان ٣٣١ هـ (مايو ٩٤٢ م) هاجم البيزنطيون مدينة دارا في اعالي الجزيرة وفتحوها . وفي العام التالى في ربيع ٣٣٢ هـ (نوفمبر ٩٤٣ م) ، هاجموا مدينة راسى عين واقتحموها وسبوا من اهلها زهاء الف نفس ثم انصرفوا عنها . وفي عام ٩٤٩ م (٣٣٧ - ٣٣٨ هـ) استولوا على مدينة مرعش في شمال الشام ، واستمروا في زحفهم حتى وصلوا إلى المدينة الساحلية طرسوس (١) .

وعندما وجد المسلمون بكر يت ان الدولة البيزنطية قد طغت في عدوانها على المشرق الإسلامى ، عملوا على مناوئتها ، بفتح جبهة ثانية للقتال معها ، حتى تخف وطأة قتالها لاهالى تلك الجهات ، وذلك تحقيقا لمبدأ التعاون بينهم وبين اخوانهم في الشام ، هذا المبدأ الذى جرى عليه الطرفان خلال هذه المرحلة من مراحل صراعهم مع بيزنطة . لذلك فقد عاود الكريتيون الهجوم على السواحل والجزر البيزنطية حتى (زعزعوا السيادة البحرية للروم) . على حد تعبير المؤرخ البيزنطى كيدرينوس (٢) . فصمم الإمبراطور قسطنطين السابع

= مبمها الارتباط الروحى بين المسيحيين والاراضى المقدسة ، وماحوته من اثار دينية ، وكان هذا احد الدوافع الرئيسية وراء الفتوحات البيزنطية في المشرق الاسلامى في القرن العاشر ، الميلادى . والمزيد عن هذا الموضوع انظر ، عمر كمال توفيق : مقدمات المدوان الصلوى ، ص ص ٩٠ - ٩٦ .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٣٢ - ٣٥ (طبعة باريز) .
راجع كذلك :

Ostrogorsky, op. cit., p.250.

(٢) كيدرينوس : نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

على إرسال حملة جديدة لإخضاع كريت ، وشجعه على ذلك الانتصارات التي أحرزتها جيوشه على المسلمين في المشرق .

وقد مهد الإمبراطور قسطنطين لهذه الحملة بأرسال سفارة إلى الأندلس وأشار إلى هذه السفارة المؤرخان المغربيان المقرئ وابن عذارى ، اللذان أوضحا أنها قوبلت بحفاوة بالغة (١) ، ثم سمح للرسول البيزنطيين بمقابلة الخليفة الأموي الناصر لدين الله (٢) ، وذلك في يوم ١١ ربيع الأول ٣٣٨ هـ (١٠ سبتمبر ٩٤٩ م) وقدموا إليه كتاب (٣) الإمبراطور قسطنطين السابع الذي يلتمس فيه من الخليفة الناصر « إيقاع الموالفة واتصال المكاتبه » بينهما (٤)

(١) انظر تفاصيل هذا الاستقبال في المصدرين التاليين : المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٣ - ٣٤٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم الرضوى بن هشام الرضوى بن عبد الرحمن الداخل ، تولى الحكم في الأندلس في مستهل ربيع الأول سنة ٣٠٠ هـ (منتصف أكتوبر ٩١٢ م) ، وتوفي في ٢ رمضان ٣٥٠ هـ (نوفمبر ٩٦١ م) ، وهو أول من تسمى من الأمويين بأمير المؤمنين ، وتلقب بأحد الألقاب السلطانية وهو «الناصر» ونحاه خلفاؤه نحوه ، فتسموا بأمرة المؤمنين وتلقبوا بالألقاب السلطانية . انظر ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٣) وصف المقرئ هذا الكتاب بقوله : «وهو في رق مصبوغ لونا سماويا ، مكتوب بالذهب بالخط الاغريقى ، وداخل الكتاب مدرجة مصبوغة ايضا مكتوبة بفضة بخط اغريقى ايضا فيها وصف هديته التي ارسل بها وعددها ، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه اربعة مثاقيل ، على الوجه الواحد صورة المسيح ، وعلى الاخر صورة قسطنطين الملك وصورة ولده ، وكان الكتاب بداخل درج فضة منقوش عليه غطاء ذهب فيه صورة قسطنطين الملك معمولة من الزجاج الملون البديع . وكان الدرج داخل جعبة ملبسة بالدباج وكان في ترجمة عنوان الكتاب في سطر منه قسطنطين ورومانين المؤمنين بالمسيح ، العظيمان ، ملكا الروم ، وفي سطر اخر ، إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس ، اطال الله بقاءه . . انظر المقرئ : نفع الطيب ، ج ١ ، ص ٣٤٤ - ٣٤٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

والظاهر إن الإمبراطور البيزنطي كان يهدف من وراء ذلك إلى نخطب ود الخليفة الأموي حتى لا يبذل المساعدة لأهالي كريت أو على الأقل يضمن حياده حيال الصراع المرتقب بين الكريتين والحملة البيزنطية المرسله لاختصاعهم .

حملة جوجيل على كريت ٩٤٩ م (٣٣٨ هـ) :

لقد أورد الإمبراطور قسطنطين السابع التفاصيل الخاصة باستعدادات هذه الحملة (١) لكنه اغفل ذكر تفاصيل المعركة ذاتها مع المسلمين بكريت وما سمرت عنه من نتائج . وكان من حسن الحظ أن أمدنا المؤرخ البيزنطي كيدر ينوس بهذه التفاصيل (٢) ، وعلى هذا يمكن القول أن كليهما يتمم الآخر في هذا الشأن . وجدير بالملاحظة ان غالبية المؤرخين المهتمين بدراسة التاريخ البيزنطي لم يعرضوا لتفاصيل هذه الحملة الكبيرة ، وإنما اشاروا اليها اشارات سريعة عابرة (٣) ، كما هو الحال بالنسبة لحملة هيميريوس .

وقد اسندت قيادة القوات البحرية والبرية في هذه الحملة إلى استراتيجوس ثم ساموس البطريق قسطنطين جوجيل . وتكونت القوات البحرية ، من الأسطول الإمبراطوري واساطيل الولايات البحرية البيزنطية وذلك على النحو التالي :

(١) انظر تفاصيل هذه الحملة الكبيرة في كتاب الامبراطور قسطنطين السابع «المراسم الامبراطورية باليونانية» ، ص ٦٦٤ - ٦٧٨ .

(٢) انظر كتاب كيدر ينوس «موجز التاريخ» وهو باليونانية ص ٣٣٦ .

(٣) انظر على سبيل المثال المراجع التالية : -

Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantin, tome I, p. 407; Ostrogorsky, History of the Byzantine Empire, p. 250; Finlay, History of Greece, tome II, pp. 315—316; Schlumberger : Un Empereur Byzantin, p. 38.

الإسطول الإمبراطورى : تكون هذا الأسطول من ١٠٠ شلنديه ، و ٦
بامفيليات و ١٥٠ قطعة حربية من نوع الأوسيا usia . وضم هذا الأسطول
٦٢٩ بحارا من الروس ، و ٣٦٨ بحارا من التلماخ و ٧٠٠ بحارا من الأسرى
من عناصر مختلفة .

اسطول الولايات البحرية البزنطية : واشتمل هذا الأسطول على ٣٩
قطعة حربية ، من بينها : ٦ بامفيليات تحمل كل واحدة ١٢٠ مقاتلا ، ٤
شلنديات تسع الواحدة ١٠٨ مقاتل ، وأوسيا واحدة أرسلها ثم البحر الإيجى
واشترك ثم ساموس فى هذه الحملة بأسطول مكون من ٦ بامفيليات تشمل
الواحدة ١٥٠ مقاتلا ، ٦ شلنديات حمولة الواحدة ٨٠١ مقاتل . أما اسطول
ثم كبير هايوت فتكون من ٦ بامفيليات تسع الواحدة ١٥٠ مقاتل و ٦
شلنديات تحمل الواحدة ١٠٠ مقاتل . واحتوى اسطول البلوبونيز على اربع
شلنديات فقط كما أرسل استراتيجوس هذا الهم بثلاثة الاف بحار من المردة
الغربيين من البلوبونيز ونيقوبوليس وكيفا لونيا .

والى جانب القوات البحرية المشتركة فى هذه الحملة ، كانت هناك قوات
برية من المقاتلين بلغ عددها ٧٤٣ ر ٤ جندى من الجيش الإمبراطورى
وجيوش ثيمات تراقيا ومقدونيا والابسيق والتراقيسيون .

هذا الى جانب كميات كبيرة من الأسلحة ، ونستدل على ذلك حين
نعلم حمولة الاسلحة الموجودة بكل درمونه اشتركت فى هذه الحملة كما
عرضها الإمبراطور قسطنطين السابع ، وكانت على النحو التالى : —

٧٠ درع سميك ، ٢١ درع خفيف ، ١٠ درع عادى ، ٨٠ خوذته من
الفولاذ ، ١٠ خواذات بحافات لتغطية كل الوجه ، ٨ ازواج من الأشرطة

الفولاذية ، ١٠٠ سيف ، ٧٠ درع من الجلد المخيظ ، ٣٠ درع ليدي ، ٨٠
كلاب ذو طرف حاد ، ٢٠ حربة مسنونة ، ١٠٠ حربة عادية ، ٢٠ قوس
وقطع الغيار اللازمة لها ، ١٠٠٠٠ سهم ، ٢٠٠ سهم صغير ، ١٠٠٠٠ شوكة
حديدية ، ٤ كلابات مزودة بسلاسل ، ٥٠ درع من الصوف السميك يلبس
فوق الدرع العادي ، ٥٠ خوذته تعرف باسم كاميلوكيا (١)

وقد اتخذت اجراءات امن مشددة لحماية هذه الحملة ، ومنع وصول
أية مساعدات عسكرية لكريت من جانب المسلمين في المغرب والمشرق على السواء
ولتحقيق ذلك بعثت الحكومة البيزنطية بأسطول صغير مكون من ثلاث
شلنديات واربع درومونات تحمل الواحدة ٢٢٠ مقاتلا ، بقيادة البروسباير
يوحنا ، لمراقبة سواحل شمال افريقيا . كما ارسلت ثلاث سفن حربية من
النوع المعروف باسم اوسيا ، إلى سواحل الأندلس لنفس الغرض . اما مسلمو
المشرق فقد اتخذت اجراءات مماثلة حيالهم ، وقامت بهذه المهمة اربع
درومونات ، واوسيا واحدة ، وتولى القيادة العامة على هذه القطع ستيفانوس
شقيق الإمبراطورة هيلين زوجة قسطنطين السابع ، وقد رابطت هذه القوة
بالقرب من جزيرة رودس .

وحتى لا يقع اى هجوم اسلامي على القسطنطينية او غيرها من السواحل
البيزنطية اثناء غزو هذه الحملة لكريت ، فقد خصصت اربع وعشرون اوسيا
وبامفيلية واحدة لحراسة العاصمة البيزنطية ، كما خصصت سبع اوسيات
لحراسة سواحل دوراخيوم ، ودالماشيا ، وثلاثة اخريات لحماية ساحل
كلايريا في افضى الطرف الجنوبي من إيطاليا (٢) .

(١) انظر كتاب قسطنطين السابع ، المراسم الامبراطورية ، ص ٦٦٩ ، ٦٧٠ . باليونانية
(٢) نفس المصدر ، ص ٦٦٥ .

ومن العرض السابق نلمس مدى ضخامة هذه الحملة ، وماتكلفتها
الحكومة البيزنطية من مال وجهد في سبيل اعدادها والآمال التي عقدتها عليها .
ولذا كنا قد استقينا المعلومات الخاصة بتلك الاستعدادات من كتاب المراسم
الإمبراطورية لقسطنطين السابع فيمكن ان نستكمل اخبارها مما رواه المؤرخ
كيدر ينوس الذي ذكر أن الحملة ابجرت إلى كريت في عام ٩٤٩ م (١)
(٣٣٨) ، ولم تجد صعوبة كبيرة في النزول على ساحل كريت ، ولكنه لم
يوضح المكان الذي نزلت به الحملة ، وانما استطرده قائلا ان قائد الحملة
قسطنطين ، الذي يلصق به كيدر ينوس كل الصفات المشينة ، لم يهتم بتحسين
معسكره ، كما انه لم يستخدم الكشافة والجواسيس لاستقصاء اخبار اهالي
كريت ومدى استعدادهم لمواجهة القوات البيزنطية ، وبذلك تهيأت الظروف
المناسبة للمسلمين ، وتحت جنح الظلام التفوا حول المعسكر البيزنطي وحاصروه
تماما ، وابدوا الجزء الأكبر منه ، وكاد جوجيل نفسه ان يلقي نفس المصير
لولا ان حماه بعض غلمانه ، واستطاع ان يفر على ظهر احدى السفن (٢)
ولم يشر كيدر ينوس ولا غيره من المؤرخين المعاصرين أو المتأخرين إلى المصير
الذي لقيه جوجيل او العقاب الذي أنزله به الإمبراطور البيزنطي نتيجة لتسببه
في هذه الهزيمة المروعة .

وهكذا لقيت هذه الحملة مآلقتها الحملات البيزنطية السابقة من مصير
ولم تحقق سوى الفشل الذريع الذي أكد مهارة المسلمين بكريت وتفوقهم على

(١) لم يوضح كيدر ينوس التاريخ الدقيق لاجبار هذه الحملة ، ولم نعثر في المصادر الاخرى على
ما يفيد في هذا المجال ، والراجح انها ابجرت إلى كريت في صيف عام ٩٤٩ م ، وذلك على
العادة التي اتبعتها بيزنطة دائما في الحملات السابقة التي ارسلتها ضد كريت ، والتي دأبت على
ارسالها في فصل الصيف حتى تكون الاحوال المناخية ملائمة بالنسبة لها .
(٢) كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٣٦ . باليونانية .

اساطيل الإمبراطورية البيزنطية وجيوشها ، ويمكن القول ان عدم توفيق
بيزنطة في اختيار القادة الأكفاء ، الذين يتولون الإشراف على حملاتها ،
وتوجيه العمليات العسكرية ضد كريت ، سواء في هذه الحملة او الحملات
التي سبقها يعتبر من أهم الأسباب التي أدت إلى اخفاق هذه الحملات واضاعة
كل الجهود والأموال التي بذلت في اعدادها هباء .

والملاحظ أن الدولة البيزنطية لم تعاود الكره في محاولة جديدة لغزو كريت
إلا في عام ٩٦٠ م ٣٤٩ هـ ، وهذا يرجع إلى أن الهزيمة الشديدة التي لقيتها
على يد المسلمين بكريت جعلتها تخشى منازلهم لفترة من الزمن ، هذا من ناحية
ومن ناحية أخرى بسبب المتاعب التي أثارها في وجهها الأمير سيف الدولة
بن حمدان حاكم اماره حلب في شمال الشام ، بغزواته المتكررة ضد
الأراضي البيزنطية .

ففي النصف من ربيع الأول ٣٣٩ هـ (أول سبتمبر ٩٥٠ م) خرج سيف
الدولة لغزو الممتلكات البيزنطية على رأس جيش بلغ تعداده ثلاثين الف مقاتل
كما انضم اليه أربعة الاف مقاتل من طرسوس ، وأوغل سيف الدولة بقواته
داخل الاراضي البيزنطية حتى بلغ مدينة صارخة التي لا تبعد عن القسطنطينية
العاصمة أكثر من سبعة أيام . وافتتح حصونا كثيرة كما وقع في يده العديد
من الأسرى والغنائم . وانهى سيف الدولة عملياته الحربية في جمادى الآخرة
من نفس السنة (نوفمبر - ديسمبر ٩٥٠ م) نظرا لحلول فصل الشتاء ،
وحين أراد العودة إلى حلب مقر حكمه ، قطع عليه البيزنطيون بقيادة الدمستق
ليوفوقاس الطريق ، وضيقوا عليه المسالك ، فتخلى عنه عدد من جنده وهلك
كثير آخريين ، واسترد البيزنطيون الغنائم والأسرى . أما سيف الدولة ، فقد

نجاً في عدد يسير من عساكره . وقد بلغ من شدة هذه الهزيمة أن بعض المؤرخين أطلقوا عليها اسم غزاة المصيبة (١) .

وفي ٣٤٠ هـ (٩٥١ - ٩٥٢ م) وبينما سيف الدولة يشرف على تشييد الاستحكامات واقامة الأسوار لحماية المدن التي تقع على الطريق المودي إلى حلب مثل رعبان وتل خالد ، هاجمه البيزنطيون بقيادة قسطنطين ابن الدمستق برداس فوقاس ، غير أن سيف الدولة انتصر عليهم . وقد دفعهم ذلك إلى أن يوجهوا هجومهم إلى منطقة الجزيرة ، فأغاروا على مدينتي آمد وميافارقين لكن سيف الدولة فاجأهم وانزل بالدمستق فوقاس هزيمة ساحقة . (٢) .

وفي عام ٣٤٢ هـ (٩٥٣ م) قام سيف الدولة بحملة كبيرة كان هدفه منها إقليم ملطية الذي يعتبر مصدر خطر على إقليم الجزيرة الذي دأب البيزنطيون على مهاجمته . وقد اجتمع سيف الدولة بقواته في مدينة دولوك بشمال الشام ثم توجه إلى سفوح جبال طوروس واتخذ طريقه إلى مدينة زبطرة التي كانت بيد البيزنطيين فأغار عليها وعلى عرقه وملطية (٣) . وقد حدث اشتباك عنيف بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادة قسطنطين فوقاس بالقرب من ملطية وحرز سيف الدولة انتصارا كبيرا على البيزنطيين ، ثم توجه إلى مدينة مرعش في شمال الشام بقصد أن يعترض طريق عودة الدمستق برداس فوقاس بعد أن أغار على الشام . وتقابل الطرفان عند مرعش في ١٠ ربيع الأول ٣٤٢ هـ (٢٥ يوليو ٩٥٣ م) في معركة انزل فيها سيف الدولة بالبيزنطيين هزيمة

(١) ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ١٥١ ، ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٤٨٥ ، (طبعة بيروت ، ١٩٦٦ م) راجع كذلك :

Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 761—769.

(2) Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, pp. 772—773.

(3) Ibid, p. 774.

ساحقة ، واستولى على ما كان معهم من الغنائم والأسرى واصاب الدمستق برداس بالجراح ، كما اسر ابنه قسطنطين ، الذى مات فى الأسر رغم مالمقيه من معاملة طيبة من جانب سيف الدولة (١) .

وقد عظم امر موت قسطنطين على والده برداس فوقاس ، فجمع جيشا ضخما من البيزنطيين والروس والبلغار ، وقصد إلى مدينة الحدث حيث كان سيف الدولة يشرف على اعادة بناء سورها ، والتقى الفريقان ، واشتد القتال بينهما ، وانتهى الأمر بانتصار سيف الدولة انتصارا باهرا ، وهلك من الجيش البيزنطى عدد كبير كما وقع كثيرين منهم فى الأسر ، ومن بينهم عدد كبير من اقارب الدمستق والبطارقة . (٢)

وقد ترتب على هذه الهزيمة ان ارسل الإمبراطور قسطنطين السابع فى عام ٩٥٥ م (٣٤٤ هـ) سفاره إلى سيف الدولة ليطلب الهدنة ، لكن سيف الدولة رفض الاستجابة لرجائه (٣) ، مما دفع البيزنطيين إلى مهاجمة حصن الحدث فى جمادى الأولى ٣٤٤ هـ (اغسطس - سبتمبر ٩٥٥ م) واحداث ثغرات فى سوره (٤) .

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٢٣ - ١٢٤ ، الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ص ٣٠٩ .
راجع كذلك :

Canard, op. cit., p. 775.

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٢٥ ، ص ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٥٠٨ (طبعة بيروت) .
راجع كذلك :

Canard, Histoire de la dynastie des Hamdanides, p. 780.

(3) Canard, op. cit., p. 781.

(4) Canard, op. cit., p. 782.

وفي عام ٩٤٥ هـ (٩٥٦ م) حدث اشتباك عسكري بين سيف الدولة والقوات البيزنطية بقيادة يوحنا تريمسكس بالقرب من حصن تل بطريق التابع للبيزنطيين ، واستولى على الحصن (٢) . وأثناء عودته التقى بالبيزنطيين وأوقع بهم في درب يعرف باسم درب الحياطين بالقرب من مدينة آمد بالجزيرة (٣) وفي شهر جمادى الآخر من نفس السنة ٣٤٥ هـ (سبتمبر اكتوبر ٩٥٦ م) عاد سيف الدولة لغزو الأراضي البيزنطية ، وامعن في القتل والأسر ، فكان رد البيزنطيين على ذلك بان ساروا إلى مدينة ميفارقين فاغا رواعلى نواحيها وخربوا ونهبوا واحرقوا (٤) .

وقد نجح البيزنطيون في ربيع الأول ٣٤٦ هـ (يونيه ٩٥٧ م) في الإستيلاء على مدينة الحدث . وفي العام التالى قام الإمبرطور قسطنطين السابع بتجهيز حملة كبيرة عهد بقيادتها إلى يوحنا تريمسكس ، وبلغ من حرصه على نجاح هذه الحملة انه عقد معاهدات صلح مع جيرانه البلغار والروس حتى يتفرغ لتدبير شئونها (٥) . وقد نجحت الحملة في الإستيلاء على مدينة سميساط في شمال الجزيرة (٦) . كما انزل يوحنا تريمسكس الهزيمة بسيف الدولة عند رعبان في شمال الشام في شعبان ٣٤٧ هـ (اكتوبر ٩٥٨ م) (٧) .

(١) يقع تل بطريق على الضفة الغربية لنهر الفرات عند التقاء الفرات الاعلى بالفرات الادنى .
Canard, Saif al-Daula, p. 115, N.2 راجع :

(2) Vasiliev, in C.M.H., vol IV, p. 143.

(٣) يحى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم : ج ١ ، ص ١٢٦ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، ج ٨ ، ص ٥١٧ (طبعة بيروت) ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣١٥ .

(5) Canard, op. cit., p. 796.

(6) Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 250.

(٧) يحى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٤ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٢٨ الذهبى : دول الاسلام ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ٣١٩ .

وفي اول شوال ٣٤٨ هـ (٥ ديسمبر ٩٥٩ م) فتح الدمستق ليوفوقاس
حصن الهارونية (١) ثم مد نشاطه الحربى إلى ارض الجزيرة حتى وصل إلى
الرها وحران (٢) .

وهكذا شغلت الدولة البيزنطية فى الفترة التالية لحملة عام ٩٤٩ م على
كريت بالحروب المتواصلة مع الأمير سيف الدولة بن حمدان ، الذى نجح
فى احراز الانتصارات العسكرية عليها فى البداية ، على ان الأمور تطورت
بشكل أصبح فيه الموقف العسكرى فى صالح البيزنطيين ، بعد أن بدأت
الخلافت السياسية تدب فى انحاء المشرق الإسلامى ، وبذلك وجدت بيزنطة
الفرصة متاحة امامها للقيام بحملة جديدة ضد كريت فلم تتوان عن استغلال
هذه الظروف المواتية .

ومن العرض السابق للعلاقات الكريتية البيزنطية خلال هذه الفترة
التي امتدت منذ بداية تأسيس الأسرة المقدونية فى بيزنطة فى عام ٨٦٧م وحتى
عام ٩٤٩ م ، وهو تاريخ اخفاق الحملة البيزنطية على كريت ، يتضح ان
ميزان القوى كان لايزال فى صالح المسلمين بكريت ، رغم الأزدهار
والانتعاش الذى شمل الدولة البيزنطية فى عهد الأسرة المقدونية ،
وذلك نتيجة للتعاون والمساندة التي لقيتها كريت من جانب القوى البحرية
الإسلامية وعلى الأخص فى شرقى البحر الأبيض المتوسط ، بشكل أصبح معه
استعادة بيزنطية لكريت يكاد أن يكون امرا مستحيلا .

(١) الهارونية حصن صغير من ثغور الشام ، يقع غرب جبل اللكّام فى بعض شعابه ، وكان هارون
الرشيد قد امر ببنائها فى سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م فنسبت إليه ، انظر :
البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ١٧٥ ، ابن حوقل : صورة الارض ، القسم الاول
ص ١٦٧ .

(٢) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ص ١٢٩
- ١٣٠ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ص ٣٢١ - ٣٢٢ .

على انه حين انتاب الضعف المشرق الإسلامى ، وانتشرت النزاعات السياسية والعداوات بين امرائه وحكامه ، وساد التفرق والأضمحلال فى ارجائه ، اصبح من اليسير على بيزنطة ان توجه ضربتها الحاسمة إلى كريت ، وتنجح فى استعادتها ، خصوصاً بعد أن وجدت الإمبراطورية تحت تصرفها فى تلك اللحظة القائد الكفؤ ، الذى أهله صفاته وقدراته للاضطلاع بهذه المهمة الشاقة الخاصة باستعادة كريت من يد المسلمين ، وذلك على النحو الذى سيتضح خلال عرض الأحداث فى الفصل التالى .

الفصل الرابع

نقفور فوقاس واسترجاع كريت

مارس ٩٦١ م / المحرم ٣٥٠ هـ

- العوامل السياسية التي مهدت لقيام حملة نقفور فوقاس وساعدت على نجاحها .
- شخصية نقفور فوقاس واختياره قائدا للحملة .
- استعدادات الحملة .
- حصار القوات البيزنطية لجزيرة كريت .
- السفارات الكريتية إلى القوى الإسلامية في المشرق والمغرب لطلب المساعدات العسكرية .
- استجابة الخلافة الفاطمية لأهالي كريت .
- هزيمة القوات الكريتية والفاطمية على يد نقفور فوقاس .
- الفتح البيزنطي لمدينة الخندق واستسلام باقي الجزيرة .
- أسباب عدم قيام العالم الإسلامي بمحاولة استرداد كريت .

عرضنا في الفصل السابق للصراع بين كريت وبيزنطة في المرحلة التي امتدت منذ منتصف القرن التاسع الميلادي وحتى ختام النصف الأول من القرن العاشر ، والمحاولات المستمرة من جانب أباطرة الأسرة المقدونية لاسترداد كريت ، تلك المحاولات التي كان آخرها حملة عام ٩٤٩ م (٨٣٣٨ هـ) في عصر الإمبراطور قسطنطين السابع ، وقد ترتب على فشل هذه الحملة ، ازدياد سيطرة المسلمين على جزيرتهم والجزر الأخرى التي كانت تحت

أيديهم ، كما قويت سيطرتهم كذلك على طرق الملاحة في البحر الإيجي والبحار
المجاورة . (١)

وهكذا أصبح من المحتم على بيزنطة ، تأميننا لمصالحها ، أن تقوم بمحاولة
كبيرة لأسترجاع كريت ، فأرسلت عليها حملة في عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ،
قدر لها ان تكون من أشهر ، أحداث التاريخ البيزنطى فى الشطر الثانى من القرن
العاشر الميلادى ، لما امتازت به من ضخامة استعداداتها ، ونجاحها فى تحقيق الغرض
الذى أرسلت من اجله . والواقع ان الظروف السياسية التى ألت بمسرح
الأحداث ، سواء مايتعلق منها بالجانب الإسلامى أو الجانب البيزنطى ، كانت
مهيئة إلى حد كبير لقيام هذه الحملة ونجاحها .

فقد كان المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت يعانى من الضعف والتفكك
السياسى ، فنذ أواخر القرن التاسع الميلادى كان عهد قوة الدولة الإسلامية
الكبرى ، التى شيدها العباسيون الأول قد ولى ، وأخذت هذه الدولة تعاني
من الانحلال السياسى ، وما ترتب على ذلك من ضعف (٢) . اذ تجزأت
خلافة العباسيين إلى دويلات متنافسه ، كما ضعفت سلطة الخلفاء المركزية .
فقد تغلبت العناصر الفارسية على الجزء الشرقى من الدولة العباسية ، وقام
السمانيون فى الجزء الشرقى من بلاد فارس واتخذوا من بخارى وسمرقند
عاصمتين لهم ، وحكموا فترة شملت معظم القرن العاشر الميلادى (٩٠٣ -

(1) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 39.

(٢) هناك مصادر عديدة يمكن الرجوع إليها للاستفادة منها فى هذا الموضوع ، ومنها على سبيل
المثال ، مسكويه : تجارب الامم ، ج٢ ، ص ٨٤ ومابعدها (نشر اميروز ، القاهرة ،
١٩١٥) ، يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ١٠٣ - ١٠٤ ، المسعودى : التنبيه والاشراف
ص ٤٠٠ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٧ ، مواضع متفرقة وقد عالج الاستاذ الدكتور عمر
كمال توفيق هذا الموضوع بافاضة فى كتابه مقدمات المدوان الصليبي صفحات ٤٧ - ٥٧ .

٩٩٠ م). كما استطاع البويهيون الشيعة تأسيس اسرة فارسية اخرى ، حكمت الجزء الغربي من بلاد فارس ، واخضعت بغداد والعراق ، واستمرت في الحكم من سنة ٩٤٥ إلى سنة ١٠٥٥ م (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) . حقيقة ان امراء هذه الاسرة لم يقضوا على حكم بني العباس ، الا ان امور الدولة كافة أصبحت في أيديهم ، حتى غدا تنصيب الخلفاء وعزلهم ، بل وقتلهم طوع رغبتهم ، وقد أحسن المؤرخ البيروني حين قال « ان الدولة والملك قد انتقل من آل العباس إلى آل بويه ، والذي بقي في أيدي الدولة العباسية انما هو أمر ديني اعتقادي ، لا ملكي دنيوي » (١) وقد كان لظهور العناصر الفارسية البويهية على مسرح الحوادث السياسية واستحواذهم على السلطة في العراق ، آثاره السيئة على المشرق الإسلامي ، اذ ان محور اهتمام هذه العناصر كان بلاد فارس والأقاليم التابعة لها ، ولم يكثرثوا بشئون الشرق الأدنى ، كما انهم لم يعملوا على القضاء على أخطر المشاكل التي يتعرض لها والخاصة بتغلغل النفوذ البيزنطي وزحفة المستمر على الأقاليم الحيوية في هذه المنطقة ، والجزء الشرقي من حوض البحر المتوسط .

يضاف إلى ذلك عوامل اخرى أدت إلى اضعاف الخلافة العباسية ، وصرفت انتباه اولى الأمر بها عن مواجهة البيزنطيين ، منها العداء الذي اشتد بين اتباع مذهبي السنة والشيعة الذين قويت شوكتهم بعد سيطرة البويهيين الشيعة على الأمور في بغداد (٢) . كذلك الانقسام العنصري الذي قام بين الجند من الاثراك والديلم ، وماترتب عليه من نتائج خطيرة للغاية (٣) .

(١) البيروني : الآثار الباقية ، ص ١٣٢ .

(٢) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٤١ .

(٣) بشأن الصراع بين الاثراك والديلم في العراق ، انظر ، يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٤٢ -

١٤٥ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ١٥٢ وما بعدها ، شبيب ارسلان : المختار من

رسائل الصابي ، ص ١٠ . راجع كذلك :

Canard, Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 557—560.

وفي وسط هذه الظروف نجح الحمدانيون في اقتطاع امارة أو دويلة خاصة بهم في اقليم الجزيرة شمال العراق ، واتخذوا من مدينة الموصل عاصمة لهم ، واستمرت هذه الأمارة من سنة ٩٢٩ م / ٣١٧ هـ إلى سنة ٩٩١ م / ٣٨١ هـ . وقد عانت هذه الأمارة هي الأخرى من الاضطرابات السياسية ، التي كان اهمها ، الصراع العنيف الذي قام بين الحمدانيين حكامها وبين البويهيين المسيطرين على الأمور بالعراق ، وكانت اسباب ذلك الخلاف ترجع إلى أن الحمدانيين كانوا يزون انفسهم أحق بحكم العراق من البويهيين نظرا لأصلهم غير العربي ، ومن ناحية أخرى وجد ناصر الدولة بن حمدان حاكم امارة الموصل ، في تغيير الحكام في العراق فرصته للتخلص من دفع الجزيرة السنوية التي كان يؤديها لأمير الأمراء التركي الذي كان مسيطرا على شئون الحكم في بغداد قبل انتقال السلطة إلى ايدي البويهيين . ومن هنا قامت الحروب بين الطرفين واستمرت لفترة طويلة من الزمن . (١)

وبالنسبة لمصر ، فقد سيطرت عليها الدولة الأخشيديية واستقلت بها ، وحكمتها في الفترة من ٩٣٥ - ٩٦٩ م / ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ . وقد حرص الاخشيديون على ضم الشام الى حكمهم وتحقيق الوحدة بين القطرين على النحو الذي حدث في فترات متعددة من العصور التاريخية المختلفة ، غير أنهم سرعان ما اضطدموا في الشام بالحمدانيين الذين انتقل فرع منهم في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م إلى الشام تحت قيادة سيف الدولة الحمداني ، وانتزع من الأخشيديين بعض ممتلكاتهم في الشمال وهي حلب وقنسرين وانطاكية وشيزر واللاذقية وحماة ،

(١) فيما يتعلق بالخلاف بين البويهيين والحمدانيين ، انظر ، يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٠ - ١١١ ، ١١٥ . انظر ايضا ،

Canard, op. cit., pp. 512—560.

وحمص ، لذلك فقد قامت الحروب بين الأخشيديين وهذا الأمير الحمداني (١) وبتأسيس سيف الدولة لهذه الامارة في شمال الشام ، أصبح عليه بحكم الموقع الجغرافي لأمارته ان يواجه البيزنطيين ، والواقع انه لم يدخر جهدا في مقاومتهم وقد أمضى طوال فترة حكمه ٣٣٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ - ٩٦٧ م في صراع دائم معهم ، وحالفه الحظ في ذلك وخاصة في الفترة المبكرة من حكمه وخانه كذلك في كثير من الأحيان ، غير ان ذلك لم يثن من عزمه على مواصلة هذا الصراع (٢) . لكن سيف الدولة لم يكن في موقف يحسد عليه ، اذ عانى الكثير من المتاعب التي كان اهمها ضعف امكانيات امارته ، كما كان عليه ان يعمل حساب جيرانه المسلمين المنافسين له ، وخاصة الأخشيديين في جنوبي دولته ، الذين ظلوا يحاولون استعادة ممتلكاتهم القديمة . وفي نفس الوقت كان على سيف الدولة ان يكبح جماح امرائه الذين أرادوا الخروج عليه والاستقلال بأقطاعاتهم (٣) :

وفيما يتعلق بكريت ، فالواقع اننا لانعلم شيئا عن الأحوال الداخلية بها ، وعمما إذا كان الضعف والاضطراب السياسي الذي شمل الشرق الأدنى الإسلامي

(١) يوجد تفصيلا لهذه الحروب في المراجع التالية :

ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج١ ، ص ١١١ - ١١٩ .

سيده كاشف : مصر في عصر الأخشيديين ، ص ٣٤٩ - ٣٥٢ . راجع كذلك ،

Canard, op. cit., pp. 576—583.

(٢) بشأن تفاصيل الصراع بين سيف الدولة والبيزنطيين انظر ، مسكوية : تجارب الامم ، المجلد الثاني ، ج٦ ، ص ١٢٥ وما بعدها ، يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ٦٩ وما بعدها (طبعة باريز) .

(٣) انظر تفاصيل حركات التمرد التي قامت ضد سيف الدولة في المصادر التالية :

يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٢١ - ١٢٣ ، ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، ص

٧١ - ٧٦ ، ابن العديم : زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج١ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .

Canard, op. cit., pp. 648—651.

راجع كذلك :

قد اصحابها هي الأخرى ام لا ، غير انه مما لا شك فيه أنها لا بد وأن تكون قد تأثرت بظروف الشرق الأدنى نظرا لاتصالاتها الوثيقة ببلدان هذا الاقليم ، وعلى الأقل يكفي أنها فقدت المساعدة العسكرية في المجال البحري من جانب هذه البلاد ، تلك المساندة التي ظهرت بشكل واضح منذ أواخر العقد السابع من القرن التاسع الميلادي ، واستمرت قائمة خلال النصف الأول من القرن العاشر الميلادي ، والتي كان لها اثرها الكبير فيما احرزته كريت آنذاك من انتصارات على البيزنطيين . وهكذا أصبح من المتوقع الا تستطيع كريت الصمود وحدها امام الدولة البيزنطية وقوتها الناهضة . حقيقة ان المسلمين بكريت قد استطاعوا في المرحلة المبكرة من الفتح الإسلامي للجزيرة الوقوف وحدهم في وجه البيزنطيين ، إلا اننا يجب أن نعلم ان بيزنطة وقتها كانت تعاني من الضعف بعد الظروف العصيبة التي مرت بها ، ولم تكن على نفس المستوى من القوة الذي كانت عليه أثناء عهد الأسرة المقدونية .

وهكذا سيطر الضعف والانحلال السياسي انحاء المشرق الإسلامي ، في الوقت الذي أصبحت فيه الإمبراطورية البيزنطية في أوج قوتها وعظمتها ، بعد أن اثمرت جهود الأباطرة المقدونيون منذ حكم مؤسس الأسرة باسيل الأول في إقامة بيت امبراطوري ثابت الأركان ، وجعل الدولة البيزنطية أقوى دولة في الشرق (١) . وكانت الأمور آلت إلى الإمبراطور رومانوس الثاني Romanus II اثر وفاة والده قسطنطين السابع في ٩ نوفمبر ٩٥٩ م . وكان رومانوس آنذاك لا يتجاوز العشرين من عمره ، وسيا ، ذا مواهب فكرية ، تلقى قدرا كبيرا من التعليم ، لكنه لم يبد اهتماما كبيرا بتصريف شئون الحكم بل تركها في يد زوجته ثيوفانو Theophano ووزيره القدير جوزيف

(١) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٤٥ .

يرينجاس Joseph Pringas وقد حرص الأثنان على الارتباط بعلاقات الود مع معظم ملوك وامراء ذلك العصر . فأرسلا بالمبعوثين اليهم لتحقيق ذلك الغرض (١) . والظاهر انهما كانا يهدفان من وراء ذلك إلى تكريس الجهود العسكرية البيزنطية من اجل استرداد كريت ، فلم تمض سوى شهور قليلة على بداية حكم رومانوس الثاني ، حتى شرع المسئولون البيزنطيون في الأعداد لمحاولة جديدة لفتح كريت .

وقد روى اخبار هذا الفتح البيزنطي لكريت عدد غير قليل من المؤرخين البيزنطيين من بينهم ، الماجستر سيميون (٢) ، وصاحب صلة ثيوفان (٣) ، وكيلديريوس (٤) ، وزوناراس (٥) . على ان اكثر ماجاء عنه من تفاصيل هو ما أورده المؤرخان المعاصران ليون الشماس في مؤلفه المعروف باسم تاريخ ليون الشماس Leonis Diaconis Historiae (٦) ، وثيودوسيوس الشماس في ملحته المسماه « فتح كريت » وهى باليونانية (٧) . أما المصادر العربية فلم تذكر شيئاً عن تفاصيل فتح كريت ، وان كان المؤرخ النويرى قد عرض لهذا الموضوع ، إلا انه لم يتوخ الدقة فيما ذكره من تفاصيل هذا الفتح فقد روى ان فتح الجزيرة تم بناء على خدعة احتال بها الإمبراطور رومانوس الثاني — الذى ذكره باسم ارمانوس — على امير كريت عبد العزيز

(1) Theophanes Continuatus, pp. 468—469.

راجع ايضا :

Ostrogorsky, op. cit., p. 251; C.M H., vol IV, p. 68.

(2) Symeon Magestri, pp. 758—760.

(3) Theophanes Continuatus, Liber VI, pp. 473—478.

(٤) كيلديريوس ، ص ص ٣٤٠ — ٣٤١ . باليونانية .

(5) Zonaras, Liber XVI, pp. 490—492.

(6) Leonis Diaconis Historiae, Liber 11, pp. 5—28.

(٧) تيودوسيوس الشماس ، فتح كريت ، ص ص ٢٦٣ — ٣٠٦ . باليونانية .

بن شعيب (١) . ولنستعرض مذكره النويرى فى هذا الشأن ، قال «
فأقبل الملك ارمانوس إلى عبد العزيز بن حبيب صاحب جزيرة اقريطش ،
وتقرب اليه بالهدايا والتحف ، وظهر له المودة والمحبة ، فلما استحسنت
الوصلة بينهم وتأكدت ، انفذ ارمانوس رجلا من المسلمين ومعه هدنة جلييلة
فلما حضر بين يدى صاحب اقريطش وقدم الهدنة قال له ، الملك يسلم عليك
ويقول لك نحن جيران وأصدقاء وهؤلاء المساكين سكان الجزاير قوم ضعفاء
فقراء ، وقد خلا أكثرها من خوفك وقلوبهم تمنح إلى اوطانهم ، ولى فى ذلك
بهم راحة وفايدة ، فان خف عليك ان تحسب ما يحصل لك من غزوهم فى
كل عام ، وانا اضاعفه لك اضعافا ، وتؤمهم وترفع عنهم الغزو وتفسح لهم
السفر إلى جزيرتك ويتوجه التجار اليك ويحصل لك من الحقوق اضعاف
ما يحصل لك من الغزو ، فأجابه إلى سؤاله ، وتحالفا وتصالحا واتفقا على مال
يؤدى فى كل عام . فوفى له ارمانوس بجميع ذلك ، وألزم التجار بالسفر إلى
اقريطش والقسطنطينية وجميع الجزاير ، فكثرت اموال صاحبها وأخذ فى

(١) ذكره النويرى باسم عبد العزيز بن حبيب ، على أن الأصح هو عبد العزيز بن شعيب ، لان
والده كان يدعى شعيب بن ابي حفص . اما المصادر اليزنطية فقد ذكرت باسماء مختلفة فأطلق
عليه المايجستر سيميون اسم كوربه Curopes ، وذكره صاحب صلة ثيوفان ، وكيدرينوس
وزوناراس باسم كوروباس Curoupas ، والواقع انه لا توجد اية صلة بين اسمه كما
ورد فى المصادر اليزنطية والاسم الحقيقى له ، وأن كان المؤرخ الفرنسى شلومبرجيه قد
ارجع اسم كوروباس إلى انه تحريف للقب اليزنطى «قربلاط» Curopalate بمعنى
«عميد القصر» . انظر المصادر التالية :

ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .

Symeon Magistri, op. cit., p. 759; Theophanes Continuatus, p. 477;

Zonaras, p. 491.

كيدرينوس ص ٣٤٠

راجع ايضا :

Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 75, F.N. No «1»

رانسيمان : الحضارة اليزنطية ، ص ٩١ .

جمع الأموال ، واختصر في الطعاً (العطاء) للجند . ثم وقع بالقسطنطينية قحط وغلاء ، فانفذ الملك إلى صاحب اقريطش رسولا يقول ، قد وقع بالبلاد ما اتصل بك من الجذب ، ولنا خيل برسم التاج تعز علينا ، فان رأيت ان تنفذها إلى الجزيرة ، وما نتجت من الذكور تكون للملك ، وما نتجت من الأنث فهو لك ، فأجاب إلى ذلك ، فأرسل إلى الجزيرة خمسمائة فرس في المراكب ومعها رعاتها ، فلما استقرت الخيل بالجزيرة عبي العساكر على تلطف واستخفا ، وقدم عليها بحضور الدمستق وامجاد رجاله ، وذلك في غرة المحرم سنة خمس (١) وثلاثمئة ، فدخل الأسطول إلى الجهة التي فيها الأفراس وترك كل فارس بسروجه ولجامه ، فاجؤا اهل الجزيرة على غرة وغفلة فملكوها وقتلوا صاحبها ومن معه من الجند ، وعفوا عن قتل الرعية ، ووجدوا الأموال التي كانوا بذلوها مضاعفة فاختدوها وسبوا نساء الأجناد ودراريهم وسحبوها (وشحنوها) بالعدد والأجناد» (٢) .

والواقع ان هذا النص لا يمكن الأخذ به لمجانبته للحقائق التاريخية التي وصلتنا من أكثر من مصدر بيزنطي وعربي على النحو الذي سيتضح في ثنايا هذا الفصل . يضاف لذلك أنه لم ترد أية اشارة في أى مصدر سواء كان عربيا أو بيزنطيا إلى صلح أو تحالف تم بين كريت وبيزنطة في عصر رومانوس الثاني كما يدعى النويرى . ثم أن الفترة الزمنية التي تقع بين تولى رومانوس الثاني للعرش البيزنطي في ٩ نوفمبر ٥٩٩م ، وتاريخ وصول الحملة البيزنطية امام كريت

(١) المقصود سنة خمسين وثلاثمائة ، وهو التاريخ الذي اتفقت عليه غالبية المصادر ، انظر على سبيل المثال ، يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ٨٤ (طبعة باريز) ، ياقوت : معجم البلدان ج٢ ، ص ٢٣٦ .

(٢) النويرى : نهاية الارب في فنون الأدب ، ج٢٢ ، لوحات ٢٤١ - ٢٤٢ . مخطوط مصور بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية برقم ٢٢ م .

في يولييه ٩٦٠ م ، وهي فترة لاتزيد عن تسعة اشهر ، هذه الفترة لاتتيح تحقيق كل مذكره النويرى خاصا بدفع بيزنطة « الجزية السنوية » للأمير كريت ، واتصال التجارة بين البلدين ، وامتلاءخزينة امير كريت بالأموال تبعا لذلك ، وغير هذا وذاك من التفاصيل التي اوردها النويرى في هذا الشأن واخيرا فقد ذكر النويرى انه قد تم قتل امير كريت عبد العزيز بن شعيب على يد القوات البيزنطية ، لكن الثابت في المصادر العربية والبيزنطية انه لم يقتل وانما أسر بعد ان قام بمجهود عظيمة في الدفاع عن الجزيرة (١) وانه حمل مع ابنائه إلى القسطنطينية حيث تم تشهيره هناك وبقي بها حتى وفاته (٢) . وهكذا يصبح من العسير التسلم برواية النويرى الخاصة بالفتح البيزنطى لكريت ويتحتم علينا الاعتماد اساسا على المصادر البيزنطية التي روت اخبار الفتح بكافة تفاصيلها .

لقد اسندت قيادة الحملة الجديدة المرسله لأخضاع كريت إلى القائد نقفور فوقاس ، وكان هذا في الواقع اختيارا موفقا ، لما امتاز به نقفور من صفات عديدة ، جعلته من اكفأ القادة البيزنطيين ، فهو ينتمى إلى عائلة من اكبر العائلات الإقطاعية في آسيا الصغرى ، وكانت عائلته تمتلك أراضى واسعة في اقليم قبادوقيا على طول الحد الإسلامى ، وقد انخرط معظم رجالها في السلك الحربى وخدموا الإمبراطورية زمنا طويلا ، وأبلوا بلاءا حسنا في الحروب التي خاضوها ضد اعدائها ، فان جده الذى يعرف بأسم نقفور ايضا حاز شهرة كبيرة بفضل ما قام به من أعمال جليلة في ايطاليا وصقلية في عصر الإمبراطور باسيل الأول ، وقام عمه ليو بأعمال مجيدة في أثناء الحروب ضد

(١) انظر نفس هذا الفصل ، ص ٢٦٣ . راجع كذلك :

The Encyclopedia of Islam, vol I, London 1913, p. 879.

(2) Symeon Magisti, pp. 759—760.

انظر ايضا ، ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .

البلغار ، اما والده بارداس فقد بلغ ارفع الوظائف العسكرية بفضل جهوده الحربية الطويلة ضد المسلمين على الجبهة الشرقية للإمبراطورية (١) ، . وحين بلغ بارداس مرحلة متأخرة من العمر ، اعفى من منصبه وحل محله ابنه المايجستر نقفور فوقاس كقائد عام (دمستقا) للقوات البيزنطية في آسيا الصغرى (٢) .

وقد عرف عن نقفور مهارته في القتال ، لذا فقد تعلق به الجنود إلى حد كبير ، وعن هذا الطريق استطاع ان يخوض بهم تلك المعارك الناجحة ، وعلى الأخص ضد المسلمين الذين كان تحطيم قوتهم العسكرية اقرب الأشياء إلى نفسه حتى اطلق عليه المعاصرون اسم « الموت الأبيض للمسلمين » (٣) وإلى جانب الصفات العسكرية التي امتاز بها نقفور فوقاس ،

فقد حاز صفات اخرى مثل الصرامة والحشونة والتقوى وميله الشديد لمصاحبة النساء ورجال الدين ، كما عرف عنه شدة الزهد والتقشف ، حتى قيل انه كان لا ينام إلا على جلد نمر يفترشه في أرض حجراته . وفي عبارة موجزة فقد اجتمع في نقفور صفة الجندي وصفة الراهب في آن واحد (٤) .

(1) Schlumberger, un Empereur Byzantin, p. 41; C.M.H., vol IV, p. 69.

راجع كذلك ، عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ص ١٤ - ١٥ .

(٢) كان ذلك أثناء مباشرة الامبراطور قسطنطين السابع للحكم في الامبراطورية البيزنطية (٩٤٤ - ٩٥٩ م) انظر :

Symeon Magistri, p. 758; Theophanes Continuatus, p. 40.

(3) Ostrogorsky, op. cit., p. 253.

(٤) عمر كمال توفيق : نقفور فوقاس واسترجاع الاراضي المقدسة ، ص ص ١٥ - ١٦ ، راجع ايضا :

Schlumberger, Un Empereur Byzantin au dième Siècle, Nicephore Phocas, pp. 40—42, Finlay, History of the Byzantine Empire, p. 507; Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 253; Rambaud, Etude sur L histoire Byzantine, p. 227; C.M.H., vol V, p. 70; Oman, The Byzantine Empire, pp. 228—230.

وهكذا كان تقفور فوقاس من ابرز رجال بيزنطة ، ومن أقدر المحاربين الذين هبّتهم الظروف لهذه الدولة في تلك الفترة من تاريخها ، لذلك فقد وقع الاختيار عليه ليتولى قيادة الحملة البيزنطية الموجهة ضد كريت بشقيها البري والبحري.

لقد كانت هذه الحملة البيزنطية الجديدة المرسلّة لأخصاص كريت ذات استعدادات برية وبحرية ضخمة ، وتكونت القوات البرية من خيرة جنود الثيمات البيزنطية الأوروبية والآسيوية ، فضمت مقاتلين من سهول تراقيا وجبال مقدونيا واهالي قبادوقيا وليكونيا والبونت ، كما اشتركت فيها عناصر متعددة مثل الأرمن والصقالبة والبجناك والخزر والروس (٢) . ولم يذكر المؤرخون البيزنطيون عدد القوات المقاتلة في هذه الحملة ، وان كانت بعض المصادر العربية قد ذكرت ان هذه القوات بلغت اثنين وسبعين الف مقاتل من بينهم خمسة آلاف فارس (٣) .

أما القوات البحرية فقد تم جمعها من الثيمات البحرية البيزنطية مثل التراقيسيون وساموس وكبير هايوت ، وانفرد المؤرخ البيزنطي المايجستر سيميون من بين المؤرخين البيزنطيين والمسلمين ، بذكر اعداد السفن التي اشتركت في هذه الحملة ، والتي بلغت ٣٣٦٠ سفينة مابين كبيرة وصغيرة منها الف من نوع الدرملينة ، والفان شلندية ، ٣٦٠ سفينة لنقل المؤن والخيول (٤) وقد يكون في هذه الأعداد بعض المبالغة ولكنها تدل على ضخامة استعدادات هذه الحملة . وقد تجمعت كل هذه الأعداد الكبيرة من السفن امام القسطنطينية

(1) Symeon Magistri, p. 758.

(2) Diaconus, Liber I, p. 7.; Theophanes Continuatus, Liber VI, p. 476.

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٣٦ :

(4) Symeon Magistri, p. 758.

وفي يوم الرحيل (١) ، وعند شروق الشمس تم الاحتفال بتوديع الحملة .
وقد ازدحمت كل المساحة الواسعة من المياه الواقعة بين القرن الذهبي من
ناحية وكريسوبوليس وخلقيدونية من الناحية الأخرى بسفن الأسطول المتعددة
الألوان ، كما ازدحمت القصور وشرفات المنازل الواقعة على الشاطئ
بالجماهير التي جاءت لتوديع الحملة . وعلى رصيف ميناء بوكوليون Boucolion
وهو الميناء الخاص بالأمبراطور والملحق بالقصر الإمبراطوري ، جلس
الإمبراطور رومانوس الثاني على عرش من المعدن الثمين أعد خصيصا لهذه
المناسبة ، ومن خلفه جلس بطريك القسطنطينية واصحاب المناصب العليا في
الدولة من الاكليركيين والعلمانيين وأعضاء السناتو ، وقد ارتدى الجميع
افخر الثياب الموشاه بالذهب ، ومن خلفهم جلست زوجات رجال الدولة
كل بحسب منصب زوجها . واخذت الهتافات تتعالى بينما الصلوات تقام في
جميع كنائس العاصمة ، والمرتلون ينشدون الأناشيد الدينية ويبتهلون إلى
الله ان يهب النصر لهذه الحملة ، ثم ساد الصمت ونزل البطريرك حيث بارك
سفن الأسطول ، ووقف الإمبراطور واعطى اشارة بدء تحرك الحملة ،
وبينما الأسطول يأخذ طريقه في مياه البروبونتيز متجها إلى كريت ، كانت
هتافات الجماهير تدوى من كل ناحية (٢).

(١) لم تحدد المصادر اليوم الذي تم فيه رحيل الحملة إلى كريت تحديدا دقيقا ، وقد ذكر المؤرخ
الفرنسي شلوبيرجيه أن هذا اليوم يقع بين الايام الاخيرة من شهر يونيه ٩٦٠ م أو الايام
الأولى من شهر يولية من نفس السنة . وأغلب الظن أن هذا الترجيح صحيحا خاصة وأن
المؤرخ يحيى الانطاكي قد ذكر أن نقفور وصل أمام كريت في النصف من جمادى الأول
سنة ٣٤٩ هـ وهو يوافق منتصف شهر يوليه ٩٦٠ م . أنظر ، يحيى الانطاكي : التاريخ ،
ص ٨٤ (طبعة باريز) .

Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 67.

(2) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, pp. 67—68.

وقد وصلت القوات البيزنطية امام جزيرة كريت في منتصف يوليو ٩٦٠ (منتصف جمادى الأول ٣٤٩ هـ) (١) ، ويذكر كل من صاحب صلة ثيوفان ، وليون الشماس ، وكيدرينوس ، ان القوات البيزنطية استطاعت النزول إلى ارض الجزيرة دون أن تصادف الكثير من المصاعب ، غير أنهم لم يحددوا مكان نزول هذه القوات تحديدا دقيقا ، ولم نعثر في المصادر الأخرى على مايفيد في هذا الشأن . وعلى الفور امر نقفور بفرض الحصار البحري على الجزيرة ، ففرقت سفن الأسطول وأحاطت بها من جميع الجهات ، لتحول دون وصول أية مساعدات عسكرية إليها من المسلمين في الشام ومصر وشمال افريقية والأندلس (٢) .

وقد بدأ نقفور العسكرية على ارض الجزيرة ، بأن ارسل كتيبة من الكشافة بقيادة الأستراتيجوس باستيلاس Pastilas ، حاكم ثيم التراقيسيون وهو واحد من اقدر القادة في الحملة كلها ، وكانت مهمة هذه الكتيبة استطلاع مدى الإمكانيات العسكرية للمسلمين ، لكن الروس وباقي العناصر البربرية التي اشتركت في هذه المهمة الاستطلاعية ، اخذت بمآرأته من غنى الحقول في الجزيرة ووفرة خيراتها ، فانشغلوا بجمع هذه الخيرات ، وبعد أن توغلوا إلى داخل الجزيرة ، هاجمهم المسلمون على حين غرة ، وابدوا افراد الكتيبة اما قائدها باستيلاس فقد أخذوها اسيرا (٣) . وقد كان لهذا الحادث اسوأ الأثر في نفس نقفور فقرر توجيه ضربة كبيرة وحاسمة للمسلمين بكريت ،

(١) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ٨٤ ، (طبعة باريز) .

(2) Theophanes Continuatus, p. 476; Leon Diaconus, pp. 7—8;

(٢) كيدرينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٤٠ .

(3) Leon Diaconus, pp. 8—10.

وذلك بحصار مدينة الخندق ذاتها عاصمة الجزيرة . ويذكر المؤرخون البيزنطيون ان الجيش البيزنطي سار خلال اقليم مزدهر بالمحاصيل الزراعية واشجار الفاكهة حتى وصل إلى الخندق ، ففرض عليها حصارا قاسيا من البر بينما احاطت بها سفن الأسطول من البحر (١) .

أما مدينة الخندق التي كانت هدفا لهذا الحصار ، فهي تقع على الساحل الشمالى لجزيرة كريت ، إلى الشمال الشرقى من جبل ايد العظيم ، وتحميها من جهة البحر صخرة ضخمة شديدة الارتفاع ، هيأت للمدينة الحماية الطبيعية من هذه الجهة، اما الجهات الاخرى فحمتها اسوار (٢) منيعة مرتفعة ، على درجة كبيرة من الاتساع حتى كان اتساعها يسمح بأن تسير فوق قممها عربتان من عربات الحرب فى وقت واحد . وقد شيد المسلمون فوق هذه الأسوار ابراجا حصينة اذهلت الجنود البيزنطيين المشتركين فى الحملة . كما احاط بالمدينة خندق دائرى ضخم حفره المسلمون حولها منذ بداية فتحهم الجزيرة فى عام ٢١٢ هـ / ٨٢٧ م ، واستمر قائما حتى ذلك الوقت. وقد بذل امير كريت عبد العزيز بن شعيب جهدا كبيرا فى تقوية وسائل الدفاع عن المدينة والجزيرة بصفة عامة ، ومنع تزويد البيزنطيين بأية مؤن (٣) .

على أن جماعة من المسيحيين من اهالى كريت ، قد اضطلوعوا بدور هام فى هذا الصراع البيزنطى الإسلامى ، فقاموا باتلاف المحاصيل الزراعية ، وقطع اشجار الفاكهة ، واحراق القرى الإسلامية ، حتى يضار المسلمون

(1) Leon Diaconus, p. 11.

(٢) ذكر المؤرخ البيزنطى ليون الشماس ، أن حوائط هذه الاسوار ليست من الطوب وإنما من الطين المخلوط بشعر الماعز والخنازير حتى يزيد من تماسكها . انظر ،

Leon Diaconus, p. 11.

(3) Leon Diaconus, p. 12.

بهذا الحصار ، كما طافوا بالمدن والقرى في أنحاء الجزيرة ، يثيرون الأشاعات المغرضة ويحثون على الاستسلام (١) . ولم توضح المصادر الأسباب التي دفعت المسيحيين بكريت إلى اتيان مثل هذه التصرفات المعادية للمسلمين ، وان كانت هناك اشارة اوردها المؤرخ البيزنطي جينزيوس عند تعرضه لفتح المسلمين لكريت ، ذكر فيها ان الفاتحين المسلمين قد خصصوا مدينة واحدة من الجزيرة للمسيحيين لكي يمارسوا فيها شعائهم الدينية ، ولم يسمحوا لهم بالاختلاط بهم (٢) . ويفهم من ذلك ان المسيحيين بكريت قد عاشوا منبوذين في ظل الحكم الإسلامي لهذه الجزيرة . على انه من العسير التسليم بهذا الادعاء ، مع ما عرف عن المسلمين بصفة عامة من التسامح الدني مع اهالي الذمة (المسيحيين واليهود) في البلاد المفتوحة . ولكي نفهم هذا التصرف من جانب المسيحيين بكريت ، يجب ان نعلم ان الدين المسيحي كان في النهاية صلة ربط بين هؤلاء الكريتيين المسيحيين والدولة البيزنطية ، خاصة وان العوامل الرئيسية التي كانت مثار نزاع بين مسيحيي كريت وبيزنطة عند الفتح الإسلامي للجزيرة (٣) كانت قد انتهت منذ امد بعيد وذلك بعودة بيزنطة إلى الخط القويم للأرثوذكسية في عام ٨٤٣ م (٤) .

ومهما كان الأمر ، فحين اشتد الحصار على المسلمين بكريت ، أخذوا في الاستغاثة بالقوى الإسلامية في المشرق ، وقد انفرد المؤرخ الشيعي النعمان من بين المؤرخين المسلمين والبيزنطيين على السواء ، بالاشارة إلى سفارة ارسلها امير كريت عبد العزيز بن شعيب إلى الدولة الأخشيدية لطلب المساعدة

(1) Ibid, p. 12.

(2) Genesius, p. 47.

(٣) انظر الفصل الاول من البحث ص ص ٦٨-٧١.

(٤) انظر الفصل الثاني من هذا البحث ، ص ١٣٣ .

العسكرية (١) . وكان كافور هو المسيطر على الأمور بمصر آنذاك لكنه لم يبد اهتماما يذكر لأجابة هذا الرجاء ، ولم يوضح النعمان اسباب ذلك ، ولكن من المحتمل ان يكون السبب هو الاضطراب الذى ساد مصر وقتذاك بسبب الصراع من اجل السلطة بين صاحب الحق الشرعى فى الحكم وهو ابى القاسم اونوجور بن محمد بن طغج الأخشيدى (٣٣٤ - ٣٤٩ هـ / ٩٤٦ - ٩٦٠ م) والوصى عليه كافور ، وما ادى اليه ذلك من انقسام بين الجند بمصر ، اذ انضم فريق إلى كافور عرفوا باسم الكافورية ، وانضم فريق آخر إلى اونوجور عرفوا بالأخشيدية (٢) ، وكان هؤلاء الاخيرون يدينون بولائهم المباشر للأخشيديين ، ومن ثمة لم يكن لكافور عليهم اى سلطان ، فاذا رغب فى اغاثة اهالى كريت كان عليه ان يرسل بجنده الكافورية فيفقد بذلك السند الذى يعتمد عليه فى مواجهة الصراع مع الإخشيديين فيسهل حينئذ ابعاده عن الحكم .

ولكن العامة بمصر ثاروا ، وأعلنوا عن سخطهم لعدم اتخاذ السلطات الحاكمة موقفا ايجابيا بشأن نجدة اخوانهم اهالى كريت . ورغبة من كافور فى كسب ولائهم وتأيدهم ، انزل عدة سفن إلى البحر وتظاهر بأنه يعدّها للبحار إلى كريت واغاثة اهلها (٣) . ولم يكن ذلك فى واقع الأمر أكثر من مظهره سياسية لتهدئة الموقف المتوتر .

(١) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج٢ ، لوحة ٤١٦ ، مخطوط مصور ، موجود بمكتبة جامعة القاهرة تحت رقم ٢٦٠٦٠ .

(٢) للمزيد من المعلومات عن هذا الصراع ، انظر :

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى اخبار مصر والقاهرة ، ج٣ ، ص ٢٩١ - ٢٩٢ ، ج٤ ، ص ٢ ، المقرئى : الخطط ، ج٢ ، ص ٢٧ . راجع ايضا : سيدة كاشف : مصر فى عصر الاخشيديين ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

(٣) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج٢ ، ص ٤١٧ .

اما الأمير سيف الدولة بن حمدان حاكم اماره حلب بشمال الشام (٣٣٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ - ٩٦٧ م) فقد ارسل جيشا على رأسه امير طرسوس لنجدة المحاصرين بكريت (١). ولم توضح المصادر ما اذا كان ذلك جاء نتيجة لأستغاثة اهالى كريت بسيف الدولة ، ام انه كان تصرفا تلقائيا منه بوصفه الزعيم الأول وحامل لواء الجهاد ضد البيزنطيين فى المشرق الإسلامى فى ذلك الوقت ، وتحقيقا لسياسته فى هذا المجال ، وامتدادا لمبدأ التعاون بين الشام وكريت هذا المبدأ الذى سار عليه الطرفان منذ الشطر الثانى من القرن التاسع الميلادى (٢) على ان هذه المحاولة باءت بالفشل ولم تحقق هدفها ، اذ ان قوات ثيم التراقيسيون اعترضت طريق امير طرسوس واجبرته على العودة من حيث أتى (٣) .

وحين وجد اهالى كريت انهم لن يحصلوا على مساعدة جديدة من مسلمى المشرق ، ولوا وجوههم شطر المغرب الإسلامى ، وقد انفرد المؤرخ البيزنطى صاحب صلة ثيوفان من بين المؤرخين البيزنطيين بذكر السفارة التى أرسلها الكريتيون إلى الأندلس ، والسفارة الثانية التى بعثوا بها إلى شمال افريقية لطلب المساعدة العسكرية (٤) أما المؤرخون المسلمون فلم يشر احد منهم إلى السفارة الكريتية للأمويين بالأندلس ، أما سفارتهم إلى الخليفة المعز بشمال افريقيا ، فقد أشار إليها ابن الأثير إشارة سريعة (٥) ، على حين انفرد المؤرخ الشيعى النعمان بسرد تفاصيلها (٦) .

(1) Schlumberger, Un Empereur, p. 82; Diehl et Marcais, le monde orientale., p. 462.

(٢) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ١٧٤ وما بعدها .

(3) Schlumberger, op. cit , p. 82.

(4) Theophanes Continuatus, op 477

(٥) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٧ ، ص ٥ .

(٦) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤١١ - ٤٢٣ .

وقد ارسل عبد الرحمن الناصر (ربيع الأول ٣٠٠ - رمضان ٣٥٠ هـ / ديسمبر ٩١٢ - نوفمبر ٩٦١ م) امير الأندلس ، رسولين إلى مدينة الخندق لاستطلاع مدى حاجة اهاليها للمساعدة (٤). لكن لم يرد بالمصادر ذكر لأية مساعدة ارسلها الأمويون إلى كريت ، وقد ارجع المؤرخ الفرنسي شلومبرجيه السبب في ذلك إلى احكام نقفور فوقاس للحصار البحري على الجزيرة بشكل لم يسمح للأمويين باختراق هذا الحصار (٢). على انه من العسير التسليم بهذا الرأي ، بعد ما ثبت من ارسال الدولة الفاطمية بمساعدات عسكرية لكريت تمكنت من النزول على ارض الجزيرة بالفعل (٣) . والراجح ان الأمويين لم يكونوا صادقي العزم على مساعدة كريت ، ويبدو انهم لم ينسوا ان مسلمي كريت هم من سلالة الأندلسيين المشاغبيين الخارجين على الطاعة ، اصحاب ثورة الربض . يضاف إلى ذلك ، ان المشاكل الداخلية التي عانى منها الأمراء الأمويون إلى جانب تباعد الحدود بين الأمويين والبيزنطيين ، كل ذلك ادى إلى ابتعاد الأمويين عن خضم الصراع الدائر بين البيزنطيين والمسلمين في المشرق .

اما التجاء اهالي كريت إلى الخلافة الفاطمية الشيعية في المغرب ، رغم انهم كانوا يدينون بالولاء السياسي للخلافة العباسية ويعتقون المذهب السني (٤) فهذا امر على جانب كبير من الخطورة ، نظرا لما سيترتب عليه من تغييرات سياسية ومذهبية خاصة بآمارتهم . ويذكر المؤرخ الشيعي النعمان ، ان اهالي كريت لم يلجأوا للخليفة الفاطمي المعز لدين الله الا بعد أن « علموا انه ليس

(1) Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p 82.

(2) Ibid, p. 82.

(٣) انظر ص ص ٢٥٧-٢٦٠ من هذا الفصل .

(٤) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

عند بنى العباس صح نهضة « (١) ، فهل معنى ذلك ان اولى الأمر بكريت استنجدوا بالعباسيين ولم يجدوا منهم استجابة ، أم انهم ادركوا بثاقب نظرهم وتفهمهم لحقيقة الأوضاع فى الدولة العباسية انهم لن يحصلوا على مساعدة جدية من جانبها ، فاتجهوا للخليفة المعز مباشرة ، ودون ان يبذلوا محاولة فعلية للأستغاثة بالعباسيين .

الواقع انه لم يرد بالمصادر سواء العربية أو البيزنطية اية اشارة إلى التجاء الكريتين إلى الخلافة العباسية بشأن طلب نجاتهم من المحنة التى يتعرضون لها ، والغالب انهم لم يقوموا بمحاولة مافى هذا الشأن ، والا لكان المؤرخون المسلمون وخاصة المشاركة منهم قد تعرضوا لها ، خاصة وان بعضهم مثل ابن الاثير قد اشار إلى سفارة الكريتين إلى الخليفة المعز بالمغرب ، وكان الأحرى به ان يذكر سفارتهم إلى العباسيين ان كانت قد حدثت بالفعل .

وعلى أية حال ، فقد ارسل الكريتيون إلى الخليفة المعز بشمال افريقية ، سفارة على رأسها احد وجهاء كريت ، واخذ اعضاء هذه السفارة يتضرعون إلى الخليفة المعز لدين الله ويسألونه اغاثتهم ونجاتهم ، ووعدوه بأن أهالى كريت سيدينون له بالولاء بعد انتصارهم على الدولة البيزنطية ، كما اخذوا فى اظهار مميزات جزيرتهم واحتوائها على الخيرات والمعادن ، وشهرتها فى انشاء الأساطيل ، كما اوضحوا له ان قرب جزيرتهم من مصر مما يهيىء له فتحها فى المستقبل ، وكانت هذه لمحة ذكية صدرت من هؤلاء الرسل نظرا لحساسية موضوع مصر بالنسبة للخلافة الفاطمية ، التى كانت تسعى جاهدة لفتحها (٢) كذلك فقد اخذوا يؤكدون له ان قرب المسافة بين كريت والقسطنطينية

(١) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .

(٢) انظر محاولات الفاطميين فتح مصر فى ص ص ٢٦٧-٢٦٨ من هذا الفصل .

سوف يتيح للفاطميين اتخاذها قاعدة لعملياتهم العسكرية ضد العدو البيزنطي وما سيكون لذلك من اثر في كسب الرأى العام الإسلامى إلى صفهم وتأليهه على الدولة العباسية التى تتقاعس عن حمايتهم ونصرتهم (١) وقد استجاب لهم الخليفة المعز ، ووعدهم بأرسال النجيدات اليهم « فى اول وقت الإمكان من الزمان » (٢) واحتجز رئيس الوفد ، إلى أن يعود إلى كريت مع الأساطيل الفاطمية ، وأمر بأرسال رسولين من قبله إلى أهالى كريت لاختبارهم بعزمه على اغاثتهم واستنقاذهم من محنتهم (٣) . وقد برر الخليفة المعز أن استجابته هذه انما الغرض منها « القيام بما أوجب الله تع علينا من الجهاد لعدونا ، واستنقاذ من اناب الينا من امة جدنا ، ونصرتهم ومعاونتهم (٤) . » على انسه مما لاشك فيه ان الخليفة المعز وجد فى تلبية مطالب اهالى كريت ما يحقق آماله الواسعة فى مد نفوذه إلى المشرق الإسلامى ، لأن من يستولى على هذه الجزيرة يسهل عليه حينئذ فتح مصر والبلاد الواقعة على الساحل الشرقى للبحر المتوسط كذلك وهو ما كان يهدف اليه الفاطميون .

وقد شرع الخليفة المعز على الفور فى اتخاذ الخطوات الإيجابية بشأن مساعدة اهالى كريت ، وأمر بأعداد الأساطيل لهذا الغرض ، ثم أرسل كتابا إلى الإمبراطور البيزنطى رومانوس الثانى ، الذى كان مرتبطا معه بهدنة (٥) ، اخبره فيه بعزمه على الوقوف بجانب أهالى كريت واغاثتهم ، وانذره بنقض

(١) النعمان : المجالس والمسائرات ، ص ٤٢١ .

(٢) النعمان : المجالس والمسائرات ، ص ٤٢٣ .

(٣) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤٢٢ .

(٤) نفس المصدر : ج ٢ ، ص ٤٢٢ - ٤٢٣ .

(٥) تم إبرام هذه الهدنة فى اوائل عهد الامبراطور رومانوس الثانى ، وكانت مدتها خمس سنوات ولم يكن أجلها قد انتهى بعد ، انظر ، النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤١١ .

الهدنة المعقودة بينهما ، اذا استمرت القوات البيزنطية فى حربها ضد الكريتيين واختتمه بقوله : « وعهدك اذا تماديت على حرب من أناب إلينا منبوذ إليك فانظر لنفسك ولأهل ملتك ، فانا مناجزوك وأياهم الحرب ، بعون الله وتأييده ، ولا حول ولا قوة الا به (١) »

كذلك أرسل الخليفة المعز لدين الله كتابا (٢) إلى كافور الانشىدى ، المسيطر على الأمور فى مصر يطلب منه توحيد كلمة المسلمين وتظافرهم على عدوهم لأعزاز دين الله ، كما طلب منه كذلك ، عدم التقاعد عن نصرة أهالى كريت ، خاصة وان دعوتهم واحدة ، والصلات بينهما كثيرة نظرا لقرب المسافة بين مصر وكريت ، وفى النهاية عرض عليه التعاون معا لنجدة أهالى كريت ، بأن يرسل الأساطيل المصرية لتجتمع بالأساطيل الفاطمية فى مرسى طنبه من ارض برقة لأقتراب هذا المرسى من جزيرة كريت . وقد تعهد الخليفة المعز لكافور بعدم الحاق اى اذى بالأساطيل المصرية ، فقال موضحا ذلك « . . . وان تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا . فلك علينا عهد الله وميثاقه ، انا لانكون معهم الا بسبيل خير ، وانا نحلهم محل رجالنا ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشركهم فيما افاء الله علينا ، ونقيمهم فى ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله ثم ينصرفوا اليك على ذلك ، او يكون من امر الله وقضائه ما هو فاعله ، فاعلم ذلك ، وثق به منا ، ففى تظافر المسلمين على عدوهم ، واجتماع كلمتهم اعزاز لدين الله ، وكبت لأعداءه ، فقد سهلنا لك السبيل ، والله على ما نقول وكيل . »

(١) انظر النص الكامل لهذا الكتاب مع التعليق عليه ، فى الملحق رقم (٣) من هذا البحث .

(٢) انظر نص هذا الخطاب مع التعليق عليه فى الملحق رقم (٤) من هذا البحث .

(٣) النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

ولكن يبدو أن كافور لم يثق في تأكيدات الخليفة المعز ، بالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إليه من المشاكل الداخلية التي عانت منها مصر آنذاك (١) . لذلك لم تلق دعوة المعز أية استجابة ، اذ لم يرد بالمصادر اشارة ما إلى قيام تعاون بين كافور والفاطميين بشأن كريت ، ولهذا فقد اضطلع الفاطميون بالمهمة وحدهم . ففي اشارة اوردها ابن الأثير يفهم منها ان الخليفة المعز ارسل بالفعل قوات لنجدة الكريتيين (٢) . غير انه لم يمدنا بأية معلومات عن اعداد هذه القوات او تفاصيل المعركة بينها وبين القوات البيزنطية .

وان كان ابن الأثير وغيره من المؤرخين المسلمين قد اغفلوا تفاصيل هذه المعركة ، الا ان المصادر البيزنطية قد اوردت بعض المعلومات اليسيرة عنها ولكنها تمتاز بقيمتها وأهميتها ، فقد روت هذه المصادر انه بعد وصول القوات الفاطمية إلى كريت اتحدت مع قوات المسلمين بها ، وسار هذا الجيش الذي بلغ تعداده اربعون الف مقاتل للهجوم على المعسكر البيزنطي ، لكن اثنين من المرتدين إلى الدين المسيحي من اهالي كريت ، تسلوا واخبروا نقفور فوقاس بالخطط التي اعدتها الجيش الإسلامي ، وعلى الفور اتخذ نقفور جانب المبادرة

(١) انظر ص ٢٥٣ من هذا الفصل . -

(٢) قال ابن الاثير في حوادث سنة ٣٥١ هـ «وفيها سار جيش من الروم في البحر إلى جزيرة اقريطش ، فأرسل أهلها إلى المعز لدين الله العلوي صاحب افريقية يستنجدونه ، فأرسل اليهم نجدة ، فقاتلوا الروم ، فانتصر المسلمون ، واسر من كان بالجزيرة من الروم .» ووضح أن الامر التبس على ابن الاثير في تأريخه للحملة البيزنطية على كريت ، اذ ذكره في حوادث عام ٣٥١ هـ (فبراير ٩٦٢ - يناير ٩٦٣ م) ، والمعروف أن هذه الحملة قد حدثت في صيف عام ٩٦٠ م (٣٤٩ هـ) . كما التبس عليه الامر كذلك فيما ذكره خاصا بنتائج المعركة بين المسلمين والبيزنطيين إذ تؤكد الحقائق التاريخية انتصار البيزنطيين في هذه المعركة وغيرها من المعارك التي اسفرت عن فتحهم للجزيرة ، انظر ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٥

وقام بمفاجأة القوات الإسلامية بالهجوم عليها ، فشنت شملها ، وقتل العدد الأكبر منها (١) .

وهكذا فشلت المحاولة التي قام بها الفاطميون لأنقاذ كريت من قوات الاحتلال البيزنطي ، ولم تأت المصادر بشيء عن محاولات أخرى قامت بها الدولة الفاطمية في هذا المجال ، ويبدو ان الخليفة المعز رأى من الأفضل عدم المغامرة بقواته وأساطيله في محاولات أخرى غير مضمونة النتائج ، خاصة وانه كان في أشد الحاجة لهذه القوات لاستخدامها في فتح مصر .

وبعد ان احرز نقفور فوقاس هذا الانتصار العسكري ، قام بمحاولة نفسية لارهاب المدافعين عن اسوار مدينة الخندق واهاليها وادخال الرعب إلى قلوبهم ، فأمر بجمع رؤوس القتلى المسلمين ، بعد أن آثار حماسة رجاله لهذه العملية الوحشية بدفع قطعة فضية لكل جندي يأتي له برأس قتيل مسلم ، وبعد أن تجمعت لديه اعداد كبيرة منها ، أمر باللقائها إلى داخل المدينة (٢) .

على ان المعسكر البيزنطي بدأ يعاني من شدة البرد في فصل الشتاء من عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ ، وكذلك من قلة المؤن ، خاصة وان القحط في تلك السنة كان عاما بالنسبة لبلاد الشرق . لكن الوزير البيزنطي برينجاس بذل جهودا مضمينة حتى تمكن من ارسال المؤن اللازمة إلى المعسكر البيزنطي وذلك في اوائل عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ كما ارسل نجدات عسكرية أخرى بقيادة ليون فوقاس شقيق نقفور (٣) .

(1) Leon Diaconus, pp. 13—14.

(2) Ibid, pp. 14—15

(3) Ibid, p. 24; Zonaras, p 491.

وتذكر المصادر قيام المسلمين بكرية بمحاولة ثانية للهجوم على المعسكر البيزنطي ، ومصدرنا الرئيسي في هذا الموضوع هو ثيودوسيوس الشماس ، إذ عرض في الفصل الثاني من ملحمة وصفها لهذا الهجوم الذي قامت به قوات من الكريتين المسلمين بلغ عددها ١٥٠٠ فارس و ٣٦ ألف مقاتل من المشاة . وقد وصلت أنباء عزم المسلمين على القيام بهذا الهجوم إلى نقفور فوقاس عن طريق الجواسيس من أهالي الجزيرة المسيحيين ، فأجتمع هو الآخر بجنوده والهب حماسهم بخطبة ألقاها عليهم ، وأوضح فيها خطته لملاقاة هذا الهجوم ، وفي ختام حديثه ، تعالت الهتافات من جانب الجنود بحياة الامبراطور رومانوس الثاني والد الشعب ، وجددوا العهد لنقفور بالموت في سبيل النصر (١) وفي اليوم (٢) الذي حدده المسلمون للهجوم ، اتخذ امير كريت عبد العزيز بن شبيب مكانه على برج مرتفع على سور مدينة الخندق لكي يقود المعركة بنفسه من هذا المكان ، وفتحت بوابات المدينة ، فاندفع المقاتلون المسلمون لمهاجمة المعسكر البيزنطي ، وحسب خطة نقفور ، تظاهر الجنود البيزنطيون بالفرع ، واخذوا يفرون امام قوات المسلمين ، التي انخدعت واخذت في مطاردتهم ، وبعد أن تفرقت وتشتت شملها ، اطبقت عليها القوات البيزنطية من كل مكان وأوسعها تقتيلا ، فزاحم افراد القوة الإسلامية عائدين إلى داخل المدينة ، ولما رأى امير كريت كثرة عدد الفارين منهم ورغبة منه في ارغامهم على القتال ، امر باغلاق بوابات المدينة ، وكان ذلك مما زاد في عدد القتلى المسلمين إلى درجة خطيرة ، فلم يجد بدا من فتح البوابات مرة اخرى لأنقاذ البقية الباقية منهم (٢) .

(١) انظر كتاب ثيودوسيوس الشماس وهو باليونانية ، ص ص ٢٨٣ - ٢٨٦ .

(٢) لم يذكر ثيودوسيوس الشماس تاريخ هذه المعركة ، ولم يرد بالمصادر الاخرى شيء عن هذا التاريخ .

وبعد هذه المعركة حدثت بعض المناوشات المتقطعة بين الطرفين تخللت عملية الحصار وكان ذلك في اوائل عام ٩٦١ م . وفي يوم ٧ مارس ٩٦١ م / المحرم ٣٥٠ هـ ، قام البيزنطيون بهجوم كبير على مدينة الخندق ، كلل بالنجاح واسفر عن فتح هذه المدينة الحصينة . ففي صباح ذلك اليوم طاف الدهستق نقفور فوقاس محاطا بالقادة ورجال الدين واخذ في تقوية عزائم جنوده ، ثم اعطى اشارة البدء بالهجوم ، فشرع الجنود في وضع آلاتهم الحربية على الأماكن التي وقع عليها الاختيار من السور واخذوا في رجمها بقوة ، كما امطروا المدافع عن الأسوار بوابل من السهام والحجارة والنيران الإغريقية ، وبذلك نجح البيزنطيون في عمل ثغرة كفلت لهم العبور خلالها إلى داخل المدينة ، فتدفقوا إليها كالاعصار حيث قاموا بقتال السكان من ركن إلى ركن ومن منزل لآخر ، ووقعت مذبحة مروعة قتل فيها جيش نقفور النساء والشيخ والأطفال العزل من السلاح ، وقد افاض المؤرخ البيزنطي ثيودوسيوس الشماس في وصف هذه المذبحة ، وصور الأطفال المسلمين وهم يكون امهاتهم وهم يرونهم بلقين حتفهن امام اعينهم ، أو مكبلات في الأسر يسومهن الجنود البيزنطيون الوان العذاب . على ان شباب المسلمين من ابناء الخندق سرعان ما جمعوا انفسهم وصمموا على القتال ورد البيزنطيين ، فاشتبكوا معهم في معارك ضارية اوقعوا بهم خلالها خسائر كبيرة في الأرواح ، ففرع البيزنطيون واخذوا يفرون من المدينة عائدين إلى معسكرهم ، وحين لمس نقفور مدى فزعهم قفز بفرسه إلى داخل المدينة واخذ يهدى من روعهم ، ويحثهم على معاودة القتال ، وكان لذلك أثره في رفع معنوياتهم من جديد ، والانتصار على آخر مقاومة أبدتها المسلمون في مدينة الخندق (١) .

(١) ثيودوسيوس الشماس : فتح كريت ، ص ص ٢٩٢ - ٣٠٠ ، باليونانية .

وبسقوط مدينة الخندق العاصمة ، استسلمت باقى مدن الجزيرة ، فقدمت الوفود الاسلامية من هذه المدن تعلن لنقفور الاستسلام وتطلب الامان. وبعد أن اطمأن إلى استسلام الجزيرة كلها ، قام بتنظيم الادارة بها فعين لحكمها أحد أتباعه ، الذى اتخذ لقب استراتيجوس Strategus ، رأس مجموعة كبيرة من الموظفين الاداريين . هذا ، ولم يجد البيزنطيون أفضل من مدينة الخندق لاتخاذها عاصمة للجزيرة ، وقد شيد نقفور على ربوة مرتفعة إلى جوارها قلعة حصينة اطلق عليها اسم تيمنوس Temenos ، وامتازت هذه القلعة بالحصانة والمناعة وبكثرة الاخاديد والانهار المحيطة بها . وقد زود نقفور هذه القلعة بحامية من الجنود الارمن والبيزنطيون ، كما زود الجزيرة كلها بقوات عسكرية كبيرة لحراستها ، بعد أن عادت كريت من جديد موقعا بيزنطيا متقدما للامبراطورية لصد غارات مسلمي شمال افريقية وآسيا الصغرى (١) .

وقد سارع نقفور بأرسال نبأ فتح جزيرة كريت إلى الامبراطور البيزنطي رومانوس الثانى ، الذى أمر بإذاعته رسميا على الشعب ، فتقبلته الجماهير بفرح بالغ ، وحظى نقفور فوقاس بشعبية كبيرة ، وأطلقوا عليه لقب «الظافر» كالينيكسوس Kallinixos ، وقد ارسل اليه الامبراطور رومانوس يستدعيه إلى القسطنطينية للاحتفال بهذا الفتح العظيم الذى تم على يديه ، فلبى نقفور الدعوة ، وعاد إلى العاصمة مصحوبا بالاسرى المسلمين من وجهاء كريت ، وعلى رأسهم حاكمها السابق الامير عبد العزيز بن شعيب وابنائهم (٢) ويقال أن نقفور حمل معه إلى القسطنطينية من الاموال والاسرى نحو من

(1) Leon Diaconus, p 28

(2) Leon Diaconus, p 28 ; Zonaras, p. 492.

انظر كذلك كتاب ثيودوسيوس الشماس وهو باليونانية ، ص ٣٠٢ .

ثلاثمائة مركب (١) . وقد تم الاحتفال في بيزنطة بهذا الانتصار حسب التقاليد المتبعة آنذاك (٢) .

وقد تم أول هذه الاحتفالات في « الهيودروم (٣) » حيث استعرض الأسرى امام الإمبراطور والإمبراطورة ورجال البلاط وعامة الشعب ، وفي وسط التراتيل والهتاف احضر الأمير الأسير ووجهاء دولته ، وشهروا في الهيودروم ، ثم أمسك دمستق القوات الاسكلارية بالأمير المغلوب واضطره للركوع امام الإمبراطور ، الذي رفع قدميه ووضعهما فوق رأس خصمه ، ثم أتى بعد ذلك مركب الأسرى والغنائم من الخيول والجمال ومختلف انواع الاسلاب ، و تم استعراض ذلك كله في مركب لانهاية له ، واثناء مرور الاسرى امام الإمبراطور كانوا يركعون ووجوههم إلى أسفل ، ثم قدم الجنود البيزنطيون وطرحوهم ارضا بينما المرتلون ينشدون انشودة تمجد انتصارهم على المسلمين بواسطة العدالة الالهية (٤) .

(١) ياقوت : معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ .
(٢) امدنا الامبراطور قسطنطين السابع في كتابه « المراسم الامبراطورية » ، بصورة رائعة للتقاليد المتبعة في الاحتفالات التي تقام في العاصمة البيزنطية في مثل هذه المناسبات ، وهي التقاليد التي لا بد وانها اتبعت بحذافيرها دون أى تغيير ، نظرا لاقتراب عهدى قسطنطين السابع (٩٤٤ - ٩٥٩ م) وولده رومانوس الثانى (٩٥٩ - ٩٦٣ م) . وبشأن هذه التقاليد والاحتفالات انظر كتاب الامبراطور قسطنطين السابع « المراسم الامبراطورية » وهو باليونانية ، ص ص ٣٣٠ - ٣٣٣ .

(٣) الهيودروم هو ميدان السباق ، وهو مبنى ضخم فسيح ، يتسع لجلوس ما يقارب الاربعين الف شخص . وكان في الامكان الوصول من القصر الامبراطورى مباشرة إلى المقصورة الامبراطورية في هذا الميدان . وقد لعب الهيودروم دورا هاما في الحياة الاجتماعية والسياسية في الدولة البيزنطية ، وللمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر ، رانسيما : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٢٩ - ٣٣٠ .

(٤) انظر الترجمة العربية لهذه الانشودة مع التعليق ، في الملحق رقم (٥) من هذا البحث .

وأعقب ذلك احتفال آخر مسرحه هذه المرة المحكمة الكبرى المسماه
آجورا التي تقع في قلب العاصمة البيزنطية ، بين القصر الإمبراطوري ، ومبنى
السناتو والكنيسة الكبيرة سانت صوفيا ، وفي تلك الساحة الفخمة القائمة وسط
مجموعة نادرة من الأعمدة الرخامية التي تحمل في أعلاها تماثيل من الفضة
للأباطرة والإمبراطورات ، ويتوسطها عمود ضخم في أعلاه صليب كبير
محلّى بكتابات دينية منقوشة بالذهب ، جلس الإمبراطور رومانوس الثاني
على المنصة ، واتخذ بطريك القسطنطينية مكانه خلفه ، بينما جلس على
الجانبين الشخصيات الهامة في الدولة ، ثم جاء الأسرى ، واخذ المرتل
الإمبراطوري يرتل اهزيع النصر ، وبعد الانتهاء من هذه التراتيل ، أمسك
دمستق القوات الاسكلارية وكبار القادة في الجيش والأسطول وحكام
الولايات واصحاب المراكز الادارية الهامة في الدولة ، أمسك كل هؤلاء
بالأمراء والوجهاء من الأسرى المسلمين ، وطرحوهم أرضا أسفل العمود
الذي يحمل الصليب الكبير ، بينما ركع الحاكم المقهور عند قدمي الإمبراطور
وألبسه الخف الأحمر ، اما باقي الأسرى فقد قاموا - بناء على أوامر حراسهم -
بتمرير أنفسهم في التراب ، بينما كانت جموع الشعب البيزنطي تهتف هتافات
الانتصار .

بعد ذلك نهض الأسرى وأميرهم عبد العزيز بن شعيب ، وتقهتروا
ووجههم نحو الإمبراطور ، حتى لا يسيثوا إلى هيئته ، حيث انسحبوا إلى
نهاية ساحة الاحتفال ، واتخذوا أماكنهم بها . ثم جاء رجال الحرس
الإمبراطوري ، والمجذفين بالأسطول البيزنطي ، والمرتلين بالقصر ،
الإمبراطوري ، ووقفوا امام الإمبراطور وعلى يمينه واختتموا الاحتفال بهذه

الابتهالات التي يقولون فيها « العمر المديد للإمبراطور ، العظيم جدا ، الشديد التقوى ، الدائم الانتصار ، الذي منحه الرب سنوات طويلة . العمر المديد للإمبراطور المصطفى من الرب الذي يرشده المولى وسيرشده دائما . العمر المديد للإمبراطور ، الشجاع جدا ، الورع دائما . ابن الله ، احفظ ايسام امبراطورنا استجب لنا ، امنحه حياه طويلة ، نمى ايمان المسيحيين ، نمى قوة الرومان وجيوشهم ، نمى عدد انتصاراتهم ، نمى شجاعة شعب المسيح نحن العبيد المخلصون للإمبراطور . العمر المديد للاوتوقراطور العظيم جدا ، الامبراطور الذي منحه المسيح حكما طويلا . مولانا ، اعطى مائة عام من الحكم الهادىء للإمبراطور التقى».

وبانتهاء هذا اللحن ، انتهت احتفالات النصر ، ونهض الامبراطور من مكانه على المنصب واعتلى صهوة جواده ، وقفل عائدا إلى القصر الإمبراطورى ، بينما غادر جميع الحاضرين ساحة الاحتفال .

وفى الوقت الذى تلقى فيه البيزنطيون نبأ فتح كريت بكل هذا الفرح والاحتفال ، كان وقع نفس الخبر مختلفا تماما على الجماهير الإسلامية ، التي ما أن علمت به حتى صعقت واثارت وأعلنت عن سخطها . وقد ساق المؤرخ المسيحي يحيى الانطاكى - على سبيل المثال - صورة لما حدث فى مصر ، قال : « وورد الخبر بذلك (أى بسقوط كريت) إلى مصر يوم الجمعة ثمان خلون من السنة (٣٥٠ هـ) وهو يوم عيد العازر قبل الشعانين ، فتجمع فى الحال خلق من رعاع اهل مصر وعوامها ، وقصدوا ايضا كنيسة ميخائيل التي للملكية بقصر الشمع فشعثوها واخربوها خرابا عظيما ، ونهبوا جميع ما فيها ، ونهبوا كنيسة النسطورية وكنيسة مارثا ذرس ، وكنيسة مريم السيدة المعروفة بكنيسة البطريرك وشعثوها ايضا» (١) .

(١) يحيى الانطاكى : التاريخ ، ص ٨٤ - ٨٥ (طبعة باريز ١٩٢٤ م) .

ولكن ، رغم الغضب والسخط اللذين سادا بين جماهير المسلمين ، الا انهم لم يقوموا بأية محاولة من اجل استرداد كريت من قبضة البيزنطيين والواقع أن الظروف التي احاطت بالإمارات والدول الإسلامية المختلفة كانت هي المسئولة إلى حد بعيد عن هذا التهاون . فبالنسبة للخلافة العباسية ، فان احوالها السياسية لم تتح لها المشاركة في أى نشاط عسكري ضد العدو البيزنطى (١) اما الخلافة الفاطمية فكانت تستعد لمحاولة جديدة لفتح مصر ، هذا الفتح الذى استحوذ على اهتمامها ، ولم تسمح لأى شىء بان يباعد بينها وبين تحقيقه . وقد جرت محاولات سابقة فى هذا السبيل ، كان أولها فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣ - ٩١٤ م) ، حين ارسل الخليفة الفاطمى المهدي جيشا من افريقيه ، وعهد بقيادته إلى ابنه ابى القاسم ، الذى نزل بالإسكندرية واستولى عليها ، كما استولى على الفيوم وعدة بلاد اخرى . ولكن الخليفة العباسى المقتدر ارسل اليه جيشا بقيادة مؤنس الخادم ، فحارب الفاطميين واجلاهم عن مصر ، فعادوا مهزومين إلى المغرب (٢) .

وقد اعاد الفاطميون المحاولة فى العام التالى ٣٠٢ هـ (٩١٤ - ٩١٥ م) فارسل المهدي جيشا اخر اقوامه مائة ألف مقاتل ، على رأسه القائد حباسه بن يوسف ، وقد تمكن هذا الجيش من النزول بالأسكندرية ، حيث التقى بالجيش العباسى بقيادة مؤنس الخادم الذى انتصر عليهم بعد معارك متعددة قتل فيها من الفريقين اعداد كبيرة ، ويقال ان عدد القتلى من الجنود المغاربة بلغ سبعة الاف قتيل (٣) . وقد قامت الخلافة الفاطمية بمحاولتها الثالثة فى عام

(١) انظر ص ص ٢٣٨-٢٤٠ من هذا الفصل .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج١ ، ص ١٧١ ، ابن الاثير : الكامل ، ج٦٦ ، ص ١٤٧
ابن الابار ، : الحلة السيرة ، ج١ ، ص ١٩٢ .

(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج٣ ، ص ٣٦٨ .

٣٠٦ هـ (٩١٨ - ٩١٩ م) ، وتمكن ابو القاسم بن المهدي قائد الجيش الفاطمي من دخول الاسكندرية في ربيع الآخر من عام ٣٠٧ هـ (سبتمبر ٩١٩ م) فوجدها خالية بعد أن هجرها اهلها ، فاستباحها وكتب إلى ابيه الخليفة المهدي بالفتح ، وارسل ابو القاسم احد قادته ويدعى سليمان بن كافي بالجيش الفاطمية إلى الفيوم ، ففتحها بالسيف ، واقبلت العساكر من شمال افريقيا بعضها يتلو بعضها ، ثم انتقل ابو القاسم إلى الفيوم ونزل بالاشمونين في رجب ٣٠٧ هـ (ديسمبر ٩١٩ م) . وجي الاموال . لكن الخلافة العباسية ارسلت القائد ثمل بالأسطول الشامي ، فالتقى بالأسطول الفاطمي الراسي بمياه الاسكندرية وانتصر عليه ، وأسر العديد من المغاربة ، وبعد هذه الهزيمة عاد ابو القاسم بجيشه إلى برقة ثم إلى بلاد المغرب (١) .

ورغم فشل هذه المحاولات ، الا ان الخلافة الفاطمية لم تفقد الأمل في فتح مصر ، بل ظلت على اهتمامها بهذا الأمر ، وظلت تعبىء كل قواها العسكرية من اجل تحقيقه حتى تحقق بالفعل على يد القائد جوهر الصقلي ، وكان ذلك في عام ٣٥٨ هـ (٩٦٩ م) (٢) .

اما فيما يتعلق بالخلافة الأموية بالأندلس ، فقد وجد لديها هي الاخرى من الأسباب ما أعاقها عن محاولة استرداد كريت ، ففي الوقت الذي تم فيه الفتح البيزنطي لهذه الجزيرة في مارس ٩٦١ م (محرم ٣٥٠ هـ) ، كان الخليفة الأموي الناصر لدين الله يعاني من مرض خطير ألم به منذ صفر ٣٤٩ هـ (ابريل

(١) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٣ ، ص ١٩٦ ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٦ ،

ص ١٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ، ج ١ ، ص ١٨١ - ١٨٣ .

(٢) المقرئى : اتعاظ الخنفا باخبار الائمة الفاطميين الخلفاء ، نشر الشيال ص ١٤٨ ، ابن تغري

بردى : ، النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ ابن ابى دينار : الخلاصة النقية ، ص ٥٨

الكندى : ولاة مصر ، ص ٣١٥ .

٩٦٠ م) ولم يبارحه الا بعد أن قضى عليه في ٣ رمضان ٣٥٠ هـ (نوفمبر ٩٦١ م) (١) ، وقد خلفه ابنه الحكم بن عبد الرحمن الذي تلقب بالخليفة المستنصر ، وقد استلزم الامر أن يوجه هذا الخليفة جهوده في بداية حكمه إلى توطيد مركزه وتثبيت أقدامه على العرش خصوصاً في بلد كان أهله دائمى الثورة والتمرد كالأندلس ، وتحقيقاً لذلك قام بعدة غزوات في الاقاليم الاندلسية المختلفة (٢) . ثم ألم بالبلاد قحط عام وأعقبه مجاعة كبيرة وذلك في عام ٣٥٣ هـ (٩٦٤ م) شغل المستنصر بالقضاء عليها ومساعدة المحتاجين من جماهير شعبه (٣) . يضاف لذلك ماسبقت الاشارة اليه من أسباب تتعلق بتباعد الحدود بين الأمويين والبيزنطيين وما ترتب على ذلك من ابتعاد الأمويين عن المشاركة في الصراع الدائر بين البيزنطيين والمسلمين في المشرق (٤) ، لذلك كله فقد رأت الخلافة الأموية انه من الأفضل الاستمرار في العلاقات الودية مع بيزنطة ، ومن مظاهر هذا الود ان الخليفة المستنصر ارسل إلى الامبراطور البيزنطى (٥) ، يطلب منه ارسال الفسيفساء التى يحتاج اليها لتزيين المسجد الجامع بقرطبة ، وقد استجاب له الإمبراطور على الفور ، وارسل اليه في سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ثلاثمائة وعشرون قنطاراً منها هدية مع أحد الصناع البيزنطيين المهرة . وبعد أن أدى هذا الصناع مهمته بنجاح عاد إلى بيزنطة

-
- (١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٢٣ ، ٢٣٣ ، ابن الأبار : الحلة السبراء ، ج١ ، ص ١٩٧ .
- (٢) بشأن تفاصيل هذه الغزوات انظر ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٣٤ - ٢٣٦ .
- (٣) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٣٦ .
- (٤) انظر الفصل الثانى من هذا البحث ، صص ١٢٢-١٣٢
- (٥) لم يذكر ابن عذارى اسم الامبراطور الذى ارسله الخليفة الاموى المستنصر بالله ، وإنما اكتفى بالاشارة إليه باسم «ملك الروم» ، وقد حدد ابن عذارى تاريخ وصول الفسيفساء التى ارسلها الامبراطور البيزنطى إلى الاندلس سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، والمعروف ان الجالس على العرش البيزنطى آنذاك كان الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) .

« بعد أن أجزل له المستنصر الصلة والكسوة » ، وذلك على حد تعبير المؤرخ المغربي ابن عذارى (١) .

اما بالنسبة لمسلمي الشام ، الذين طالما تعاونوا مع اهالي كريت اثناء صراعهم مع الدولة البيزنطية وعلى الاخص في النصف الثاني من القرن التاسع والنصف الاول من القرن العاشر الميلاديين ، فانه لم تتح لهم الفرصة للقيام بأى دور فعال فى العمل على استرداد كريت ، اذ عاجلتهم الدولة البيزنطية بضربات متلاحقة ، افقدتهم القدرة على توسيع دائرة الصراع معها الى خارج حدودهم الإقليمية . فبعد أن تم الاحتفال بانتصار البيزنطيين واستعادتهم لكريت ، تحرك نقفور فوقاس نحو المشرق لاستئناف الحرب مع المسلمين على الجبهة الشرقية للأمبراطورية . والواقع ان فتوحات نقفور فوقاس فى المشرق الإسلامى ، سواء وهو قائد ، او بعد اعتلائه للعرش الامبراطورى من الموضوعات الهامة التى تحتاج لمعالجة موضوعية كبيرة (٢) ، ونظرا لأنها ليست الموضوع الأساسى فى هذا البحث ، ولا يتسع المجال لايفائها حقها من المعالجة ، لذلك فسنعرض لها بإيجاز وتركيز شديد يفيان بالغرض المقصود منها ، وهو ايضاح الظروف التى عرضت للمسلمين بالمشرق وقتذاك وحالت بينهم وبين العمل على استرداد كريت من يد البيزنطيين .

وجدير بالذكر ، أن معظم الجهود العسكرية لنقفور فوقاس قد تركزت فى هذه المرحلة فى قيليقية وشمال الشام ، وهى المناطق التابعة آنذاك لسيف الدولة بن حمدان ، حاكم امارة حلب ، وذلك رغبة منه فى كسر شوكة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ، ص ٢٣٧ - ٢٣٨ .

(٢) من أحسن البحوث التى كتبت فى هذا الموضوع ، كتاب الأستاذ الدكتور عمر كمال توفيق «الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة» الاسكندرية ١٩٥٩ .

هذا الأمير المسلم الذي حمل لواء الجهاد ضد البيزنطيين في وقت شغل فيه كل حاكم من حكام المشرق الإسلامي بمشاكله وخصوماته مع جيرانه المسلمين ، عن مواجهة المشكلة الكبرى الخاصة بزحف النفوذ البيزنطي على هذه المناطق الحيوية .

ففي أواخر عام ٩٦١ م (٣٥٦ هـ) سار نقفور على رأس جيوشه ونزلوا بقلقية حيث هاجموا مدينة عين زربة ، وفرضوا الحصار عليها ، فأرسل سيف الدولة جيشا بقيادة والي طرسوس رشيق النسيمي لانقاذها من حصار البيزنطيين ، ولكن نقفور قضى على هذه الحملة وانزل الهزيمة بهذا الجيش ، ويقال ان عدد القتلى من المسلمين بلغ خمسة آلاف ، كما اسر البيزنطيون اربعة آلاف اخرى (١) . وواصل نقفور حصاره للمدينة حتى استسلم له الأهالي في فبراير ٩٦٢ م (المحرم ٣٥١ هـ) ، بعد ان وعدهم بالأمان ، ثم نقض وعده ، وامرهم بمغادرة المدينة على الفور ، فلبوا اوامره (٢) . ويذكر ابن الاثير ان نقفور ظل واحد وعشرين يوما في اقليم قيليقية استولى اثناءها على ٥٤ حصنا من حصون المسلمين (٣) . ثم سار نحو شمال الشام فاستولى على بعض الحصون مثل رعبان ودولوك ومرعش ومنبج (٤) ، وبعدها غادر نقفور اراضي المسلمين وعاد إلى العاصمة البيزنطية ليقضى بها فترة الصيام وبعد رحيله شغل المسلمون باسترجاع كل ما استولى عليه من الحصون ، كما

(١) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٨ (طبعة بيروت ١٩٠٥) ابن العديم : زبدة الحلب ، في تاريخ حلب ج ١ ، ص ١٣٢ .

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢ .

(٤) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٨ (طبعة بيروت ١٩٠٥) ، ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٣٢ . راجع ايضا :

C.M.H , vol V, p 83, pp. 144—145.

اعاد سيف الدولة بناء عين زربة بعد التخریب الذي لقيته على يد القوات البيزنطية (١) .

وفي ديسمبر من عام ٩٦٢ م (ذى القعدة ٣٥١ هـ) قام نقفور فوقاس بحملة جديدة على شمال الشام ، وكان هدفه هذه المرة مدينة حلب مقرر سيف الدولة وعاصمة امارته ، ولم يكن سيف الدولة في حالة استعداد تمكنه من منازلة البيزنطيين ، اذ كان قد ارسل غلامه نجبا على رأس جيشه للأنقضا ض على الجيش البيزنطي ، ولكن نجبا سلك طريقا غير الطريق الذي سلكته القوات البيزنطية فلم يقدر له لقاءهم . لذلك اضطر سيف الدولة لمواجهة البيزنطيين في معركة لم يستعد لها ، فحلت به الهزيمة وانسحب إلى قنسرين ، وقد استولى نقفور على قصر سيف الدولة وكان خارج مدينة حلب واستحوذ على جميع ماحواه القصر من ذخائر وأموال (٢) . ثم نزل نقفور بقواته على مدينة حلب وفرض الحصار عليها ، وقد أبدى الأهالي بها شجاعة نادرة في الدفاع عن مدينتهم مما اضطر البيزنطيين إلى التقهقر والانسحاب حتى جبل جوشن الذي يقع إلى غربي المدينة ، على ان الفتنة سرعان ما اندلعت في حلب ، فترك الأهالي اماكنهم على السور ولحقوا بمنازلهم ليحفظوها من النهب . وقد اتاح ذلك للبيزنطيين الفرصة كي يتسلقوا الأسوار ويفتحوا بوابات المدينة ويقتحموها حيث اعملوا الذبح والتقتيل في الأهالي ، واستحوذوا على غنائم هائلة ، ثم انسحبوا منها بعد أن ظلوا بها لمدة ستة أيام ، لم ينجحوا خلالها في الإستيلاء على القلعة التي ظلت بيد المسلمين ، وبعد مغادرة نقفور لحلب في ٣١ ديسمبر

(١) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٥ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٣٤ ، - ١٣٥ ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، ص ١٩٥ ، حاشية رقم (١) ، ابن الاثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٣ .

٩٦٣ م (ذى القعدة ٣٥١ هـ) اتخذ طريقة إلى القسطنطينية ، وكان ذلك نهاية المرحلة الأولى في سلسلة صراعه مع المسلمين في الشام (١) .

وقد تطورت الأمور في بيزنطة بشكل ادى إلى اعتلاء نقفور فوقاس للعرش البيزنطى ، ففي ١٥ مارس ٩٦٣ م ، توفى الإمبراطور رومانوس الثانى ، وخلف ولدين صغيرين هما باسيل الذى كان يبلغ من العمر آنذاك خمس سنوات ، وقسطنطين وكان فى الثانية من عمره . ولما كان لا بد من قيام وصى على الطفلين القاصرين ، يتولى تصريف شئون الإمبراطورية ، فقد طمع نقفور فى ان يكون هو ذلك الوصى ، ولم يلبث ان نادى به جنوده امبراطورا فى ٢ يوليه ٩٦٣ م ، فى مدينة قيصرية فى قبادوقيا ، ثم تم تتويجه بعد ذلك رسميا فى القسطنطينية . ولكى يؤمن نقفور منصبه ويضفى عليه الصبغة الشرعية ، تزوج من ارملة الإمبراطور الراحل ووالدة الإمبراطورين الطفلين الشابه الجميلة ثيوفانو Theophano (٢)

وقد أكمل الامبراطور نقفور فوقاس فتوحاته فى قيليقية وشمال الشام ، تلك الفتوحات التى بدأها وهو قائد ، ففي شهر يوليه من عام ٩٦٤ م (رجب ٣٥٣ هـ) قام بحملة على المسلمين استعاد خلالها مدينة عين زربة وفتح أدنه ثم انتقل إلى طرسوس والمصيصة فحاصرها ونظرا لحصانة المدينتين فقد طال أمد الحصار ، ولما حل فصل الشتاء ترك نقفور شقيقه ليون فوقاس امام طرسوس وامره بالاستمرار فى حصارها ، كما ارسل بفصائل من الجيش

(١) ابن العديم : زبدة الحلب ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١١٩ طبعة بيروت ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، ص ١٩٢ - ١٩٣ ، ابن الاثير : انكامل ج ٧ ، ص ٣ .

(٢) عمر كمال نوفيقي : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ١٤ .

لتعزيز حصار المصيصة ومنع وصول أي مؤن أو امدادات إليها ، اما نقفور فقد عاد إلى قلعة دروزو Diozio بآسيا الصغرى ليقضى بها فصل الشتاء (١) . وفي ١٣ يوليه ٩٦٥ م (٧ جمادى الثاني ٣٥٤ هـ) ظهر نقفور من جديد في قيليقية واتجه إلى المصيصة ونجح في اقتحامها بعد أن انهكت المدينة من المجاعة وانتشار الأمراض (٢) . وقد تعرض اهاليها للقتل والأسر ، ويقال ان عدد الأسرى الذين ارسلهم نقفور إلى القسطنطينية من اهالى هذه المدينة بلغ نحو الف شخص (٣) . ثم انتقل نقفور إلى طرسوس واجتمع بشقيقه ليون وقواته وواصلوا حصارها ، فطلب اهلهما التسليم فأجابهم نقفور إلى ذلك وعاملهم بلطف ثم امرهم بمغادرتها فلبوا أوامره (٤) .

وفي خريف عام ٩٦٦ م (٣٥٥ هـ) قام نقفور بحملة جديدة على المسلمين بالشرق فهاجم بعض البلاد الجزرية وهي آمد ودارا ونصيبين وقتل وأسر الكثيرين من اهالى هذه البلاد ، ثم نزل على شمالى شرق الشام ، وحاصر منبج وطلب من اهلهما تسليمه قريضة السيد المسيح ، وحين اجابوه إلى طلبه رفع الحصار عنها ولم يعرض لهم بمكروه . واستولت قواته على قافلة وارادة من ميفارقين ، ثم نزل على وادى بطنان واسر عددا من الأهالى ، وفتح تيزين وحصن ارتاح الواقع بين حلب وانطاكية ، وبذلك اصبح في موقف يسمح

(١) كيدرینوس : ص ص ٣٦١ - ٣٦٢ . باليونانية .

Zonaras : Liber XVIII, pp. 501—502

(٢) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ١٣ .

(٣) ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص ٢٣ ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) كيدرینوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ . باليونانية .

Zonaras, p 502

انظر كذلك : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٧ ، ص ١٣ ، ابن مسكويه : تجارب الامم ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

له بتهديد البلدين . وقد اتجه نقفور إليها وحاصرها سبعة ايام خرب خلالها
الأراضي المجاورة لها ، ثم رفع الحصار وعاد إلى القسطنطينية نظرا لاقتراب
فصل الشتاء (١)

وقد استأنف نقفور عملياته العسكرية ضد المسلمين في خريف عام ٩٦٨ م
(٣٥٧ هـ) فخرج على رأس جيش كبير بلغ نحو ثمانين ألف مقاتل وكان
هدفه الرئيسي من هذه الحملة هو فتح مدينة انطاكية . وقد اتخذ نقفور طريقه
في ديار مصر ، ونازل أرزن وكفرتوثا ونكل بأهالي هذه البلاد ، ثم اتجه إلى
أنطاكية فابدى الأهالي بها مقاومة شجاعه ، اضطرت نقفور إلى الرحيل من
أمامها بعد ان هددهم بالعودة والاستيلاء على مدينتهم ، ثم نزل على معبرة
مصرين واسرا أهلها وفتح معبرة النعمان وكفر طاب وشيزر وحماه وحمص
واتجه إلى طرابلس على ساحل الشام ، وخرب اراضيها وحاصر مدينة عرقة
وافتحها ثم انتقل إلى البلاد الساحلية ففتح حصون انطرسوس ومرقية وحاصر
اللاذقية ، ولكن أهلها دفعوا اليه مبالغ كبيرة من المال وعقدوا معه صلحا
مقابل رفع الحصار ، فأجابهم إلى طلبهم وعاد إلى انطاكية حيث فرض
الحصار عليها (٢). ولما كان الشتاء وشيكا فقد رجع عن المدينة وأجل مهاجمتها
للعام التالي ، وقام بتشييد حصن على مكان مرتفع في مواجهة انطاكية وعهد
إلى ميخائيل بورتزيس — وهو المعروف لدى المؤرخين المسلمين باسم البرجي —
أمر الاشراف عليه ومراقبه انطاكية ، ومنع وصول اية مؤن او ذخائر حربية
إلى أهلها ، اما بقية الجيش البيزنطي ، فقد اسند قيادته إلى بطرس فوقاس

(١) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٢٧ . (طبعة بيروت) ، ابن الاثير : الكامل ، ج ٧ ، ص

١٩٠ . راجع كذلك : عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس ، ص ٢٧ — ٣٤ .

(١) يحيى الانطاكي : التاريخ ، ص ١٣٠ — ١٣١ ، انظر ايضا : عمر كمال توفيق . الامبراطور

نقفور فوقاس ، ص ٣٥ — ٣٦ ، سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، ج ١ ، ص ٦٢ .

الذي يذكره المؤرخون المسلمون باسم الطربازي — وامره نقفور بأن يعسكر في قيليقية لقضاء فترة الشتاء بها أما هو فعاد إلى القسطنطينية (١). واثناء مراقبة بورتزيس لأنطاكية سئحت له الفرصة للاستيلاء عليها ، وبمساعدة بطرس فوقاس تمكنت القوات البيزنطية من اقتحام المدينة في ٢٨ أكتوبر ٩٦٩ م (١٤ ذى الحجة ٣٥٨ هـ) (٢). وكان ذلك آخر انتصار حققه نقفور فوقاس ، اذ لم يلبث أن لقي مصرعه في ١٠ ديسمبر ٩٦٩ م على يد جماعة من المتآمرين على رأسهم يوحنا تزييمسكس ، الذي خلفه على عرش الإمبراطورية البيزنطية (٣) وهكذا لم تترك الدولة البيزنطية للمسلمين في المشرق ، الفرصة للعمل على استرداد كريت ، بل لاحقتهم بالحروب المستمرة ، التي أثقلت كاهلهم واخذوا يرزحون تحت وطأتها ، ويطلبون لأنفسهم الخلاص منها .

ومن هذا العرض للظروف التي ألمت بالقوى الإسلامية المختلفة في أنحاء العالم الإسلامي ، يتضح ان كل طرف من اطرافها قد شغل بمشاكله وظروفه المحلية ، مما اتاح الفرصة لبيزنطة لاحكام قبضتها على كريت ، وتأكيد سيطرتها عليها . وبذلك وضعت هذه الخاتمة المؤلمة للمحنة البطولة التي خط سطورها فئة من المسلمين اتخذوا من الجهاد في سبيل الله طريقا لحياتهم .

(1) Zonaras, Liber XVIII, pp. 508—509

راجع كذلك .

Ostrogorsky, op cit., p. 257; Vasiliev, Histoire de l'empire Byzantine p. 408.

(٢) كيدر ينوس ، موجز التاريخ ، ص ٣٦٦ — ٣٦٧ . باليونانية .

(٣) هذا وقد اكمل الامبراطور يوحنا تزييمسكس (٩٦٩ — ٩٧٥ م) الفتوحات البيزنطية في المشرق الاسلامي ، فقام بعدة حملات في هذا السبيل ، وبشأن التفاصيل الخاصة بها انظر ، عمر كمال توفيق مقدمات العدوان الصليبي ، « الامبراطور يوحنا تزييمسكس وسياسته الشرقية الاسكندرية ، ١٩٦٦ .

الحاشية

أستعرضنا في هذا البحث الدور الذي قام به مسلمو كريت في الصراع البيزنطي الإسلامي في العصور الوسطى ، وفي تقييم هذا الدور يمكن القول أنهم ساهموا الى حد كبير في القضاء على السيادة البحرية البيزنطية على الجزء الشرقى من حوض البحر الأبيض المتوسط ، تلك السيادة التي استمرت قبل ذلك قرونا عديدة بلا منازع . كما ساعدوا كذلك على ارساء قواعد السيطرة البحرية الإسلامية على هذا الجزء الهام من عالم العصور الوسطى - ويؤكد المؤرخ أرشيبالد لويس هذه الحقيقة بقوله : «بدأ عهد جديد في التاريخ البحرى البيزنطى فى البحر المتوسط باغارة المسلمين على صقلية ثم باستيلائهم على كريت عام ٨٢٧ م ، وانتهى بهذين الحادثين أيضا عهد العجز عن تحدى الإمبراطورية وأخذت السيطرة على البحر المتوسط تنتقل إلى المسلمين الذين انتشروا على الشواطئ الجنوبية لذلك البحر ، من جبال طوروس حتى جبال البرانس ولم يتم هذا التغيير كله دفعة واحدة ، بل ظلت لحكام القسطنطينية سيطرة على بعض القوات البحرية الهامة ، كما أنهم ظلوا يكافحون ببسالة ضد أعدائهم المسلمين فى شرق البحر وغربه وحاولوا استعادة كريت بأرسال الحملة تلو الحملة لطرد القرصان المسلمين من ارض الجزيرة ، ولكنهم كانوا - فيما عدا فترات محدودة - فى موقف المدافع لا المهاجم ، كما أن ما أخفقوا فيه يرجح كثيرا ما حققوه ، وعلى هذا لم يأت القرن العاشر الميلادى الا وقد انتقلت السيادة الكاملة فى البحر المتوسط لأعدائهم المسلمين» (١)

والواقع أن الآثار المترتبة على استيلاء المسلمين على كريت لم تقتصر على البحار الشرقية وانما تعدتها إلى المساس بمركز بيزنطة فى الغرب ، فان انشغالها الدائم بموضوع كريت ، وما سببه لها المسلمون بها من مشاكل ومضايقات

(١) لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٢١١ .

مستمرة ، وعلى الأخص في بحر ايجه ، كان من العوامل الهامة التي أدت إلى تعريض مركزها في صقلية وجنوب إيطاليا للخطر ، اذ كان من العسير على بيزنطة أن تحارب أعداءها المسلمين في الشرق والغرب في وقت واحد. ليس ذلك فحسب ، بل لقد مست هذه الآثار كذلك علاقات الدولة البيزنطية بجيرانها البلغار والروس ، وقد مر بنا كيف استغل اولئك وهؤلاء الهزائم التي أوقعها مسلمو كريت بالدولة البيزنطية لكسب الإمتيازات على حسابها إلى حد استقطاع اجزاء من اراضيها (١) .

هذا ولم يؤثر وقوع كريت في يد المسلمين على مركز بيزنطة السياسي فقط ، بل كانت له آثاره كذلك على مركزها الاقتصادي ، بعد أن فقدت هذه الجزيرة التي لعبت دورا هاما كطريق تجاري لنقل البضائع بين الشرق والغرب . ذلك أن طريق التجارة المألوف بين الشرق والغرب كان الطريق المار بكريت وقبرص وعلى طول الساحل الجنوبي لاسيا الصغرى . وهناك طريق آخر هو الطريق المباشر بين كريت والإسكندرية (٢) . وكانت بيزنطة تجبي مكوسا هائلة من السفن التجارية المارة بهذين الطريقين نتيجة لحصارها المحكم واشرافها الدقيق عليها ، وكان في استطاعة القوة البحرية البيزنطية أن أن تقف في وجه التجارة الزاهية إلى المغرب أو إلى مصر وسورية وشمال أفريقية ، واذا أمكن لسفينة تجارية أن تفلت من هذا الحصار عند مكان ما ، فهناك اماكن أخرى يمكن منعها من الأفلات للمرة الثانية (٣) . وباستيلاء

(١) انظر الفصل الثالث من هذا البحث ص ص ٢٠١-٢٠٢ .

(٢) لويس : القوى البحرية والتجارية ص ١٤٢ .

(٣) لويس : نفس المرجع ص ١٤٢

المسلمين على كريت وسيطرتهم على المضائق البحرية الهامة ، انهارت السيادة البيزنطية على طرق التجارة في شرق البحر الأبيض المتوسط ، مما أدى إلى الاضرار بمركز بيزنطة الاقتصادية .

والجدير بالذكر ، أنه رغم الدور العظيم الذي قام به مسلمو كريت في النضال ضد العدو البيزنطي لفترة تزيد على القرن من الزمن ، وما أنزلوه به من خسائر عسكرية واقتصادية ، إلا أن عددا من المؤرخين وخاصة الغربيين منهم (١) ، قد حرصوا على اصفاء صفة القرصنة (٢) على الأعمال البطولية

(١) انظر المراجع التالية :

Brehier, Vie et mort de Byzance, p. 149; Finlay, History of Grèce vol 11, p. 251; Schlumberger, Un Empereur Byzantin, p. 33; Vas'liev, Histoire de l'empire Byzantin, tome I, p. 367; Bloy, Constantinople et Byzance, pp. 17—20.

راجع كذلك ، فازيليف ، العرب والروم ، ص ١٨٧ ، لويس ، القوى البحرية البيزنطية ص ٢١١ وما بعدها .

هذا وقد تأثر بهم بعض المؤرخين المسلمين انظر على سبيل المثال : العربي : الامبراطورية البيزنطية ص ٣٦٨ ، ص ٣٦٩ ، عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصري ص ص ١٦ ، ٢٤ و ٢٥ .

(٢) لقد انتشرت القرصنة في حوضي البحر المتوسط الشرق والغرب منذ منتصف القرن التاسع الميلادي ، وكانت جماعات القراصنة تتكون من جنسيات مختلفة ، فكان بينهم أعداد كبيرة من أهالي إيطاليا والبلقان وجنوبي فرنسا والمغرب ، وكانت الشواطئ الأوروبية للحوضين الشرق والوسط للبحر المتوسط حافلة بمراكز القراصنة المسيحيين الذين كانوا لا يفرقون بين البلاد الاسلامية والمسيحية ، فكانوا يغزون سواحل الدولة البيزنطية وسواحل إيطاليا والاندلس ويروعونها ويقول المؤرخ الفرنسي ليني بروفنسال : «وكانت مهاجمة السفن في البحر وأسر من فيها ثم المساومة على فدائهم ، امر لا دخل فيه للملوك نصارى كانوا أو مسلمين ، ولم يكن هؤلاء وأولئك ليهتموا بنزول القرصان على شواطئ ممتلكاتهم إلا في الحالات التي يصبح فيها هذا النزول خطرا على أراضيهم ، وكان لابد في هذه الحالة أن يكون لديهم من القوة ما يستطيعون به مدافعة أولئك الطغاة ولكن الغالب أن عبيء هذه المدافعة كان ملقى على كواهل سكان الشواطئ أنفسهم» انظر مقالة الاستاذ الدكتور حسين مؤنس في المجلة التاريخية المصرية تحت عنوان «أثر ظهور الاسلام في البحر الأبيض المتوسط» المجلد الرابع العدد الأول ، مايو ١٩٥١ ص ١٢٨ . راجع كذلك عن القرصنة كتاب لويس : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط مواضع متفرقة من الكتاب .

التي قامت بها هذه الفئة من المسلمين . ولا شك ان اصرارهم على ذلك لا يخلو من روح التعصب ، اذ المعروف أن قراصنة المسلمين كانوا شيئاً آخر غير المجاهدين الذين كانوا يغزون النصارى بدافع ديني (١) وكان مسلمو كريت من هذه الفئة الأخيرة ، أي فئة المجاهدين . فقد ثبت في أكثر من موضع من هذا البحث مما رستهم للجهاد ضد البيزنطيين ، يضاف لذلك أنهم قد مارسوا مع الدولة البيزنطية حرباً بحرية وبرية منظمة لا يعرفها القراصنة (٢) . كما أنه لم يأت في أي مصدر عربي أو بيزنطي إشارة إلى أية غارة قام بها المسلمون بكريت ضد ساحل من السواحل الإسلامية ، مثلما كان يفعل القراصنة المسلمون والمسيحيون الذين كانوا يغزون على البلاد الإسلامية والمسيحية على السواء ، ودون تفرقة أو تمييز (٣) وكان هدفهم الأول والأخير هو الحصول على الغنائم والاسلاب ، لا يهتمهم مصدرها ، ولا لمن تنتمي ، وسواء أكان أصحابها ممن يتفقون أو يختلفون معهم في العقيدة الدينية بل على العكس من ذلك ، قام المسلمون بكريت بدور المدافع عن السواحل الإسلامية في شرقي البحر المتوسط ضد غارات البيزنطيين ، كما أنهم حرصوا على مساندة القوى الإسلامية المختلفة ، أثناء صراعها مع العدو البيزنطي (٤) .

وان كان هؤلاء المؤرخون المذكورون قد اتخذوا من أعمال التخريب والسلب والأسر التي قام بها مسلمو كريت في الأراضي البيزنطية ، دليلاً يبيح لهم نعتهم بالقراصنة ، فانه يمكن القول أن هذه الأعمال لا تتنافى مع احكام

(١) انظر مقالة الدكتور حسين مؤنس سالفه الذكر ، ص ١٢٧

(٢) انظر مثالا للحرب البحرية المنظمة في الفصل الثالث من هذا البحث وهو الخاص بفتح مدينة سالونيك ومثالا آخر للحرب البرية المنظمة في الفصل الرابع ، ص ٢٥٩

(٣) انظر مقالة الدكتور حسين مؤنس في المجلة التاريخية المصرية ، ص ١٢٦ ، ص ١٢٨ .

(٤) تمت الإشارة في الفصل الثاني من هذا البحث إلى اشتراك الاسطول الكريتي في فتح صقلية ، انظر ص ١٠٦ .

الجهاد الإسلامى حيث أن الدين الحنيف قد أباح للمجاهد الاستيلاء على غنائم وأسلاب عدوه ، وهناك روايات عديدة تروى عن الرسول عليه السلام ، وكلها تبيح للمسلمين المجاهدين للحصول على الغنائم من أعدائهم (١) . وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل المجاهد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يجاهد فى سبيله ، كمثل الصائم القائم ، وتوكل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة ، أو يرجعه سالماً مع أجر وغنيمة » (٢) .

وهكذا يتضح أن الجهاد الدينى ، لا يتنافى مع اكتساب المغنم ، وتخريب المواقع ، وأسر الأعداء ، وإن الحكم على هذه الأعمال يتوقف على وجهة النظر المتعصبة أو المنصفة .

أما عن النتائج اللى ترتبت على استرجاع بيزنطة لكريت فى عام ٩٦١ م / ٣٥٠ هـ فبقدر ما كانت شديدة الأهمية بالنسبة للجانب البيزنطى ، فإنها فى نفس الوقت كانت خطيرة على المسلمين ، بعد أن فقدوا هذه الجزيرة التى كانت من أهم نقط الارتكاز البحرية للمسلمين فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، والتى كان لها دور فعال فى حماية سواحل المشرق الإسلامى ، وعلى الأخص إقليم مصر من عدوان البحرية البيزنطية ، والتى لعبت دوراً هاماً فى عرقلة النشاط العسكرى البيزنطى ضد إقليم الشام ، حتى أن بيزنطة لم تنجح فى تحقيق انتصاراتها وفتوحاتها العديدة فى هذا الإقليم فى النصف الثانى من القرن العاشر الميلادى ، إلا بعد فرض سيطرتها على كريت فى عام ٩٦١ م . وقد ترتب على سقوط كريت فى يد البيزنطيين أن أصبح الطريق مفتوحاً أمامهم لغزو جزير

(١) انظر صحيح مسلم ، الجزء السادس ، ص ١٤٧ - ١٥٦ .

(٢) الشافعى : فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٦ ، ص ٥ - ٦ .

اقبرص في عام ٩٦٥ م / ٣٥٤ هـ واخراجها من دائرة النفوذ الإسلامي ، بعد أن ظلت في يد المسلمين لمدة سبع وسبعين عاما (١) . كما مكن اللبولة البيزنطية كذلك من اعادة الأمن والسلام إلى منطقة البحر الإيجي ، والعمل على تأمين طرق مواصلاتها البحرية في المياه الشرقية لحوض البحر الأبيض المتوسط و كان ذلك تدعما حيويا للسيادة البحرية البيزنطية ، بعدما تعرضت للخطر زمنا طويلا من جانب جزيرة كريت الإسلامية .

(١) تم استرداد بزنطة لجزيرة قبرص في عهد الامبراطور نقفور فوقاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) الذي أرسل عليها حملة بحرية بقيادة البطريق نقيثاس ، انظر المصدر التالي :

راجع أيضا :

Ostrogorsky, History of the Byzantine State, p. 257; Finlay History of the Byzantine Empire p. 307.

الملاحق

الملحق رقم (١)

الرسالتان المتبادلتان بين الامبراطور ثيوفيل والخليفة المأمون

من ابرز الأحداث في التاريخ البيزنطى خلال عهد الإمبراطور ثيوفيل ، الحروب ضد الدولة العباسية ، التى كان مسرحها اقليم آسيا الصغرى ، والتى حقق فيها العباسيون انتصاراتهم العديدة على الدولة البيزنطية . وخلال الصراع الذى اشتغل بين ثيوفيل والخليفة العباسى المأمون ، وبعد أن ادرك الإمبراطور البيزنطى التفوق العسكرى للجانب العباسى ، ارسل للخليفة المأمون هذه الرسالة بلىتمس منه فيها قبول العرض الذى سبق ان تقدم به لأقرار السلام ، واحلال الهدنة بينهما ، كما عرض عليه تبادل الاسرى ، وتأمين طرق المواصلات بين الدولتين ، وحرية التجارة بين المسلمين والبيزنطيين . على أن رد الخليفة المأمون جاء مخيبا لآمال الامبراطور ثيوفيل فى الصلح والهدنة ، اذ اشترط لقبول عرض الامبراطور شروطا قاسية كان من العسير على الجانب البيزنطى قبولها ، وهى دعوة الامبراطور ثيوفيل ورعاياه لأعتناق الدين الإسلامى الحنيف ، فان أبى ، فعليه ان يدفع الفدية للخليفة العباسى وقد رفض الامبراطور قبول شروط المأمون ، لذلك فقد اشتعلت الحرب بين الطرفين من جديد ، وواصل العباسيون انتصاراتهم على الدولة البيزنطية حتى تم لهم فتح مدينة عمورية مسقط رأس الأسرة العمورية الحاكمة فى بزنطة .

نص رسالة ثيوفيل (١)

..... اما بعد ، فان اجتماع المختلفين على حظهما اولى . بهما فى الرأى مما عاد بالضرر عليهما ، ولست حريا ان تدع الحظ يصل إلى غيرك حظا تحوزه إلى

(١) انظر نص رسالة ثيوفيل إلى المأمون فى ، الطبرى : تاريخ الام والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣

نفسك ، وفي علمك كاف عن اخبارك . وقد كنت كتبت اليك داعيا إلى المسالمة ، راغبا في فضيلة المهادنة ، لتضع اوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق ، والقسح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق . فان ابيت ، فلا ادب لك في الحمر ، ولا ازخرف لك في القول ، فاني لخائض اليك غمارها ، آخذ عليك اسدادها ، شأن خيلها ورجالها ، وان افعل فبعد ان قدمت المعذرة ، واقمت بيني وبينك علم الحجة والسلام .

نص رد المأمون (١)

. . . . أما بعد ، فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة ، ودعوت اليه من الموادعة ، وخلطت فيه من اللين والشدة ، واستعطفت به من شرح المتاجر واتصال المرافق ، وفك الاسارى ، ورفع القتل والقتال . فلولا ما رجعت اليه من اعمال التؤدة والأخذ بالخط في تقليب الفكرة ، والا اعتقد الرأى في مستقبله الا في استصلاح ما أوثره في معتقه ، لجعلت جواب كتابك لخيلنا تحمل رجالا من اهل البأس والنجدة واليصيرة ، ينازعونكم عن ثكلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم ، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ثم اوصل اليهم الأمداد ، وابلغ لهم كافيا من العدة والعتاد . هم اظماً إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة ، من مخوف معرفتهم اليكم ، موعدهم احدى الحسينين ، عاجل غلبة ، أو كريم منقلب . غير أنى رأيت ان اتقدم اليك بالمواظبة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك الى الوحدة والشرعية الحنيفية ، فان ابيت ، ففدية توجب ذمة وتثبت نظرة ، وان تركت ذلك ، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما تغنى عن الابلاغ في القول ، والاغداق في الصفة ، والسلام على من اتبع الهدى .

(١) انظر نص الرسالة التي رد بها الخليفة المأمون على الامبراطور ثيوفيل في المصدر التالى ، الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، ج ١٠ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

ملحق رقم (٢)

كتاب الأمير عبد الرحمن الثاني إلى الإمبراطور ثيوفيل

ان الباحث في تاريخ العلاقات البيزنطية الإسلامية ، لا يخفى عليه ، العلاقات الودية التي ربطت بين الدولتين البيزنطية والأموية بالأندلس ، وكانت هذه العلاقات احد الدوافع الرئيسية التي حدثت بالإمبراطور البيزنطي ثيوفيل ، إلى التوجه للأمير الأموي عبد الرحمن الثاني ، يشكو اليه من الضربات العنيفة التي لحقها به مسلمو كريت نتيجة لغاراتهم المستمرة على الممتلكات البيزنطية ، وكذلك الهزائم العديدة التي انزلها به العباسيون في آسيا الصغرى ويطلب اليه ان يعقد بينها حلف ضد العباسيين وضد امارة كريت الإسلامية وقد رد عليه الأمير الأموي بهذا الكتاب الذي نحن بصدد معالجته .

والملاحظ ان الإمبراطور ثيوفيل قد استغل العداء القائم بين الأمويين والعباسيين من ناحية ، وبينهم وبين مسلمي كريت من الناحية الأخرى ، لأقناع الأمير الأموي بقبول اقتراحه لعقد حلف بينهما ضد العدو المشترك لكليهما . وبالنسبة للعباسيين ، فهم الذين اسقطوا الخلافة الأموية في المشرق في عام ١٤٢ هـ (٧٤٨ - ٧٤٩ م) بعد حروب عنيفة بينهم وبين مروان بن محمد بن مروان بن الحكم (١) ، اخر الحلفاء الأمويين ، وانتهى الأمر بقتلهم له ، واحتزت

(١) كان الخليفة مروان يكنى ابا عبد الملك ، وبويع للخلافة بمدينة دمشق في ١٤ صفر ١٢٧ هـ (منتصف نوفمبر ٧٤٤ م) وقيل انما بويع بمدينة حران بديار مصر ، وقتل بقرية بوضير من قرى الفيوم بأقليم مصر ، وذلك في أول سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩ م انظر ، المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ، ج٢ ، طبعة بولاق ، ١٢٨٣ هـ ص ١٥٥ .

رأسه ، وأرسلت إلى ابو العباس السفاح (١) ، اول الخلفاء العباسيين ، ولم يكتف العباسيون بذلك ، بل نكلوا بأهل هذا الخليفة ، وطاردهم في كل مكان (٢) . ومنذ سقوط الخلافة الأموية والأمويون يرغبون في استعادة ممتلكاتهم السابقة ، واعادة بناء صرح الخلافة الأموية الذي انهار بالمشرك .

اما بالنسبة لمسلمي كريت ، فهم الرعايا السابقين للأمويين ، الذين ثاروا على السلطات في الأندلس في ١٣ رمضان عام ٢٠٢ هـ (٢٥ مارس ٨١٨ م) ، وانتهى الأمر بطردهم من البلاد ، ثم نزولهم بمدينة الأسكندرية ومشاركتهم في أحداثها السياسية ، حتى خروجهم منها في عام ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) وفتحهم لجزيرة كريت . ويعتبر كتاب الأمير الأموي عبد الرحمن الثاني ، للإمبراطور ثيوفيل ، وثيقة تاريخية هامة ، تؤكد ان هذه الجزيرة كانت تدين بالولاء السياسي للدولة العباسية ، وليس للدولة الأموية بالأندلس ، كما ذكر بعض المؤرخين (٣) .

ورغم ان الأمير عبد الرحمن قد رحب باقتراح الإمبراطور ثيوفيل الخاص بعقد تحالف بينهما ، وأبدى استعداده لقبوله ، الا ان الأحداث التي تعرضت لها كل من الدولتين الأموية والبيزنطية في الفترة التالية ، لم تتح للطرفين الاستمرار في المفاوضات الخاصة بهذا المشروع ، فأهمله الجانبان ، وبذلك قضى عليه بصفة نهائية .

(١) هو عبدالله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ، بويع للخلافة في ١٣ ربيع ، الآخر سنة ١٣٢ هـ (نوفمبر ٧٤٩ م) ، وقيل في النصف من جمادى الآخرة من نفس السنة وتوفي في ١٢ ذى الحجة ١٣٦ هـ (يونيه ٧٥٤ م) . وعمره آنذاك ثلاث وثلاثين سنة . انظر المسعودي ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) انظر تفاصيل الحروب بين العباسيين والخليفة مروان بن محمد وماارتبط بهذه الحروب من أحداث في المصدر التالي ، المسعودي : مروج الذهب ، ج٢ ، ص ص ١٥٧ - ١٦٤ .

(٣) انظر ، نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٣ . وراجع كذلك الفصل الاول من هذا البحث ، ص ٩٢ ، حاشية رقم (٣) .

نص الكتاب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ، فقد بلغني كتابك تذكر فيه الذي كان عليه من مضي منكم
لأولينا من المودة الصادقة ، وانه قد دعاك ذلك إلى مكاتبتنا ، وارسال
قرطوس رسولك إلينا لتجديد تلك المودة ، وترتيب تلك المصادقة ، وتسأل
ان ينقذ فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به ونتواصل له ، ونبعث رسلا من
عندنا إليك ، ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه ، ودعوت
إليه ، لتثبت بقدمهم عليك مودتنا ، وتتم به صداقتنا . وفهمت ما ذكرته .
من امر الخليفة مروان رضى الله عنه وصلى عليه ، ومن وشائج قرابتنا منه ،
وآسيت لما استلب من سلطانه ، واستبيح من حرمة ، واستحل من دمه ،
وما كان من الفاجر ابى جعفر (٢) تربه الله ، وجراءته على الله ، واغتراره به
وانتهاكه لمحارمه ، والله قد احصى عليه ذلك فأسفه منه فهو لا محاله يجازيه
جزاء سعيه .

ثم الذى ذكرته من فعل الخبيثين ابن مراجل (٣) وابن ماردة (٤) اخيه
بعده ، من الحادهما فى نحلتهما ، واساءتهما لسيرتهما ، ورغبتهما فى رعيتهما ، وشدة

-
- (١) انظر نص الكتاب فى المرجع التالى ، بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ، ترجمة
الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، مجموعة الالف كتاب رقم ٢٨٩ ، ص ص ١١٥ - ١١٨
(٢) هو ابر الجعفر المنصور ، ثانى الخلفاء العباسيين ، تولى الخلافة فى ذى الحجة ١٣٦ هـ (يونيه
٧٥٤ م) ، وتوفى فى ذى الحجة ١٥٨ هـ (اكتوبر ٧٧٥ م) ، وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة
للحج ، انظر ، المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ، ص ١٨٠ .
(٣) المقصود بابن مراجل ، الخليفة العباسى المأمون ، لان امه كانت تدعى مراجل وهى جارية
ام ولد للخليفة هارون الرشيد ، انظر : المسعودى : مروج الذهب ، ج ٢ ص ٢٤٧ .
(٤) المقصود بابن ماردة الخليفة المعتصم بالله العباسى .

وطأهما عليهم ، واستحلالها دماءهم واموالهم ، وما ذكرت من حضور وقت زوال دولتهم ، وانقطاع مدة سلطانهم ، وتأذن برد دولتنا وسلطان آبائنا الذين نبأت عنهم الكتب ، ونطقت بهم الرسل ، واوجب لهم الإجماع ، وحازه اليهم البرهان ، والذي خفضت عليه من الخروج اليهم ، وطلب الثأر منهم ، ووعدته من نصرتك لنا بما ينصر الصديق صديقه ، وما يعلم هواه فيه ومودته له . وماعظفت اليه من امر ابى حفص ، ومن معه من جالبة بلدنا ، وغلبتهم على ماغلبوا عليه من بلدك ، وخضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته ، وما سألت من أهل الإنكار لذلك ، والا نفه منه ، وحكيت من ذلك وقصصته في كتابك ، فقد قرأناه وفهمناه .

وأما مارغبت من مودتنا ، وأحبيته من مصادقتنا ، وأردت تجديده وتوصيله والتمسك به وتوثيقه ، مما كان عليه أولوك لاوليننا ، فقد رغبتنا منك في مثل الذى ذكرته من حرصك على مواصلتنا ، وان نتمسك من ذلك بما كان عليه سلفنا ، ومالم يزل من مكان قبلنا من الملوك يتمسكون به ، ويتحاضون عليه ، ويحفظه بعض لبعض ويشدون ايديهم به .

وأما ما ذكرت من امر الخليفة مروان بن محمد رحمه الله ، فان الله تعالى احب ان يكرمه ، بما انتهك من حرمة ، ونكث بيعته ، ويسوقه إلى رحمته ، وأن يشقى بذلك من ركبته منه ويخزيه ويعذبه عليه .

واما ما كان عليه الفاجر ابو جعفر فى تعذيبه العباد، وظلمه وجراته على الله وانتهاكه لمحارمه ، فان الله قد اخذه بذنبه ، واستدركه ببغيه ، وصيره من عذابه ونكاله ، إلى مالا انقطاع له ، ولا تخلص منه ، جزاء بما اجتراً ، وكذلك حكم الله فى اهل معصيته واولى الاجتراء والافتراء عليه .

وأما ما ذكرت عليه من امر الخبيث ابن ماردة ، وحضضت عليه من الخروج إلى مقلته وذكرته من تقارب انقطاع دولته ودولة اهله ، وزوال سلطانهم وما حضر من وقت رجوع دولتنا ، وأزف من حين ارتجاع سلطاننا فإننا نرجو في ذلك عادة الله عندنا ، ونستنجز مواعده إيانا ، ونتمري حسن بلائه لدينا بما جمع لنا من طاعة من قبلنا ، من اهل شأنا واندلسنا واجنادنا وكورنا وثغورنا ، وما لم نزل نسمع ونعترف ، ان النعمة تنزل لهم ، والدائرة تحل عليهم من اهل المغرب وعلى ايدينا ، فيقطع الله دابرهم ويستأصل شأفتهم ان شاء الله تعالى .

وأما ما ذكرت من امر ابى حفص الأندلسي ، ومن صار معه من اهل بلدنا في خضوعهم لابن ماردة ، ودخولهم في طاعته ، وما سألت من النظر في امورهم ، والانكار لفعالهم ، فانه لم ينزع اليه منهم الا سفلتهم وسوادهم وفسقتهم وأباقيهم ، وليسوا في بلدنا ، ولا يرتبتنا فنغير عليهم ، ونكفيك مؤنتهم ، وانما اضطروا إلى الدخول في طاعة ابن ماردة للمأمنهم من بلاده ، ودنو ناحيتهم من ناحيته ، ولم نكن نحسبك تعجز عنهم ، ولا تصعب عين نكايتهم ، ولا تتوقف عن اخراجهم عما تطرقوه من بلدك ، واذ ترى مكانهم به من موضعك ، وان الله يحوله وقوته وفضله ومنته رد الينا سلطاننا بالمشرق وما كان تحت ايدي اباثنا منه ، نظرننا ، في ذلك بما فيه صلاح لنا ولك ، واستقامه لطاعتنا وطاعتك ، وعرفنا الذي يكون من معونتك على ماعدوت اليه ، وحضضت عليه ، بما يعرفه الصديق لصديقه ، وذو المودة لأهل مودته ولم يضع لك عندما مارعيته من حقنا وقمت فيه من حفظنا .

وقد ادخلنا رسولك قرطوبوس علينا ، وكشفناه على الذى اوصيت به
الينا ، وعن كل مايجب لصديق ان يعرفه من حال صديقه ، ووجهنا اليك
بكتابنا هذا رسولين من صالحى من قبلنا ، فاكتب الينا معهما بالذى انت
عليه من الأمر الذى كتبت به الينا ، والذى يجب عليك من سائر خبرك ،
ومتعة عافيتك ، لننظر فيما يتصرفان به على حسب ماأتينا من عندك ان شاء
الله .

ملحق رقم (٣)

كتاب الخليفة الفاطمى المعزالى الإمبراطور البيزنطى

رومانوس الثانى

هذا الكتاب أرسله الخليفة الفاطمى المعز لدين الله ، إلى الإمبراطور
البيزنطى رومانوس الثانى ، وذلك حين تعرضت جزيرة كريت الإسلامية
لحصار القوات البيزنطية بقيادة نقفور فوقاس فى عام ٩٦٠ م / ٣٤٩ هـ
فاستغاث أهلها بالخليفة المعز ، وارسلوا اليه بشمال افريقيا ، وفدا لطلب
المساعدة العسكرية . وكان الخليفة المعز فى ذلك الوقت مرتبطا بالهدنة لمدة
خمس سنوات مع البيزنطيين ، لذلك فقد ارسل هذا الكتاب إلى الإمبراطور
البيزنطى رومانوس الثانى ، يذره فيه بوقوف الدولة الفاطمية بجانب اهالى كريت
وعزمها على اغاثتهم ونجدهم ، رغم انهم يدينون بالولاء السياسى للدولة
العباسية ويعتقون مذهبها السنى ، وحثه فى ذلك ان كريت وغيرها من البلاد
الإسلامية هى ملك خالص للفاطميين ، بصرف النظر عن يحكمها غيرهم ،
فهم جميعها مغتصبين لحق الخليفة الفاطمى فى حكم العالم الإسلامى بأجمعه .

والواقع ان ذلك يوضح نظرية الشيعة فى الحكم ، تلك النظرية التى حصرت الخلافة فى اسرة معينة وفى بيت معين ، هو بيت الأمام على رضى الله عنه ، وأصبحت عقيدتهم ، ان الحسن هو الخليفة بعد ابيه ، وان الخلافة ارث فى بيت الأمام على إلى يوم الدين (١) .

ويؤكده الخليفة المعز لدين الله ، ان الحق يعود دائماً لأصحابه مهما طال الأمد ، ويستشهد على ذلك بعودة العرش البيزنطى خالصاً للأسرة المقدونية وبعد ان حاول رومانوس ليكاينوس قائد البحرية البيزنطية ، اغتصاب العرش من صاحبه الشرعى الإمبراطور قسطنطين السابع ، والد الإمبراطور رومانوس الثانى ، وتأسيس اسرة جديدة يقضى بها على الأسرة المقدونية . لكن الإمبراطور قسطنطين السابع نجح فى استرجاع عرشه من أيدي المغتصبين (٢) واخيراً أوضح الخليفة المعز ، للأمبراطور رومانوس الثانى ، انه اذا استمرت القوات البيزنطية فى حصارها لكريت ومحاربتهم ، فان الهدنة بينهما ستصبح لاغية ، وسيخوض الفاطميون الحرب ضد البيزنطيين مساندين لأهالى كريت ومؤيدين لهم .

نص كتاب الخليفة المعز إلى الإمبراطور

رومانوس الثانى (٣)

... ولا يرى ان دعوة اهل اقريطش قبل اليوم إلى غيرنا ، وقد انابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا ، مما يوجب لك عندنا تمام المودعة بتركهم اليك وترك

(١) عطية مشرفة : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، ص ٥٥ .

(٢) انظر ظروف اغتصاب رومانوس ليكاينوس للعرش البيزنطى ، ثم استرجاع قسطنطين السابع لعرشه فى الفصل الثالث من هذا البحث ص ٢١٣-٢١٤ ، ص ٢٢٠-٢٢١ .

(٣) هذا النص مأخوذ من النعمان : المجالس والمسائرات ، ج ٢ ، لوحات ٤١٣-٤١٦ .

اعتراضك فيهم ، ان امتناع اهل الباطل من اهل الحق ليس بمزيل حقهم ،
وان تغلبوا عليه دونهم ، بل هو لهم بتصوير الله تع اياه اليهم . فاقريطش وغيرها
من جميع الأرض لنا بما خولنا الله منها واقامنا له فيها ، أطاعنا من أطاعنا ،
وعصانا من عصى ، وليس بطاعتهم يجب لنا ان نملك ولا بعصيانهم يحق علينا
ان نترك ، ولو كان ذلك لكان الأمر اليهم لا إلى الله تع الذى خولنا ، ولا لنا
ان شاؤوا اعطونا ، وان احبوا منعونا ، كلا ان ذلك لله الذى له مافى السموات
ومافى الأرض ، هو الذى اصطفانا وملكنا واعطانا ، ولو كان ذلك للخلق لما
وسعنا قتال من امتنع منهم ، ولا رد ما انتزعوه بالغصب من ايدينا ، اذا
اقدرنا الله على ذلك وبه قوانا . قلت انت غير ذلك ، وانت ترى أن مافى
يديك لك فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى ابيك من قبلك ، ثم دارت
لكما عليه الدائرة . فان رأيت أن من احتجز شيئا وتغلب عليه فهو له دون
صاحب الحق الذى ملكه ، فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ،
ولا انتزع ماصار اليه من بين يديه ، فهذه سبيل اهل الحق عندنا ، فان اعترفت
لها فقد انصفت ، وان جهلتها لم يكن جهلك اياها حجة على من عرفها .
وعهدك ان تماديت على حرب من أناب الينا ، منبوذ اليك فانظر لنفسك ولأهل
ملكك ، فأنا مناجزوك واياهم الحرب بعون الله لنا وتأيدته ولا حول
ولا قوة الا به .

ملحق رقم (٤)

رسالة الخليفة المعز الفاطمى إلى كافور الاخشيدى

هذه هى الرسالة التى بعث بها الخليفة المعز لدين الله الفاطمى إلى كافور
الاخشيدي ، المسيطر على شئون مصر آنذاك ، وذلك فى نطاق الجهود التى
بذلها الخليفة المعز لأنقاذ اهالى كريت المسلمين من قوات الاحتلال البيزنطى

المحاصرة لهم بقيادة نقفور فوقاس . والمعروف انه كانت هناك علاقات متبادلة بين المعز وكافور ، رغم ان مصر كانت لاتزال تدين بالسيادة للدولة العباسية ، غير ان كافور كان حريصا على توثيق علاقاته بكل من الخليفة العباسي والخليفة الفاطمي ، فكان ، كما قال ابن تغري بردي «يهادى المعز صاحب المغرب ، ويظهر ميله اليه ، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس ، ويخضع هؤلاء وهؤلاء» (١) .

وقد ارسل الخليفة المعز بهذه الرسالة إلى كافور ، بغرض التعاون معا لنجدة جزيرة كريت ، وكانت خطة الفاطميين ان ترسل مصر بأسطول يجتمع مع الأسطول الفاطمي في مرسى طنبه في اقليم برقة ، الذي يخضع لسلطة الفاطميين ، وتبحر القوات الفاطمية والمصرية معا إلى كريت . لكن جهود المعز في هذا السبيل ذهبت هباءا ، ولم تجد دعوته تلك اذنا صاغية لدى كافور وربما كان السبب في ذلك هو الأحوال السياسية المضطربة التي كانت تمر بها مصر وقتذاك ، ومن المحتمل ان يكون السبب كذلك هو رغبة كافور في عدم اغضاب الخلافة العباسية ، بانضمامه السافر للفاطميين ، وتعاونه معهم على هذا النحو ، ولهذا فلم تحقق هذه الرسالة الغرض الذي ارسلت من اجله .

نص رسالة الخليفة المعز إلى كافور الأنخشيدي (٢)

... ان الله سبحانه قد خولنا من فضله وأمرنا من معونته وتأيدته بما نرى بحوله وقوته ونصره لنا واظهارنا على عدونا ، أنا نكف أيدي الكفرة

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٦ .

(٢) هذا النص مأخوذ من المصدر التالي : النعمان : المجالس والمسائرات ، ج٢ ، لوسات ،

عما تطاولت اليه من حرب هذا الصقع والايقاع بأهله ، وقد انتهى الينا ،
انك اظهرت الحركة إلى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك وانت
لعمري بذلك اجدر ، لقربهم منك ، واتصالهم بك وميرتهم بلدك وكونهم
واياك في دعوة واحدة ، ولو اسلمناهم اليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم
علينا حجة في ذلك ، ولكننا آثرنا نصرة أمة جدنا محمد ص ولم نر التخلف عن
ذلك ، وقد رجونا له ، وألقوا بأنفسهم الينافيه ، ونحن لا (نحول) (١) بينك
وبين الجهاد في سبيل الله ، ولا نمنعك من تمام ماأملت منه ، فلا يكن مايتصل
بك من انفاذ اساطيلنا يرثك عن الذي هممت من ذلك ، وان تخشى على من
تبعث به وعلى مراكبك منا ، فلك علينا عهد الله وميثاقه أنا لانكون معهم الا
بسييل خير ، وأنا نحلهم محل رجالنا ونجعل ايديهم مع ايدينا ، ونشر كهم فيما
أفاء الله علينا ، ونقيمهم في ذلك وغيره مقام رجالنا ، ومراكبك مقام
اساطيلنا حتى يفتح لنا ان شاء الله ثم ينصرفوا اليك على ذلك ، أو يكون من امر
الله وقضائه ما هو فاعله ، فاعلم ذلك وثق به منا ، ففي تظافر المسلمين على
عدوهم واجتماع كلمتهم ، اعزاز لدين الله وكبت لأعداءه ، فقد سهلنا لك
السبيل والله على مانقول وكييل ، فان وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد ،
فاعمل على ان تنقذ مراكبك إلى مرسى طنبه من ارض برقة ، لقرب هذا
المرسى من جزيرة اقريطش ، ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى
مستهل ربيع الآخر ، بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه ، والا ترى
ذلك ، فقد أبلغنا في المعذرة اليك والنصيحة لك ، وخرجنا مما علينا اليك ،
ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه ، مستغنون عنك وعن غيرك ،
وعلى عزم وبصيرة في انفاذ اساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما خولنا الله اياه ، وقد
أقدرنا عليه مما نرى بحوله وقوته نبليح به مانؤم اليه بذلك ونصمد بحوه ، فبالله
نستعين وعليه نتوكل وعلى تأييد نعول ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

(١) هذه الكلمة جاءت في النص الاصل (لا حول) والاصح (لا نحول) .

ملحق رقم (٥)

كان للبيزنطيين تقاليد معينة يتبعونها عند الاحتفال بانتصاراتهم العسكرية على أعدائهم ، وكانت هذه الاحتفالات تتم عادة في الهيودروم ، ويحضرها الامبراطور والامبراطورة وكبار رجال الدولة وعامة الشعب ، وكان يتخلل هذه الاحتفالات الأناشيد والبهالات الدينية . وبعد استرجاع نقفور فوقاس لجزيرة كريت في عام ٩٦١ م ، اقيم احتفال كبير في الهيودروم ابتهاجا بالانتصار الذي احرزوه على المسلمين في كريت ، وحضر هذا الاحتفال الامبراطور رومانوس الثاني ، وبعد ان تم استعراض موكب الاسرى الذين كان بينهم امير كريت السابق عبد العزيز بن شعيب وابنائهم ، اخذ رجال الدين البيزنطيين يرتلون هذه الأنشودة التي تمجد انتصارهم على المسلمين .

الترجمة العربية للأنشودة (١)

المجد للرب سيد الجميع خالق كل شيء ، المجد للرب الذي نصرنا على ابناء هاجر (٢) المجد للرب الذي قوى الامبراطور الورع ، المجد للرب الذي ضرب الاسماعيليين (٣) الذين حاربوا المسيح ، المجد للرب الذي خلص اسرانا

(١) النص اليوناني للأنشودة اوردته الامبراطور قسطنطين السابع في كتابه «المراسم الامبراطورية» الجزء الثاني ، ص ٣٣٢ - ٣٣٣ .

(٢) المرجح أن المقصود «بابناء هاجر» المسلمون ، وكان البيزنطيون يطلقون عليهم اسم المهاجرين (Aga1enus) نسبة اليها .

انظر المصدرين التاليين :

Genesius, p. 33 Zonaras, p. 491.

(٣) الغالب أن الاسماعيليين هم المسلمون ايضا ، وهنا ينسبهم البيزنطيون إلى النبي اسماعيل عليه السلام .

من أيدي الأعداء ، المجد للرب الذي خرب مدن العرب ، المجد للرب الذي
اهلك الذين ينكرون أم الآله ، المجد للرب الذي لطخ بالعار الرجل المتغطرس
هدو المسيح ، المجد للرب الذي يحكم جيذا هكذا . مولانا من لا يمجدا ارادتلك
مولانا من لا يحمد صنيع يديك ؟ مولانا نشكرك جدا ، لأنك تكن الكثير من
الشفقة لشعبك بكونك تتركهم بكل هذه القوة .

المصادر والمراجع

اولا — المصادر البيزنطية

أ — المصادر اليونانية :

- كتاب يوحنا كامينيائي بعنوان «قهر سالونيك» ، وقد نشر في بون في عام ١٨٣٨ م .
- الملحمة التي كتبها ثيودوسيوس الشماس واطلق عليها اسم «فتح كريت» .
- كتاب المؤرخ البيزنطي كيدرينوس المسمى «موجز التاريخ» ، الذي نشر في بون عام ١٨٣٨ م .
- كتاب « المراسم الإمبراطورية » للإمبراطور قسطنطين السابع ، وقد نشر في بون في عام ١٨٤٠ م .

ب — المصادر اليونانية المترجمة إلى اللغة اللاتينية :

- Diaconus, Leonis Diaconi Historiae, (C.S.H.B.) Bonn, 1828
- Constantin Porphyrogenetus, De Thematibus, (C.S.H.B.), Bonn, 1940.
- De Administrando Imperio, Bonn, 1840.
- Genesius, Basileiai, (C.S.H.B.) Bonn 1834.
- Leonis Philosophi, Tactica (Patrologiae Graecae, Parisina 1863).
- Monachus, Vitae Recentiorum Imperatorum, (C.S.H.B.) Bonn 1838.
- Nicolai Constantinopolitani Archiepiscopi Epistolae (Patrologiae Cur- sus Completus) (1863).
- Symeon Magestri, Annales, Bonn, 1838.
- Theophanes Continuatus, Bonn, 1838.
- Zonaras, Epitomae Historiarum, Bonn, 1838.

ثانياً — المصادر العربية

- ابن الأبار : (أبو عبدالله بن عبد الله القضاعي)
الحلة السراء ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ،
جزءان ، القاهرة ، ١٩٦٣ .
- ابن الأثير : (علي بن أحمد بن أبي الكرم)
الكامل في التاريخ ، الأجزاء ٥ — ٧ ، المنيرية ،
١٣٥٣ — ١٣٥٧ هـ .
- ابن الخطيب : (لسان الدين بن الخطيب السلماي)
أعمال الاعلام في من بويج قبل الاحتلال من ملوك
الإسلام . تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال ، الطبعة
الثانية ، بيروت ، ١٩٥٦ .
- ابن العديم : (كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله)
زبدة الحلب في تاريخ حلب ، جزءان ، تحقيق
الدكتور سامي الدهان ، دمشق ، ١٩٥١ .
- ابن الفقيه : (أبي بكر أحمد بن محمد الهمداني)
مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٣٠٢ هـ .
- ابن القلانسي : (أبو يعلى حمزة)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨ .
- ابن القوطية القرطبي : (أبو بكر محمد)
تاريخ افتتاح الأندلس ، حققه وشرحه وعلق عليه

مخطوطتي باريس ومدريد وقدم له عبد الله انيس
الطباخ بيروت ، ١٩٥٧ .

ابن الوردى : (سراج الدين ابى حفص عمر)
خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، مصر ١٩٣٩ .

ابن تغرى بردى : (جمال الدين يوسف)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، الاجزاء
١ - ٤ الطبعة الاولى ، دار الكتب المصرية .

ابن جبير : (ابى الحسن بن احمد بن جبير الكنانى الأندلس)
الرحلة ، بغداد ، ١٩٣٧ .

ابن حوقل : (ابو القاسم ابن حوقل النصيبى)
صورة الارض ، جزاءن ، الطبعة الثانية ، ليدن ،
١٩٣٨ - ١٩٣٩ .

ابن خلدون : (عبد الرحمن بن محمد)
- المقدمة ، نشر المكتبة التجارية ، مصر .
- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الاجزاء ١ - ٣ ،
بولاى ١٢٨٤ هـ .

- اخبار دولة بنى الأغلب بأفريقية وصقلية وبقية
اخبار صقلية إلى حين استيلاء الافرنج عليها (من
كتاب العبر) طبعة باريز ، ١٨٤١ .

ابن خرداذبة : (ابو القاسم عبيد الله بن عبد الله)
المسالك والممالك ، ليدن ، ١٨٨٩ .

ابن رسته : (ابى على احمد بن عمر)

الاعلاق النفسية ، ليدن ، ١٨٩١ .

ابن سعيد المغربي : (ابو الحسن على بن موسى)

المغرب فى حلى المغرب ، الجزء الاول ، حققه
وعلق عليه ، الدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف
مصر .

ابن عذارى المراكشى :

البيان المغرب فى اخبار الأندلس والمغرب ، نشر
وتحقيق س كولان ، ليفى بروفنسال ، الجزء الاول
ليدن ، ١٩٤٨ ، الجزء الثانى ، ١٩٥١ .

ابن المنكلى : (محمد)

الاحكام المملوكية والضوابط الناموسيه فى فن التمثال
فى البحر ، مخطوط مصور ، مطبعة دار الكتب
المصرية رقم التصوير ١٩٥٠ ، موجود بمكتبة كلية
الاداب - جامعة الاسكندرية .

ابن هشام :

السيرة النبوية ، حققها وضبطها ووضع فهرسها ،
مصطفى السقا ، ابراهيم الايبارى ، عبد الحفيظ
شلبى ، مجموعة تراث الإسلام ، رقم (١) ، القسم
الثانى ، مصر ، ١٣٧٥ هـ .

ابو الفدا : (اسماعيل بن علي عماد الدين)
المختصر في اخبار البشر ، ٤ اجزاء ، الطبعة الاولى
المطبعة الحسينية ، ١٣٢٥ هـ .

الادريسي : (محمد بن عبد العزيز الشريف الفاوي)
- نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والبلدان ،
تحت الجزء الرابع من الاقليم الرابع .
- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، رومه ، ١٨٧٨ م

الاصطخري : (ابي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي) .
مسالك الممالك ، لندن ، ١٩٢٧ .

البلاذري : (احمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان ، ١٣١٧ هـ / ١٩٠٠ م .

: الحسن بن عبد الله
آثار الاول في ترتيب الدول .

الحميدى : (ابي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله)
جدوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس ، قام
بتصحيحه محمد بن تاويت الصنجي ، القاهرة ،
الطبعة الاولى ، ١٩٥٢

الحميري : (ابي عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم)
صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب « الروض
المعطار في خبر الاقطار » ، غنى بنشرها وتصحيحها
وتعليق حواشيها ، ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٧

- الـرـزـداری : (ابو شجاع)
ذیل تجارب الامم ، مصر ، ۱۹۱۶ .
- السیوطی : (جلال الدین عبد الرحمن)
تاریخ الخلفاء ، القاهرة ، ۱۳۵۱ هـ .
- الشافعی : (الحافظ ابی الفضل شهاب الدین احمد بن علی
بن محمد بن حجر العسقلانی)
فتح الباری بشرح صحیح البخاری ، ستة اجزاء ،
مصر ۱۳۴۸ هـ .
- الطبری : (ابو جعفر محمد بن جریر بن یزید بن قلیبر بن
خالد)
تاریخ الامم والملوک ، الجزءان ۱۰ ، ۱۱ - الطبعة
الاولی ، المطبعة الحسینیة .
- القلقشنودی : (شهاب الدین ابو العباس احمد بن علی)
صبح الاعشی فی صناعة الانشا ، الأجزاء ۱ - ۵ ،
طبعة دار الکتب .
- الکندی : (ابو عمر محمد بن یوسف بن یعقوب)
ولاة مصر ، تحقیق الدكتور حسین نصار . دار
صادر ، بیروت ، ۱۳۷۹ هـ / ۱۹۵۹ م .
- المالکی : (ابی بکر عبد الله بن ابی عبد الله)
ریاض النفوس ، تحقیق الدكتور حسین مؤنس .

المسعودى

: (ابو الحسن على)

- التنبية والاشراف ، ليدن ١٨٩٣ .
- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، جزءان ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .

المقصدى

: (شمس الدين ابو عبد الله)

- احسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٦ م .

المسراكشى

: (ابو محمد عبد الواحد بن على)

- المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ، ضبط وتصحيح وتعليق ، محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى
- القاهرة الطبعة الاولى ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .

المقبرى

: (احمد بن محمد المقبرى التلمسانى)

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، حققه وضبط غرائبه وعلق حواشيه ، محمد محى الدين
- عبد الحميد ، الطبعة الاولى ، ١٩٤٩ .

المقريزى

: (تقى الدين)

- المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، الجزء الاول ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .
- السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر الدكتور زيادة
- القاهرة ، ١٩٣٤ .
- اتعاظ الخلفا باخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، نشر
- الدكتور الشيال ، القاهرة ١٩٤٨ .

- النعمان : (ابو حنيفة بن محمد المغربي)
المجالس والمسائرات ، الجزء الثانى ، مخطوط بمكتبة
جامعة القاهرة ، رقم ٢٦٠٦٠ .
- النويرى : (احمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين)
نهاية الارب فى فنون الادب ، الجزء الاول والثانى
نشر دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣ ، ١٩٣٠ ، والجزء
الثانى والعشرين مايزال مخطوطا موجودا بمكتبة كلية
الاداب جامعة الاسكندرية .
- النويسرى السكندرى : (محمد بن قاسم)
الامام بما جرت به الاحكام المقضية فى وقعة
الاسكندرية ، نسخة مصورة من مخطوط دار الكتب
المصرية المقيمة برقم ١٤٩٩ تاريخ ، ومحفوظة
بمكتبة كلية الاداب جامعة الاسكندرية برقم ٧٣٧ م
- اليقوبى : (احمد ابن ابى يعقوب بن وهب بن واضح)
التاريخ ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .
- ساويرس بن المقفع : سير الآباء البطارقة ، طبعة باريز ، ١٨٠٤ .
- مسكويه : (ابو على احمد بن محمد بن يعقوب)
تجارب الامم وتعاقب الهمم ، الجزء السادس ، مصر
١٩١٥ .
- يساقوت : (شهاب الدين ابو عبد الله الحموى الرومى)
معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر .

يحيى بن سعيد الانطاكي : تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكي ، نشر
كراتشوفسكى وفازيلييف ،
طبعة باريز ، ١٩٢٤ ، وطبعة بيروت

ثالثا - المراجع العربية

ابراهيم احمد العدوى : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ، الطبعة
الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

- الاساطيل العربية في البحر الابيض المتوسط ،
القاهرة ١٩٥٧ .

- الامويون والبيزنطيون ، القاهرة ، الطبعة الاولى
١٩٥٣ ، والطبعة الثانية ١٩٦٣ .

السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية (٣٢٣ - ١٠٨١ م) القاهرة
١٩٦٠ .

- الشرق الأوسط والحروب الصليبية (١٠٥٠ .
١١٩٣ م) ، القاهرة ١٩٦٣ .

السيد عبد العزيز سالم : تاريخ الأسكندرية وحضارتها في العصور الإسلامية
الطبعة الثانية ١٩٦٩ .

- التاريخ والمؤرخون العرب ، الأسكندرية ، ١٩٦٧

حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية
وبلاد العرب ، الطبعة الثانية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة
١٩٥٨ .

: المسلمون فى حوض البحر الابيض المتوسط ،
مقال فى المجلة التاريخية المصرية ، المجلد الرابع ،
العدد الاول ، مايو ١٩٥١ .

زينب عصمت راشد : كريت تحت الحكم المصرى (١٨٣٠ - ١٨٤٠)
نشر الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة .

سعد زغلول عبد الحميد : الاسكندرية من الفتح العربى حتى العصر الفاطمى
مقال فى كتاب « تاريخ الاسكندرية وحضارتها منذ
اقدم العصور » ، الاسكندرية ، ١٩٦٣ .

سعيد عبد الفتاح عاشور : قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ، ١٩٥٧ .
- الحركة الصليبية ، صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد
العربى فى العصور الوسطى ، الجزء الاول ، الطبعة
الاولى ١٩٦٣ .

- اوروبا العصور الوسطى ، الجزء الاول ، الطبعة
الرابعة ١٩٦٦ .

سيده اسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ، ١٩٤٧ .
- مصر فى عصر الاخشيديتين ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

عطية مصطفى مشرفه : نظم الحكم بمصر فى عصر الفاطميين ، القاهرة ،
١٩٤٨ .

- عمر كمال توفيق : الامبراطور نقفور فوقاس واسترجاع الاراضى المقدسة ، الاسكندرية ١٩٥٩ .
- فتحى عثمان : الحدود الإسلامية البيزنطية بين الاحتكاك الحربى والاتصال الحضارى ، جزاءن ، القاهرة ١٩٦٧ .
- محمد امين الحانجى : منجم العمران فى المستدرك على معجم البلدان ، الطبعة الاولى ، مصر ، ١٣٢٥ هـ .
- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، العصر الاول ، الطبعة الاولى ، القاهرة ، ١٩٤٣ .
- نبيه عاقل : الامبراطورية البيزنطية . دراسة فى التاريخ السياسى والثقافى والحضارى . دمشق ، ١٩٦٩ .

رابعاً : المراجع العربية

- اومان :
الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة مصطفى طه بدر ، القاهرة ، ١٩٦٠ .
- باركر : (ارنست)
الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور الباز العرينى ، القاهرة ١٩٦٠ .

بـروفـنـسـال

: (ليفى)

الإسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة السيد
عبد العزيز سالم ، محمد صلاح الدين حلمى ،
ومراجعة لطفى عبد البديع ، مجموعة الالف كتاب
رقم (٨٩) .

بـيـنـز

: (نورمان)

الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين
مؤنس ، ومحمود زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

حـتـى

: (فيليب)

تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ، ترجمة كمال
اليازجى ، بيروت ، ١٩٥٩ .

دـيـفـز

: (هـ . و .)

اوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة الدكتور
عبد الحميد حمدى محمود ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

رانسيمان

: (ستيفن)

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ،
ومراجع زكى على ، القاهرة ، ١٩٦١ .

فـازـيـلـيـف

:

العرب والروم ، ترجمة الدكتور عبد الهادى شعرة
ومراجعة فؤاد حسين ، القاهرة ، نشر دار الفكر
العربى .

لسوميسار

: (مورييس)

الاسس النقدية للسيادة الاقتصادية ، بحث ترجمه
ونشره توفيق اسكندر ، في كتاب « بحوث في
التاريخ الاقتصادي ، القاهرة ١٩٦١

لسويس

: (ارشيبالد)

القوى البحرية في حوض البحر الابيض المتوسط
ترجمة احمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠ .

هارتمان

: (ل . م) وباراكلاف (ج) :

الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة
الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، نشر دار المعارف
١٩٧٠ .

خامسا — المراجع غير العربية

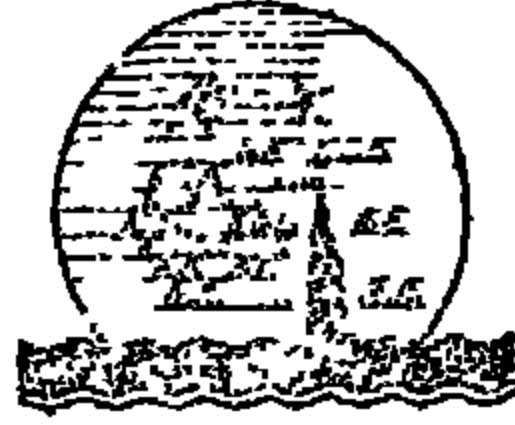
- Bailly, A. : Byzance, Paris.
- Brehier, L.; Le monde byzantine, 3 volumes, Paris, 1947—1950.
- Buckler, g.; Anna Comnera, Oxford, 1929.
- Bury, Y.B.; A History of the Eastern Roman Empire, London, 1912
The Imperial Administrative Systeme in the Nineteen Century, London, 1911.
- Cahen, C. : La Syrie du Nord à l'époque des Croisades, Paris, 1940.
- Cambridge Medieval History, vols IV, V, Cambridge, 1926.
- Canard, M. : Histoire de la Dynastie des Hamdanides de Jezira et de Syrie, Paris 1953.
- Dictionnaire de Théologie Catholique, Sous La Direction de Vacant et Mangenot, Neuvième édition, Paris 1922.
- Diehl, Ch : Byzance, Grandeur et decadence, Paris, 1919.
Histoire de l'empire Byzantin, paris 1920.
- Diehl et Marçais : Le monde Oriental de 395 à 1081, Paris, 1936.
- Encyclopedia Britannica, Fourteenth Edition, 12 vol, London, 1929.
- Encyclopedie de l'Islam, Par Hautsana, Basset et Arnold, 11 volumes, E.K. 1927.
- La Grande Encyclopedie, Inventaire Raisonné des Sciences, des lettres, des arts, Par une Societé de Savants et de gens de lettres, 31 volumes, Paris.
- Finaly, G. : History of the Byzantine Empire from DC XIV to ML VII, London 1856-; History of Greece, ED. Tozer, Oxford, 1877.
- Gibbon, E. : The History of the decline and Fall of the Roman Empire, ED. Bury
- Gregoire, H., : Etudes sur le neuvième Sécle, (la revue de Byzantion, Tome VIII, Bruxelles, 1933).

- Hitti, Ph. : History of the Arabs, London, 1946.
- Hussey, Y. : The Byzantine World, London, 1955.
- Oman, C., The Byzantine Empire, London
- Ostrogorsky, G. : History of the Byzantine State, English Trans, Hussey, Oxford, 1956.
- Rambaud, A. : Etudes sur l'Histoire Byzantine, Paris, 1912.
- Schlumberger, G. : Un Empereur Byzantin au dixième siècle, Nicéphore Phocas, Paris, 1890.
- -: L'Epopée Byzantine à la fin du dixième Siècle, 3 vols. Paris 1896 1950.
- Vasiliev, A. : Histoire de l'Empire Byzantin, traduit du Russe par Bourguina, 2 vols. Paris, 1932.

المحتويات

الصفحة

٧	المقدمة
١١	عرض وتحليل لمصادر البحث
	الفصل الأول :
٣٠	الفتح الإسلامى لجزيرة كريت
	الفصل الثانى :
٩٥	الأسرة العمورية ومحاولات استعادة كريت
	الفصل الثالث :
١٥١	صراع القوى البحرية الإسلامية ضد بيزنطة
	الفصل الرابع :
٢٣٥	نقفور فوقاس واسترجاع كريت
٢٧٧	الخاتمة
٢٨٥	الملاحق
٣٠١	المصادر والمراجع



الهيئة العامة للكتاب

طبع بمطابع جريدة السفير
في شارع الصحافة — اسكندرية

٤٠٠ قرش

١/١٢٢٠٥١

الناشر : دار المعارف بالاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول
٢ ميدان التحرير (المنشية)